

اميرة في السلاطين

تأليف

أونوريه دي بلزاك

ترجمة

عبد الفلاح الديري



دار المغارف بمصر

اميرة في السلاطين

تأليف أونوريه دي بلزاك

ترجمة عبد الفلاح الديري



دار المغارف بمصر

المقدمة الروائي العظيم

بعد أفورية دى بلزاك بين أشهر كتاب الرواية قاطبة ، فعلى يديه اكتمل تحول الرواية من مجرد « حكاية » أو سرد لأحداث حقيقية أو خيالية إلى بناء فنى متكامل يزخر بالحياة والأحداث . ويخضع لمعايير فنية واضحة . وهو لم يفعل ذلك كما يفعل النقاد عن طريق صياغة النظريات ، وإنما صنعه عملاً عن طريق عشرات الروايات التى كتبها خلال حياته التى لم تزد على واحد وخمسين عاماً . وليس أدل على منزلته الأدبية من أن أعماله قد تحفظت منذ أمد بعيد إطار الأدب الفرنسى ، ووقلت إلى الكثير من لغات البشر . فهو إلى جوار شكسبير وديكتر أكثر الأدباء نشرًا فى مختلف اللغات . ومن الغريب أن تفقر المكتبة العربية إلى معظم مؤلفاته .

وقد ولد الكاتب الفرنسى الكبير فى العشرين من مايو ١٧٩٩ ، نفس السنة التى عاد فيها نابليون من حملته على مصر ، أى أنه ولد عشية إعلان نابليون نفسه إمبراطوراً على الفرنسيين ، وقد مات فى الثامن عشر من شهر أغسطس ١٨٥١ عشية إعلان

دين الثورة

BALZAC

LA FEMME DE TRENTE ANS

طبعة الاستدعاء

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كوديشن النيل - القاهرة ج ١ ع ١ م

لويس نابليون ، ابن أخى بوناپرت نفسه ، إمبراطوراً من جديد .
وتخلل تلك الخمسين عاماً شهدت قوتها أنهار الإمبراطورية الأولى ،
 وإعادة الملكية في ١٨١٥ ، ثم ثورة ١٨٣٠ التي أطاحت بفرع من
 الأسرة المالكة ، لتأتي بفرع آخر ، ثم ثورة ١٨٤٨ التي أعلنت الجمهورية
 الثانية ، وأخيراً انقلاب لويس نابليون المذكور . وهكذا عاش بلزك
 فترة من أغنى فترات تاريخ بلاده من حيث التغيرات السياسية والاجتماعية
 والاقتصادية التي ما كانت لتفلت من نظاره الناقد .

وهو ينتمي اجتماعياً إلى الطبقات الوسطى ، فأبوه موظف من أصل
 ريفي أمضى حياته في خيلعة الدولة عبر تغير أشكالها السياسية ، وأمه
 ابنة أحد التجار من باريس . وكانت تلك الطبقات في قلب الأحداث
 التاريخية ، فهي تزعمت الثورة الفرنسية الكبرى ضد النبلاء الإقطاعيين ،
 وهي التي استفادت من إمبراطورية نابليون ، ثم انقلبت عليه حين
 رأت مطالعة الشخصية تضر بمصالحها . وقد حاولت أجزاء منها أن
 تتعايش مع الملكية حين عودتها إلى السلطة ، وهي الطبقات التي كان
 ينتمي إليها غالبية المثقفين ، وقد حاول أهل بلزك أن يدفعوا به إلى
 إحدى المهن القانونية ، فقصع المرحلة الأولى من دراسة القانون ، ثم عمل
 في مكتب محام ، ومكتب موثق عقود ، ولكن هذا العمل الرتيب ماكان
 ليرضى الفتى الطموح الذي كان يرقب من حوله عجباً يمكن أن يرقى
 فيه ضابط صغير من كورسيكا إلى عرش الإمبراطورية . ويصبح

فيه تاجر صغير . بفصل المضاربة أو توريد المؤن للجيش - من أصحاب
 الملايين ، وترفع المغامرات السياسية بعض أصحاب القلم إلى مراكز
 الصدارة . ومن ثم هجر بلزك مهمة القانون محاولاً تحقيق « المجد »
 عن سبل أخرى ، فجرب الصحافة والنشر والطباعة والعمليات المالية ،
 ولكن كل محاولاته لم توثره إلا الإحفاق والديون التي تراكت عليه
 حتى وفاته . وكانت أعماله الأدبية الأولى أبعد ما تكون عن النجاح .
 ولكنه عاد إلى الكتابة تحت إلحاح مزدوج من موهبته الطبيعية ،
 ومن حاجته إلى المال ، فقد كان ينشر معظم أعماله في الصحف في
 شكل « مسلات » يقبض ثمنها مقدماً .

ولما بلغت النظر في أدب بلزك هو غزارة الإنتاج بشكل منقطع
 النظير . فقد كتب في حوالي ربع قرن ما يزيد على تسعين رواية وقصة
 قصيرة ومسرحية . وفي السنوات الثلاث ما بين ١٨٣٢ و ١٨٣٥ وحدها
 كتب عشرين مؤلفاً .! وقد أحصى بعض المتخصصين في الدراسات
 البلاغية الشخصيات المذكورة في رواياته ، فوجد أن تلك الروايات
 تضم ٢٤٧٢ شخصية خيالية محددة بالاسم والمعلم ، و ٥٦٦ شخصية
 مذكورة بالوثيقة فقط ، فضلاً عن شخصيات تاريخية حقيقية عديدة .
 ولكن ثمة ما يذهل أكثر من الأرقام : لقد تمكن بلزك من أن يجمع
 الجزء الأهم من رواياته بعد الطبعة الأولى في أكثر من عشرين مجلداً تحت
 اسم « الكوميديا الإنسانية » . وفي تلك الروايات جميعاً تصادف حسداً

من الشخصيات تلعب من رواية إلى أخرى الدور الذي رسمه لها بلزاك. ويخرج القارئ بإحساس عميق بأنه أمام عالم متكامل متشاكل المصالح متواتر الأحداث ، تمثل كل رواية جانباً من حياته ، أو طرفاً من أحداثه ، أو لحظة من تاريخه . ويرغم أن المؤلف لم يرسم خطة « للكوميديا الإنسانية » مقدماً ، بل كتب رواياتها عبر الخطوط ، ولم يقم بجمعها إلا فيما بعد ، فإن الشخصيات التي تعاود الظهور من رواية إلى أخرى تحافظ على مميزات وتنسق تصرفاتها كما لو كانت نجماً دائماً في سجدان بلزاك .

وكانت تلك الشخصيات الكثيرة تغطي تقريباً كل نماذج البشرية التي تميز بها المجتمع الفرنسي ، في النصف الأول من القرن الماضي : فمن النبيل المغامر الذي يحاول تنظيم مقاومة مسلحة لصالح الملكية ضد الثورة ، إلى السيدة « الأرستقراطية » المرفهة ، إلى قاطع الطريق الماربع من « اللجان » . والواقع أن بلزاك كان من خلال عمله الروائي الضخم مؤرخاً للمجتمع الذي عاش فيه كأدق ما يكون المؤرخ ، وتعد رواياته مرجعاً أساسياً لكل من يدرس الحياة اليومية لفرنسا في تلك الفترة . وقد ساعده على ذلك عدة أمور : فهو كان يقصد قصداً أن يؤرخ لعصره بعد أن حاول في البداية كتابة روايات تاريخية عن نشأة فرنسا ، وهو من ناحية أخرى كان على معرفة وثيقة بالمجتمع الذي عاش فيه ، فكان أجداده لوالده يربطون أصوله بالفلاحين وبمعيشة القرية وأحلام شباب مدن

الأقاليم الطامعين للمجد في العاصمة ، كما عرف من أسرة والدته حياة تجار باريس وشاغليهم ، ومن فترة عمله القصيرة في الشؤون القانونية لمس عن كتب أنواع العلاقات القانونية الجديدة التي بدأت تستقر في البلاد على ضوء قوانين نابليون الشهيرة ، وخلال مغامراته المالية الخففة خالط أوساط « البورصة » وتعلم الكثير عن المضاربين وأصحاب البنوك ، وهو كصحنى ، ثم كآديب ، عاش عن كتب حياة الصحافة ، وعين بعد في مرحلة الطفولة تخلط الإعلام بالرأى ، والمعارضة بالشهيرة والابتزاز ، وهو كفنان نجح في أن يشق لنفسه طريقاً - بفضل ما حيته به بعض سيدات المجتمع « الأرستقراطي » من حماية - إلى « صالونات » باريس ، وعرف طرقاً مما يدور فيها وفيها وزاعها . وهو أخيراً كان حريصاً جداً احرص على استمرار المراسلة بينه وبين قرائه ، وبصفة خاصة قارئاته اللاتي كن يقطن خارج باريس ، ويجلثن في رسائلهن إليه وسيلة لبث أشجانهن ، والتفتيس عما يحسن به من ضيق . ومن خلال بعض هذه المراسلات تعرف إلى السيدة التي أصبحت « حبة الكبير » ومن ناحية ثانية كان بلزاك يجيد الوصف ويؤلم به ، فهو حين يشير إلى مرض منيدة واعتكافها في حجرته نومها لا يملك أن يمنع نفسه عن أن يتناول أثاث الحجرة قطعة قطعة بالوصف الدقيق . وربما كان ولعه هذا بالتصوير هو الذي دفعه إلى حد صياغة الحوار في رواياته بالعافية عند التزميم ، أو بمحاكاته اللفظة الأجنبية إذا لم يكن المتحدث فرنسياً أصيلاً .

وأبرز ما أزعج له بلزك عبر رواياته هو مظاهر صعود الطبقة
الرأسمالية الجديدة وأساليب تكوينها ؛ فهذا الأب « جوريو » يقرر
على نفسه كل التفتير ليوفر « الدولة » لبنتيه الحسنات ليتزوجا
بعض النبلاء أو الأثرياء ؛ وهذا « جرانديه » يدخر محاولاً تمويل
مطبعته الصغيرة إلى مؤسسة تجارية كبيرة ؛ وذلك « البارون نوسينجن »
يضارب في البورصة ويسحق منافسيه في غير رحمة بعد دعم مركزه
كأحد ملوك المال ؛ وهناك « لوسيان شاردان » يحاول استغلال وسامته
وأدبه ليكسب قلب بعض سيدات الأرستقراطية ويصعد بفضل تفوذهن ،
وغمة المضارب على أسعار القمح الذي جمع ثروة ضخمة أثناء حروب
نابليون ؛ وهناك « سيزار بيروتو » الذي حاول أن ينشئ صناعة حديثة
لستحضرات التجميل مستخدماً « فن الإعلان » على نطاق واسع ،
فنجح أول الأمر ، ولكن أظاحت به المضاربة . وفي خلفية الصورة نجد
رجل « البوليس السياسي » الذي خدم جميع نظم الحكم المتعاقبة ،
والذي يستخدم ما جمع من المعلومات في الضغط على الكتاب والساسة ..

ولم تكن الوفرة في إنتاج بلزك على حساب المستوى الفني . وإذا
كان أسلوبه أحياناً يقل عن المستوى المنتظر من كاتب مثله ، فإن
عبداً كبيراً من رواياته قد احتل محلاً ممتازاً بين أروع القصص العالمي
في كل العصور . وقد اخترنا من بينها « امرأة في الثلاثين » لما تمتاز به
من تحليل عميق وجدال عرض . ويبدو أن الكاتب قد اختار البظلة

من خلال الرسائل الكثيرة التي كان يتلقاها من نساء في سن الثلاثين ؛
لأنها برزت أمامه بقوة شخصيتها . وأغلب الظن أنها كانت شديدة
الحظوة لدى الناس . وقد استطاعت تجربة حكيمة أن تقنع بلزك
— عندما قابلها — ببيات مبادئها ، وكانت مصدر إغواء بالنسبة لأغلب
مواقف الصرامة التي تخللت حياة السيدة ديجليمون داخل هذه الرواية .

لقد كان بلزك يعتر بأن يكون روائياً قادراً على تصوير المجتمع على
حقيقته دون تجميل لما يسوده من عادات أو أوضاع أو سلوك أو أخلاق ؛
برغم غضب الجمهور الذي يربيه أحياناً أن يتعرف على الصور الطبيعية .
وقد اعترت الإنسانية بإنتاج بلزك الذي تجاوز التاريخ لعصره ،
وقدم شخصيات أقرب إلى جوهر الإنسان في شتى أوضاعه وظروفه .
ولعل هذا سر قول الفيلسوف الفرنسي المعروف « آلان » : « لقد تعلمت
من مؤلفات بلزك أكثر مما تعلمت لدى الفلاسفة والسياسيين » .

الأخطاء الأولى

في صباح يوم من أيام الأحد، في أوائل شهر أبريل سنة ١٨١٣، وكان الجو يبشر بيوم جميل من الأيام التي يرى الباريسيون فيها أرض شوارعهم خالية من الطين، وساءهم خالية من السحب لأول مرة في السنة... اختبعت عربية ركوب بادية الفحمية، يحرها جوادان شيطان شارع « ريفول » من ناحية شارع « كاستيلون » قرب الظهيرية. وتوقفت العربية وراء خيول عربات عديدة مرابطة أمام الأسوار المقامة حديثاً وسط قناء دير « فييان ». وكان يقود هذه العربية بسرعة رجل يلبس مظهره على المرض والقلق، ويقطع شعره الأبيض جميعته المصفرة، مما كان يضفي عليه مظهر الشيخوخة قبل الأوان. وقذف الرجل بالعنان إلى التابع الذي كان يقود حصانه مقتفياً أثر العربية. ثم نزل من العربية ليتلقى بين ذراعيه فتاة شابة استرعى حسناتها اللطيف انتباه المتسكعين من المتنزهين في القناء.

وتركت الفتاة الصغيرة نفسها لرفيقها عن طيب خاطر ليحملها من خصرها عندما أشرفت على حافة العربية، ووضعت ذراعيها حول عنقه،

الإهداء

مهداة إلى المصور
« لوى بولانجيه »

حتى أنزلها على أرض الطَّوَار ، دون أن يؤثر في نصارة الزينة التي غطت فستانها المصنوع من القماش « النافاه » الصقيل الأخضر ، ولو كان محبباً لما بلغ به الاهتمام ذلك المبلغ . ولا بد أن يكون ذلك الرقيق المجهول والد هذه الابنة التي أمسكت بشراعه دون أن تشكره ، وبغير كلفة ، ثم سحبه فجأة إلى داخل الحديقة .

ولاحظ الأب المسن نظرات بعض الشباب المأخوذة ، فزال من وجهه طابع الشقاء برهة محدودة . وعلى الرغم من أنه كان منذ وقت طويل قد بلغ السن التي يرضى فيها الرجال بالمنع الحادعة من براء الغرور ، أخذ يشتم . وقال : « لقد اعتقدوا أنك زوجتي » . قال هذا في أذن الشابة وهو يقوم مظهره ويغضى في بطة يبعثها على اليأس .

وكان الرجل يبدو مدلاً بابتسامة ، وأكثر استمتاعاً منها ، بالنظرات التي كان الفضوليون يصوبونها نحو قدميها الصغيرتين المنتعلتين حذاء ذا أربطة وذا فص كالبرغوث ، ونحو قامة ممتعة مرسومة داخل ثوب يوشاح صدرى ، ونحو الرقبة الناصرة التي لا تخفيها « الياقة » المطرزة إخفاء كاملاً .

وكانت حركات المشى ترفع ثوب الفتاة لحظات خاطفة ، فتسمح برؤية استدارة ساق مصبوبة حسناً دقيقاً في جورب من الحرير المطرز بالقويب فيما فوق الخف . كذلك تعصده أكثر من مرارٍ سبقهما كما يبدو إعجاباً ، أو لكي يرى وجهها الشاب الذي كانت تتأرجح

عليه بعض خلقات شعرها الغامق اللون الذي كان يياضه وجدرته الوردية على درجة قوية ، سواء بسواء العكاسات قماش الأطلس الوردى الذي صنعت منه بطاقة معطفها الأثيق أو بسبب الرغبة وعدم الصبر اللذين كانا يكسوان كل ملامح تلك الإنسانية الجميلة . أما عيناها السوداوان الجميلتان فكان المكر الرقيق يبعث الحياة فيهما . وكانت مثقوبتين كاللوزة ، ورموشهما مقوسة بتقويساً حسناً ، ويعملهما حاجبان طويلان ، وكأنيهما كانتا تسبحان في سائل نقي خالص .

وسخت الحياة والشباب فيما منحت هذا الوجه المتمرد ، وفيما أقاضت به على نصف الفتاة الأعلى الذي ظل رقيقاً لطيفاً برغم الحزام المعقود تحت صدرها حينذاك .

ألفت الفتاة نظرة محملة بنوع من الفلق نحو قصر « الثويليرى » الذي كان هدف نزحتها الطائشة بلا شك ، غير عابئة بكل تحايا الاحترامات التي تعرضت لها . وكانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة . وبرغم أن الوقت كان مبكراً ، كانت بعض السيدات عائدات من القصر . وكن جميعاً في كامل زينتهن ، ولم تكف واحدة منهن عن الالتفات نحو الفتاة بوجهها العابس ، كأنهن ناديات على المحصور متأخرات . وعلى فوات فرصة الاستمتاع برؤية مشهد محبب . وأفلتت من شفاء أولئك العائرات اللاتي خاب ظنهن بعد أن أخذن بعمال الفتاة الجميلة المجهولة بضعة ألفاظ دلت على تبرهن . فأدت هذه الألفاظ

إلى إثارة قلقها بوجه خاص . وراقب الكهل بعين الفضول علامات عدم الصبر والإشفاق التي كانت تتلاعب فوق وجهه رقيقته الجذاب ، أكثر مما راقبها بعين السخرية . وكان يلاحظها بكثير من العناية حتى لا يكون حكمه عليها متأثراً بفكرة أبوية سابقة .

كان ذلك اليوم هو الأحد الثالث عشر في سنة ١٨١٣ . وبعد يومين من ذلك التاريخ كان « فابليون » في طريقه إلى حملته التي كان مقدرًا له فيها أن يفقد « بيسير » و « ديروك » على التوالي ، وأن يكسب المعارك التاريخية في « لوتسين » و « باوتسين » ، ثم تحوَّله « الفسا » و « الساكس » و « بافاريا » و « بوجونه المارشال » و « برنادوت » وينازع على كسب المعركة الحثيفة في « ليبزج » . وكان الموكب الرائع الذي سار بناءً على أمر الإمبراطور آخر الموكب التي اعتادت أن تثير إعجاب الباريسيين والأجانب مدة طويلة جداً .

وأوشك الحرس القديم أن يقوم بتنفيذ أخير للمناورات البارعة التي كانت ذات « ضبط وربط » وفخخة تبعث على الدهشة أحياناً بما في ذلك الرجل العملاق الذي كان يستعد حينذاك لمبارزة أوربا بأسرها .

وأدت عاطفة حزينة بمجهور متألق فضولى ، إلى الاتجاه نحو حدائق « التويليري » . وكان الجميع يبدون وكأنهم يعرفون المستقبل ، وكادوا يحسبون بأن التحاليل يمكنه أكثر من مرة أن يتتبع لوحة ذلك المنظر ، عندما كان من واجب تلك الأرملة البطولية في فرنسا - كما هو الحال الآن -

أن تتعهد بالأصباغ البالغة حد الأسطورة تقريباً .

قالت الفتاة في مداعبة مازكرة وهي تسحب الرجل العجوز : لنسرع أكثر من هذا يا أبتى ، إننى أسمع دق الطبول .

قال الولد : إنها الفرق التي تدخل حدائق « التويليري » .

أجابت الفتاة بمرارة طفولية بعثت الرجل العجوز على الابتسام : أوالتي تتابع في العرض العسكرى . إذ يعود الناس كلهم من جديد .

قال الأب وهو يمشى في أثر ابنته المتدفعه : لا يبدأ العرض إلا في الساعة الثانية عشرة والنصف .

ولو أنك شهدت الحركة التي كانت تضغط بها على ذراعها الخشبي لقلت إنها كانت تستعين به على الركض . وكانت يدها الصغيرة داخل القفاز تدعك مندبلاً بفروغ الصبر ، وتشبه في ذلك مجذاف قارب يشق الأمواج . وكان العجوز يتشم بين وقت وآخر ، وكانت تعلو وجهه الجاهد من وقت إلى آخر أيضاً تعبيرات قلقه تجعله يبدو حزناً حزناً عابراً ، ذلك لأن حبه هذه المخلوقة الجميلة كان يدفعه إلى الإعجاب بالحاضر بقدر ما كان يدفعه إلى الخوف من المستقبل . وكان يبدو كما لو كان يقول لنفسه : « إنها اليوم سعيدة » ، فهل تكون كذلك يوماً ؟ » ذلك أن الشيوخ المسنين يميلون إلى أن يسبقوا أحزانهم على مستقبل الشباب .

وعندما بلغ الأب وابنته المشى الداخلي تحت أعلى صوان ، حيث

كانت الراية الثلاثية الألوان ترفرف ، وحيث كان المتزهون يريون
ويغدون من « التويليرى » إلى ميدان قوس نصر « الكاروسيل » نادى
الملاحظون بصوت أجش : « لم يعد مسموحاً بالمرور ! »

ووقفت الفتاة على أطراف أصابع قدميها ، فاستطاعت أن ترى
جمعاً من النساء الآخذات بأطراف الزينة ، وهن يشغلن جانبي
« البواكى » الرخامية العتقة التى كان مقدراً أن يخرج منها الإمبراطور
وقالت :

— ها أنت ذا ترى يا أبى أننا نخرجنا من البيت متأخرين .

وكشفت تقطبية وجهها الحزينة عن الأهمية التى علقها على حضورها
إلى هذا العرض .

— على أى حال هيا بنا ننصرف يا « جولى » أنت لا تحبين أن
يزاحملك أحد .

— بل فليبق يا أبى . لعل أستطيع من هنا أن ألمح للإمبراطور .
فلو مات أثناء الحملة لما رأته على الإطلاق .

وارتعد الأب عند سماعه هذه الأقوال الأنانية ، ونشفت العبرات
صوت ابنته . ونظر إليها فاعتقد أنه لاحظ تحت أجفانها المسبلة بعض
الدموع التى لم تنجم عن الغيظ ، ولكن عن أحد هذه الأحزان الأولى
التي يسيل على أب عجوز أن يخمن مرها وفيجأة احمر وجه
« جولى » وبدر منها هتاف دال على التعجب لم يفهم معناه الحراس

أو الرجل العجوز . وعندما بدر منها الهتاف كان أحد الضباط يثب
من ناحية القناء نحو السلم ، فالتفت بقوة ، وتقدم إلى أن بلغ « البواكى »
الحديقة ، وتعرف على الفتاة الشابة فى حمة وراء قلائس جنود المقتدرات
ذات الزغب . وكسر من أجلها ، ومن أجل والدها ، التعليقات التى
كان هو نفسه قد أعطاها من قبل . ثم جذب نحوه برقة تلك الابنة
المبهجة دون أن يعبا بهمسات الحشد المتألق الذى كان مربطاً تحت
« البواكى » .

قال الوالد العجوز للضابط بلهجة جادة وساعرة معاً : لم يعد
يدهشى غضبها أو استعجابها طالما كنت أنت فى الخدمة .

— إذا شئت يا سيدى أن نقف فى المكان الأفضل فلا تجعل
تسليتنا الكلام . إذ لا يحب الإمبراطور الانتظار ، وقد كلفنى المارشال
بأن أذهب إليه لإخطاره .

وكان يتكلم وهو يأخذ بذراع « جولى » فى نوع من الألفة المعتادة ،
وسحبها بسرعة نحو قوس نصر « الكاروسيل » ، وعندما تحت « جولى »
فى دهشة حشداً هائلاً يسرع الخطو فى المساحة الضيقة القائمة بين جدران
القصر الرمادية والعلامات المترابطة فيما بينها بالسلاسل التى تحدد معالم
المربعات الشاسعة المغطاة بالرمل وسط فناء « التويليرى » ووجد الحراس -
المشتبهون فى صورة جدائل لتحنف طريق عبور الإمبراطور وأركان
حربه - صعوبة كبيرة فى الاحتفاظ بمواقعها يرغم الجموع المزدحمة المتسعة

التي تطن كخلية النحل .

سألت « جولى » وهي تبتسم : سيكون المشهد رائعاً بالطبع ؟

— انتهى إذن . قال الضابط هذا وهو يمسك « جولى » من وسطها ليرفعها بغير قليل من القوة والسرعة معاً كي يحملها إلى أقرب الأعمدة .
ولم يحملها بسرعة خاطفة لكأنه قريبته الفضولية قد رخصها مؤخر الفرس الأبيض المطهمن يسرج من القطيفة الخضراء المذهبة الذي كان يفوده من لجامه مملوك « نابليون » تحت « البواكى » تقريباً ، على بعد عشر خطوات خلف كل الجيول التي كانت تنتظر الضباط المعظام من رفقاء الإمبراطور .

وجعل الشاب مكاناً الأب والابنة قرب أول علامة إلى اليمين أمام الحشود ، وأوصى بهذا بإشارة من رأسه جنديين عجوزين من جنود القلائف جاء مكانهما بيتهما .

وعندما عاد الشاب إلى القصر كانت السعادة والفرح قد حلتا في تعبير وجهه محل الوجع المفاجئ . الذي كان تراجع الفرس قد طبعه عليه . كانت « جولى » قد ضغطت على يده خفية وهي تصافحه ، سواء لكى تشكروه على خدمته الصغيرة التي قدمها لها أم لتقول له : سوف أراك إذن ؟ وحت رأسها برفق رداً على تحية الاحترام التي أداها الضابط لها ولوالدها قبل أن يخفى في حركة بارعة . وبقي العجوز في موقف رزين خلف ابنته يتألم بماولا إظهار أنه قد تعمد ترك الفتاة والفن معاً .

غير أنه زاقها من طرف خفى ، وحاول أن يوصي إليها بأمان كاذب حين بدا في شغل شاغل عنها بتأمل المشهد الرائع المتمثل في قوس نصر « الكاروسيل » . وعندما أعادت « جولى » نحو أبيها نظرة التلميذ المتعوق من معلمه ، أجبها العجوز بإبتسامة الفرح العطوف : غير أن عينه النفاذة تابعت الضابط حتى بلغ « البواكى » دون أن يفوته أى حدث في ذلك المنظر السريع .

قالت « جولى » بصوت منخفض وهي تضغط يد والدها : أى مشهد رائع !

وكان هذا الخفاف البال على الانفعال قد صدر عن آلاف المشاهدين الذين ظهرت وجوههم جميعاً فاغرة الأفواه من التعجب أمام المرئى الفشان العظيم الذى كان يمثله في تلك اللحظة قوس نصر « الكاروسيل » ، وكان صف آخر من الزحام المتعجل ، مثل الصف الذى كان العجوز وابنته متمسكين به يشغل المكان الضيق المرصوف على طول حاجز قوس نصر « الكاروسيل » في خط مواز للقصر . وأتم ذلك الجمع المزدحم إعداد رسم تلك الخديعة الطويلة التي هيأت شكلها أبنية « التوليدى » وذلك الحاجز المقام حديثاً رسماً قوياً بواسطة الزينة المتنوعة التي اتخذتها النساء . وملأت سرايا الحرس القديم التي كانت مستعدة للمرور في العرض تلك الأرض الواسعة ، حيث ظهرت قبالة القصر في خطوط زرقاء حاشدة ذات عشرة صفوف طويلة . وتخرج هذه الدائرة . وفي فناء « الكاروسيل »

كانت صفوف أخرى متوازية وعديدة من سرايا المشاة والفرسان المستعدة للقيام بالعرض تحت قوس النصر الذي يزين وسط الحاجز ، والذي كانت ترى في أعلى قمته في تلك الفترة خيول « فينيسيا » الرائعة . واحتلت فرقة موسيقى السرايا مكاتب أسفل أروقة « اللوفر » وكانت متحركة في صورة فرسان خيالة بولنديين في أثناء الخدمة . وبقي جزء كبير من الحديقة المنطى بالرمال فارغاً كأرض الملاعب المعدة لحركات هذه الفيلق الصائمة ، التي كانت مجموعات مرتبة في تناسب في حربي . تمكس أشعة الشمس في طب مثل الشكل فوق عشرة آلاف من الخراب . وكان الهواء يحرك ريش القلائد فوق رؤوس الجنود فيدفعها إلى الحركة كالأمواج ، على نحو ما تنحني الأشجار في العابة أمام الرياح العاصفة . وكانت هذه الأسراب العتيقة الخرساء الالامعة ، تعرض ألف اختلاف لوني نتيجة للتنوع في الزى وحوالي أكمام الملابس والأسلحة وبدائل الحبال فوق الأكشاف والصلور .

كانت هذه الالامعة الضخمة أشبه ما تكون بصورة حجرية لميدان قتال قبل المتركة بكل توابعه وأحداثه الغربية وكأنها أصبحت شعرياً بإطار من الأبنية الفخمة العالية التي كان الجنود والرؤساء يحاكون حيويتها حينذاك . فقد كان المشاهد يوازن لا إرادياً بين هذه الجنود البشرية وتلك الجنود الحجرية . وألقت الشمس الربيع ضوءها يستضاء فوق

الحواشي البيضاء التي أقيمت في اليوم الأسبق . وفوق الجنود القديمة العهد ، فأثارت بشكل تام — تلك الوجوه العديدة المسمرة التي كانت تبوح بأخطارها السابقة ، وتوقع في نهج أخطاراً مستقبلية . وكان مقدمو كل سرية يروحون ويغدون منفردين أمام الجبهات التي أنشأها أولئك الأبطال . واستطاع المتطلعون أن يلمحوا وراء أسلحة هذه المجموعات القديمة المنقوشة بالألوان القضيصة الزرقاء والأرجوانية والذهبية الزايات الطويلة الثلاثية الألوان المربوطة في أعلى حراب مئة من الفرسان « البيولونيين » الذين لا يكلون ، والذين يشبهون الكلاب التي تسوق القطيع على طول الحقل ، وهم يحولون بلا توقف بين الفرق والمنظمين ، كمن يحولون دون أن يتخطى هؤلاء المتطلعون المكان الصغير من الأرض المسوح لهم يد داخل الحاجز الإمبراطوري . وكانت رؤية هذه الحركات المتكررة في غير تباعد توحى بأننا في قصر « الجميلة بالغابة الراكدة » كما صورته بحكاية « بيرو » الجرافية . وأكد نسيم الربيع العابر فوق قلنسوات وجبال المدفعية ذات الزغب سكرن الجنود ، ولكنه كشف ضجيج الزحام الأصم عن صمتهم . وكان يكمن رنين قبعة صتيبة فقط ، أو ضربة خفيفة على صندوق كبير سهواً كمن يتردد صداماً في جوانب القصر الإمبراطوري فيما يشبه نصف الرعد البعيد الذي يشتر بالعاصفة . وسطع حماس لا يوصف في انتظار الجموع الغفيرة ، إذ خرجت فرنسا لتودع « نابليون » عشية حملته التي

كانت أخطارها متوقعة لدى أبسط المواطنين . كانت المسألة في هذه المرة مسألة « وجود أو لا وجود » بالنسبة إلى الإمبراطورية الفرنسية . وكأنما شجعت هذه الفكرة أهل البلد من المدنيين والعسكريين الذين لزمو الصمت . وهم يتراحمون في الفناء الذي حام فيه نسر « نابليون » وعقيرته .

وكان هؤلاء الجنود أمل فرنسا ، وآخر نقاط دعائها ، كما كانوا يشغلون جزءاً غير قليل أيضاً من فضول المشاهدين الملىء بالقلق في اختيار الكثيرين . وكان أغلب المعاونين والعسكريين يودع بعضهم بعضاً وداعاً يكاد يكون إلى الأبد . ولكن توجهت القلوب جميعاً ، حتى أشدها عداوة للإمبراطور إلى الله ، بدعائها الحار من أجل مجد الوطن . بل لقد تحلى الرجال المتعبون من الصراع بين أوروبا وفرنسا كلهم عن أحقادهم ، عند عبورهم تحت قوس النصر ، مدركين أن « نابليون » في يوم الخطر هو فرنسا بأكملها . ودقت ساعة النصر دالة على النصف بعد الثانية عشرة . وفي تلك اللحظة توقف طين الزحام وضار الصمت عميقاً بحيث كان يمكن سماع كلمات طفل صغير . واستطاع العجوز وابنته ، اللذان كانا يعيشان بعيداً عنهما فقط ، أن يثبتا صوت المهاميز وقطعة السيوف التي دوت تحت دهاليز القصر ذات الرنين .

وظهر فجأة رجل قصير ، متوسط السن ، يابس زيباً أخضر اللون وسرولاً أبيض ، ويتجمل أحذية الفرسان ، واضعاً فوق رأسه قبعة ذات

ثلاثة أرباق ضخمة ، يبلغ حجم الرجل نفسه . وكان الشريط العريض الأحمر الخاص بنوط الشرف يتدلى على صدره ، كما كان يتدلى إلى جانبه سيف صغير . وكانت جميع العيون تولى الرجل في وقت واحد من كل جوانب المكان . وفي الثور قرعت الطبول في الساحة ، وشرعت الفرقتان الموسيقيتان تعزفان صيغة موسيقية تكرر تعبيرها الحربي على كل الآلات ابتداء من أرق زמارة إلى أكبر الطبول . وارتعدت الأرواح أمام هذه الدعوة إلى القتال ، كما أدت الأعلام النحيفة ، ودفع الجنود الأسلحة في حركة موحدة ومنظمة أثارت حركة البنادق لدى أصغر الرتيب وأكبرها على أرض « الكارميل » .

وتنقلت صيغ الأوامر من رتبة إلى رتبة على نحو ما تتناقل الأصدا ثم تنافست صيحات : « عاش الإمبراطور » على ألسان الجمهور المتحمس . ثم أصابت الرعدة الجميع ، فصاروا يتوجسون ويتحركون . وظهر « نابليون » راكباً القرس . وكأنما طبعته هذه الحركة الحية على هذه الجموع الصامتة ، وهبت الأدوات الموسيقية الصوت ، وبعثت الدفع في النشور والرايات والاتفعال في كل الوجوه . وبدت جذرات الدهائز المرتفعة في هذا القصر العتيق كما لو كانت تصرخ هي الأخرى : « عاش الإمبراطور » . ولم يكن ذلك كله يشبه شيئاً إنسانياً ، وإنما كان يشبه سحراً أو طيفاً من القدرة القدسية ، أو أكثر من هذا بصورة ذهنية شاردة لهذه المملكة الموقنة .

ظل الرجل على فرسه محاطاً بكل هذا القدر من الحب والحماس والإخلاص والدعاء ، بعد أن قشعت الشمس صاحب السناء من أجلاء ، وبقى على بعد ثلاث خطوات إلى الأمام من الكتية الذهبية التي كانت تمضي في أثره ، فإن شأله المثير الأول ، وإلى يمينه مشير الخدمات . ووسط كل مظاهر الانفعال التي أثارها رؤيته لم يبد على ملامح وجهه أى انفعال .

— أوه ... يا إلهي ... نعم ... من «اجرام» وسط النيران ، إلى «موسكو» بين الأموات ، وهو دائماً هادئ كالعمدان .. هو .

كانت تلك إجابة أحد رجال المدفعية على الأسئلة العديدة التي وجهت إليه في أثناء وجوده قريباً من الفتاة الشابة . وظلت «جولي» مأخوذة مدة معينة بتأمل ذلك الوجه الذي كان هدوؤه يبعث عن ثقة كبيرة بقوته . فلجأ الإمبراطور الآتية «دي شاتيويس» ومال نحو «ديروك» ليقول له عبارة أضحكت المشير الأول . ثم بدأت المناورات .

ومع أن الشابة كانت قسمت انتباهها حتى ذلك الحين بين وجه «نابليون» الخالي من أى تأثر ، وبين صفوف الفرق الزرقاء والخضراء والحمراء ، خصصت في تلك اللحظة اهتمامها تقريباً وسط الحركات السريعة المنتظمة التي قام بها الجنود الأقنعة — بضابط شاب كان يعدو فوق فرسه بين الصفوف المتحركة ، ثم يرجع في نشاط لا يكل نحو المجموعة التي كان يتألاً على رأسها فرد بسيط هو «نابليون» .

وكان فرس ذلك الضابط فاحراً أسود اللون ، كما كان هو نفسه يتميز بوسط هذه الجسوع ، الزينة بشقي الأوسمة ، بهذا الزى الجميل الأزرق السماوي الخاص بضابط ياوزان الإمبراطور . ولعل تلك التطاويز على نحو يراق في شعاع الشمس ، فاستمدت منه عفرة قلنسوته الضيقة العالية وبعثاً قوياً دفع المشاهدين إلى مقارنته بأحد الشهب ، وبالروح الخفية الموكلة من قبيل الإمبراطور بانتعاش وبقيادة مدفعية المشاة ، التي كانت أسلحتها المانجة تلقى بالحنم عندما تنفجر وتسكن ، وتجول بإشارة من عينيه في موجات كموجات درجات الحجم ، أو تخفى أمامه كالانكسار الطويلة المستقيمة المرتفعة التي يصوبها الضابط المانع نحو شواطئه .

وعندما انتهت المناورات ركض الضابط الأبور بغاية السرعة ، ثم توقف أمام الإمبراطور يستظر الأوامر . وفي تلك اللحظة كان على بعد عشرين خطوة من «جولي» وجهاً لوجه ، أمام المجموعة الإمبراطورية ، مشابهاً في ذلك الموقف موقف «جيرار» أمام الجنرال «زاب» في لوحة معركة (أوسترا ليتز) . وعندئذ أتت القرصة للفتاة الشابة كي تنملي بإعجاب حبيبها في أوج جلاله العسكري .

لقد كان المقدم «فيكتور ديجهلمون» في حوالي الثلاثين من عمره ، غارغ الطول ، ممشوق القوام ، حسن التكوين ، ولم تكن مقاييس بدنه المتوافقة تبين أكبر مما كانت تبين عندما يستخدم قوته في التحكم

في قومه الذي بدا ظهوره الأتيق اللين كما لو كان قد انثنى تحت . وكان وجهه حازماً . أحمر اللون ، ذا جاذبية غامضة يسبقها التساقط الكامل في الملامح عادة على وجوه الشباب ، كما كانت جنبه عريضة مرتفعة ، وارتسمت عيناه الحادتان المظلتان بمواجب كثيفة ، واخضوفان برموش طويلة كأنهما إهليلجان أبيضان بين خطين أسودين ، وكان أنفه ذا استدارة رقيقة كتفقار النسر ، وكانت أرجوانية شفتيه قوية بتأثير تعرجات الشارب الأسود التي كانت مفروضة قرضاً ، وكان عذابه العريضان بلونهما الظاهر يمثلان درجات من السمرة والصفرة ثم عن صرامة غير عادية ، وعلا وجهه دافع الشجاعة بحيث صار يمثل النموذج الذي يبحث عنه الفنان في أيامنا هذه لكي يجد فيه نمط أبطال فرنسا في عهدها الإمبراطوري أما قوسه فكان مبللاً بالعرق ، وكان رأسه دائم الحركة تعبيراً عن تعجبه البالغ ، كما كانت قدماه الأماميتين متباعدتين ثابتتين على خط واحد ، فلا تتقدم إحداهما على الأخرى . وكان القوس يبرز خصائص ذيله الكثيف الطويلة ، وكشف استسلامه في صورة محسوسة عما كان سيده يكتنه للإمبراطور .

رأت « جولي » حبيبها مشغولاً بالاستثمار بنظرات « نابليون » فأحست بالحظة من لحظات الغيرة عندما قدرت أنه لم يلحظها بعد . وضجأة نطق الإمبراطور بكلمة ، فإذا « فيكتور » يضبط ضلوع قوسه ويسرع في العدو . غير أن ظل أحد الأنصاب الجانبية الساقط على الرمل أفرغ

الفرس ، فجعله ينفر ويتراجع ، ثم يعتدل . وتم ذلك كله فجأة بحيث بدا الفارس في خطر ، وبدت صرخة من فم « جولي » وامتنع لونها ، وانظر إليها الكلب في استغراب ، ولكنها لم تعد ترى أحداً ، وبقيت عيناه مغلقتين بهذا القوس الوثابت الذي عمد الضابط إلى عقابه وهو يقوم بالعدو ، لإملاء أوامر « نابليون » . وتملك كل هذه التوجعات المذهلة « جولي » تملكاً كاملاً حتى إنها نشبت دون وعي منها بذراع أيها الذي كشفت له عن أفكارها بغير قصد منها بواسطة ضغط أصابعها القوية إلى حد ما . وعندما أوشك فيكتور أن يتقلب من فوق الحصان التفتت بأبيها في عنف أشد ، كما لو كانت هي نفسها تحشى النقوط .

وتأمل العجوز وجه ابنته المتهايل يلقى معظم متالم ، بل تسربت إلى كل تعبيراته المقطبة مشاعر شفقة وغيرة وأمس . ولكن بمجرد انتهاء يريق عيني « جولي » غير المألوف ، وصحبها التي صدرت عنها ، وحركة أصابعها المصحورة بالتشنج من الإفصاح عن حبها الخفي ، أحس بلا شك بإحباطات حزينة عن المستقبل ظهرت دلالاتها على تعبير وجهه المنكوب .

في تلك اللحظة عينا بدت روح « جولي » كأنها قد انتقلت إلى روح الضابط نفسه ، فحسبت فكرة أشد قسوة من تلك التي أفرغت العجوز من قبل في انقباض ملامح وجهه المتالم عندما لمح « ديجلبون » يتبادل نظرة تفاهم مع « جولي » التي بللت عينيها الدموع ، وأصيب لونها بحموية خارقة عندما عبر أمامهما . وفجأة سحب ابنته إلى

حدثني «التوبلىرى» .

قالت : « لا .. لا يا أبى ... لا يزال فى ساحة » الكاروسيل « من السرايا ما يقوم بالمناورات » .

— لا يا أبى ... كل الفرق تشترك فى العرض .

— اعتقد أنك غشيت يا أبى ، إذ لابد أن يكون السيد « ديجليمون » قد أمرها بالتحكم .

— ولكننى أشعر بوعكة يا بنى ، ولا أحب البقاء .

ولم يكن يصعب على « جولى » أن تصدق أياها عندما ألقت نظراتها على وجهه الذى زودته المخاوف الأبوية بطابع الرجل الخائر المسنن .

سأله بغير مهالة كما لو كانت مشغولة : « هل تعذب كثيراً ؟ »

— أليس كل يوم من أيام حياتي يوم نعمة بالنسبة إلى أويوم هبة ؟

— لسوف تزيد من حزني إذا تكلمت عن موتك .. لقد كنت

شديدة المرح ، هل لك في أن تطرد أفكارك السوداء الخبيثة ؟

صاح الأب وهو يتنهد : آه ! .. بألك من طفلة مدللة ! إن

القلوب الطيبة تكون مؤكدة القسوة فى بغض الأحيان . فإذا خصصناك

بحياتنا ، وإذا لم نفكر إلا فيك ، وأعددنا لك رفاهيتك ، وضحيتنا

بأفواقنا من أجل أوهامك ، ومن أجل تقديرك وإعطائك دمننا ...

أفليس لذلك كله معنى إذن ؟ يا أسفاه ! لا أشك أنك لتقبلين ذلك كله

بلا أدنى مهالة . وكان ينبغي أن تكون لما قدرات الآفة ، كى تحصل منك على اهتمامك ، وعلى حيك المعبر عن الازدراء . ثم فى النهاية يأتى آخر .. عاشق .. زوج يسحر قلوبنا .

نظرت « جولى » إلى والدها مندهشة ، وهو يخط ببطء ، وبقى إليها ينظراته القاتمة ، فعاد يقول :

إنك تتخفين علينا ولعلك تتخفين أيضاً على نفسك !

ماذا تقول يا أبى ؟

— اعتقد أنك تخفين عني اسراراً يا « جولى » . إنك تخمين ..

وقال العجوز مرة أخرى عندما لاحظ أن ابنته قد احمر وجهها :

آه .. لقد كنت أنتشم أن تظلي مخلصه لأبيك العجوز حتى وفاته .

كنت آمل الاحتفاظ بك قريبة مني ، وسعيدة متألقة ، فأعجب بك

كما كنت منذ قليل . وما كنت أجهل مصيرك فقد حسبت أن سيكون

لك مستقبل هادئ . غير أنه من المستحيل الآن أن أحفظ بأمل في

معادة حياتك ، لأنك تخمين المقدم أكثر مما تخمين من هو (قريبك) .

لا أشك في ذلك .

صاحت الفتاة في تعبير قوى يتم عن الاستغراب : « ولماذا يكون

حيه محروماً على ؟ »

أجاب الأب مبتدئاً : آه ... يا « جولى » لن تستطيعي أن تفهمي ما أعنيه .

قالت مفصحة عن حركة عضبان : قل إذن ..

اسمعى اذن يا بنتى جيداً . تقوم الفتيات بإبداع صور باهرة
ثييلة ، وتماذج مثالية ، وباختلاق أفكار وهمة عن الرجال ، وعن العواطف ،
وعن العالم ، ثم يقمن فى برادة جرد الكمالات التى حلطن بها
إلى طبيعة ما من الطابع ثم يشعلن بعد ذلك فى الاطستان إليها .
وهن يحبين فى الرجل الذى يخترنه ذلك الخلق الخيالى . ولكن فى النهاية
عندما لا يكون ثمة وقت للخلاص من المصيبة ، ومن المظهر الخداع
الذى أضفوا عليه الحسن ، يستحيل معبودهم الأول فى النهاية إلى هيكل
عظمى كريمة . « جولى » إننى أفضل أن أراك تحبين رجلاً عجوزاً
على أن أراك تعشقين المقدم .. آه .. لو أنك استطعت أن تضعى نفسك
بعد عشر سنوات من الآن فى الحياة لكنت عادلة بالنسبة إلى تجربتى .
إننى أعرف « فيكتور » وأعرف أن بشاشته بشاشة خالية من الروح ...
لأنها بشاشة الثكنات . وهو فضلاً عن ذلك خال من أى موهبة . ومن
أى ميل إلى الإنفاق . إنه واحد من أولئك الرجال الذين خلقهم الله
ليأكلوا ويحسوا أربع وجبات فى النهار ، ثم ليناموا أو يحتفوا بأول
قادمة ، ويحاربوا ، إنه لا يفهم الحياة . وهو ذو قلب طيب ، وقد يقناده
قلبه إلى إعطاء أحد البائسين أو أحد رفاقه محفظة نقوده . ولكنه غافل
ولم يوهب رقة القلب التى تجعلنا أحياناً عبيداً لسعادة امرأة . ثم إنه جاهل
أتانى ... هناك كثير من الصفات السلبية .

وبرغم ذلك « يا أبى » لا بد أن يكون له من الروح والوسائل

ما دفعه ليكون مقدماً . قال الأب فى نوع من الحماسة : يا عزيزى ،
إن « فيكتور » سيظل مقدماً أيد الحياة . إننى لم أربع الشخص الذى يلبق
بك فى عيى . ثم توقف لحظة وتأمل ابنته . وأضاف : ولكنك لا تزالين
أصغر . وأضعف . وأرق . من أن تتحمل أشجان الزواج ومتاعبه ،
يا صغيرى « جوليا » المسكينة . ثم إن « ديجامبون » قد دله والدادهما دلت أملك
وذلك : فكيف نعشم أن نشأ تفاهم بينكما بإرادات مختلفة مطبوعة
بطابع التحكم . بحيث لا يمكن التوفيق بينهما . ولا بد أن تكونى أحد
اثنين : ضحية أو طاغية . وكلا البديلين « جوليان » مبلغاً متعادلاً من
الشقاء فى حياة المرأة ، غير أنك رقيقة ومتواضعة . وستنتين قبله
وعندك لطف عاطفى لن يعرف قدره .. وعندك .

قال هذه العبارة بصوت مضطرب . ثم لم يكتمها ، إذ خنقته
الغبرات . ثم عاد يقول بعد صمت وجيز : سوف يخرج « فيكتور »
صفات البراءة التى تتميز بها روحك الشابة . فأنا أعرف الرجال العسكريين
يا صغيرتى « جولى » وعشت فى الجيوش . ومن النادر أن يتصر قلب
هؤلاء الناس على العادات الناجمة عن الشقاء الذى يعيشون فيه ،
أو عن مصادمات حياتهم المغامرة .

— أجابت « جولى » فى نعمة وسط بين الجدل والمزاح : « إنك تريد
يا أبى - اذن - أن تغلب عواطفى ، بأن تدفعنى إلى الزواج من أجلك
أنت لا من من أجل أنا » .

صاح الأب في نوع من الاندهاش : أدفعلك إلى الزواج من
أجلى ... من أجلى أنا يا بنتي .. أنا .. الذي لن تسمعي صوتي قريباً
بهذه النعمة الودية من التأليب ! لقد لاحظت أن الأبناء يعززون دائماً
تضحيات الوالدين نحوهم إلى عاطفة شخصية . تزوجي ، فيكتور
يا صغيرتي « جولي » وسوف ترتين يوماً عمارة لعلم صلاحيته وفساده ،
وأنايته ، وفظاعته ، وبلاطته في الحب . وآلاف الكروب الأخرى
التي ستزول بك منه . فاذكري إذن أن صوت الوحي الذي نطق به أبوك —
تحت هذه الأشجار — قد دوى عبتاً في أذنيك .

وسكت العجوز ، وفاجأ ابنته بتفطرته ، وهي تهز رأسها في عصيان .
ثم قام كل منهما يضع خطوات نحو الحائز ، حيث كانت عربتهما
واقفة . وفي أثناء هذا المشي الصامت فحست الفتاة خفية وجه أبيها ،
وتنقلت درجة درجة بين أجزاء سحنته المقطبة . إذ ترك فيها الألم
العيني الخفوف على جبهته المائلة نحو الأرض انطباعاً شديداً ، وقالت بصوت
رقيق مضطرب : أعدك يا أبي .. ألا أتكلم إليك عن « فيكتور » ما لم
تكن قد عدلت عن سوابق ظنك عنه .

ونظر العجوز إلى ابنته في استغراب ، وانحدرت على طول خديها
المتجعدتين دمعان كأنهما تدوران في عينيه . ولم يستطع أن يقبل « جولي »
على مشهد من الناس الذين كانوا يحيطين بهما ، واكتفى بأن ضغط على
يدها في رقة . وعندما صعد إلى العربة كانت جميع أفكار الأمي التي

لمسحت فوق جبهة قد اختفت تماماً ، وأقفقه وضع ابنته الحزين عندئذ
لأن « أهله المرح البريء الذي بدرسه من « جولي » أثناء العرض .

في الأيام الأولى من شهر مارس سنة ١٨٩٤ ، أي بعد أقل من سنة
على أن يوم ملك العرض الإمبراطوري . كانت مركبة بأربعة دوليب
للقطار تملأ من « أميواز » إلى « تور » وكانت المركبة تجرى بغاية
السرعة . وهي تغادر أشجار الجوز الضخمة الشبيهة بالقبة الخضراء .
والتي يمتلئ تحتها مركز « لافريليير » حتى جاءت اللحظة التي وصلت فيها
إلى حرمينى فوق نهر « الشير » من ناحية مصبه في نهر « اللوار » .
وقد كانت فجأة « وإذا أحد مجار العجلات يتكسر على إثر الحركة التي
لم يكن قادراً عليها ممكناً ، عندما تلقى سائق المركبة الشاب أمر ميده بذلك ،
والذي حاول أن يفرضها بدوره على أربعة حيول من أشد حيول المرباط
قوة .

وهبات الصدمة للشخصين اللذين في داخل المركبة الوقت الضروى —
عدا بظنهما . لتأمل موقع من أجمل المواقع التي يمكن أن تمثلها شواطئ
نهر « اللوار » الخلابة . فإلى العين كان يمكن أن يجمع المسافر في نظره
كل انحناءات نهر « القير » الذي يرحف مثل شعبان فضي وسط أعشاب
المرارح التي أسبغت عليها أولى دفعات الربيع ألوان الزمرد . وإلى اليسار
كان يبلو نهر « اللوار » في كل دوغته ، وكانت لفحة هواء الصباح

الباردة قليلاً تخلق صفحات عديدة من بغض لعلاتها المتواترة ،
فتعكس بذيذيات الشمس فوق مسطحات الماء الساكن الشامسة التي
يظهرها ذلك النهر المهبب . وكانت الجزر الغضيرة هنا وهناك تتوالى
في مساحة المياه كما تتوالى فصوص العقد . وفي الناحية الأخرى من
النهر كانت أجمل أرياف مقاطعة «التورين» تبسط كنوزها إلى
آخر امتداد البصر . وفي أقصى المشهد لا تقع العين على أى تخوم سوى
تلال «نهر» الشير» التي كانت قسمها ترسم في تلك اللحظة خطوطاً
مضيئة فوق زرقة السماء الصافية . وكانت مدينة «تور» تبدو خلال
أوراق الشجر الرقيقة في الجزر الظاهرة في أقصى المشهد أشبه ما تكون
بمدينة البندقية من حيث بروزها وسط المياه . وكانت أبراج أبراج
«كاتدرائيتها» العتيقة تعلو في الجو حتى صارت أشبه بالسحب البيضاء
حين تتحول إلى اختلافات وهمية .

وكان المسافر يلبح وراء الجسر الذى وقفت المركبة فوقه . وفي
الواجهة مباشرة نهر «الوار» على طول حوضه حتى مدينة «تور»
وسلسلة من الصخور التي شكلتها الطبيعة حتى بدت كأنها قد وضعت
لتصد أمواج النهر التي تنهش الحجر في دأب . وهو مشهد يذهل المسافر
دائماً وتبدو قرية «فوريه» كأنها قد عشت في مضايق تلال تلك
الصخور التي بدأت ترسم زاوية أمام جسر نهر «الشير» ومن «فوريه»
حتى مدينة «تور» . ويسكن المنطقات الخفية في ذلك التل قوم من

زراع الكروم . وفي أكثر من موضع توجد ثلاث طبقات من المنازل
المطوية في الصخر . تجمعها سلام خطرة منحوتة في الحجر .

وفي أعلى سقف أحد البيوت كانت فتاة ذات «جوزلة» حمراء
تجري نحو حديقتها . وقد تصاعد دخان إحدى المداخن بين فروع
الكروم وبين أغصانه المورقة . وكان بعض المزارعين يحرقون سخولاً
متعامدة وامرأة عجوز تدبر دولاب مغزلا تحت زهور شجرة اللوز .
وتأمل عبور المسافرين من تحتها ضاحكة من قزعهم . وهي جالسة
في هدوء فوق حفرة هوت من الجبل . ولم تكن تقلقها شقوق الأرض
ولا احتمال انهيار حائط قديم لم تعد تستند سوى لجذور متشابكة
لنبات اللبلاب الذي يغطيه . وكانت أوياء الكهوف المفتوحة ترد
صدى ضربات مطارق صانعي الدنانير والأرض بعد هذا كله مزروعة
في كل مكان . وخضبة في كل مكان . حينما رفضت الطبيعة أن
تتخلى عن الأرض للصناعة الإنسانية . ولا شيء يوازن في حوض نهر
«الوار» بالمنظر العام الغني الذي تمثله مقاطعة «التورين» في عيون
المسافر .

واللوحة الثلاثية — هذا المنظر — ذات الأوجه المبينة على وجه التقريب
ترود الروح بأحد هذه المشاهد التي تنفثها بالذاكرة إلى الأبد . وعندما
يستريح شاعر بهذا المنظر تأتى أحلامه غالباً لتبني فوقه أسطورياً
آثاره الرومانتيكية .

وفي اللحظة التي وصلت فيها المركبة فوق جسر نهر «الشير» كانت أشعة يضاء عديدة تسد ما بين جزر نهر «الوار» وتضيق السجماً جديداً على هذا الموقع المنحجم ، وأزجي أريج الصفصاف المتدل الأعصان على حافتي النهر عطوراً نفاذة إلى مذاق النسبة الرطبة ، وكانت العصافير تملأ الأسماك بمزوفاتها المنفضة وقد أضاف إليها غناء راعي الماعز الرئيب لوناً من الشجن ، في حين كانت صيحات الملاحين تبشر بهرج ومرج عن بعد وكانت الأبحر الكسول تتوقف من تلقاء نفسها حول الأشجار المناثرة في هذا المنظر الشاسع مضفية على تلك اللوحة آخر لمسة من اللطف ، وتلك هي مقاطعة «التورين» في أوج مجدها ، وذلك هو الربيع في غاية بهائه ، وذلك الجزء من فرنسا هو الوحيد الذي لم تستطع الجيوش الأجنبية أن تزعمه ، وكان أيضاً في ذلك الوقت الجزء الأوحش الهادي كأنه يتحدى الغزو .

وما إن توقفت المركبة حتى أطل منها رأس مغلى بقبحة رجل البوليس وسرعان ما فتح رجل من الجيش بابها ، وقفز إلى الطريق متعجلاً كأنه في طريقه إلى المشاجرة مع سائق المركبة . غير أن الدكاء الذي عانج به ذلك السائق من أبناء «التورين» عجز العجلة المكسور طمأن المقدم الكونت ، ديغليسون ، الذي غاد إلى الباب ماذا ذراعيه كأنه يحط عضلاته الخاملة ، وتغاب ، ثم نظر إلى المنظر ، ووضع يده على ذراع امرأة شابة لفّت نفسها بعناية برداء مبطن بالقرو

وقال لها في صوت مبسوح : هيا يا «جولي» استيقظي إذن كي نتأمل الإقليم ، إنه رائع .

ودفعت «جولي» رأسها خارج المركبة ، وكانت تغطي رأسها بقبحة من جلد السمور ، كما كانت ثنيات المعطف الكثيف الذي تغطت به تغطي تماماً أجزائها بحيث لم يعد يرى إلا وجهها .

ولم تعد «جولي» ديغليسون «شبه في شيء الفتاة التي كانت تعدو قبيل ذلك في فرح وسعادة في أثناء العرض بخدائق «التويليري» ، وفقد وجهها الرقيق دائماً ألوانه الوردية التي كانت تنبه فيما سبق رونقاً غنياً ظاهراً ، وأبرزت الخصلات السوداء لبعض شعرها الذي جعلته الرطوبة يبايض جبهتها الأصم ، وقد حملت حيوتها ، وبرغم ذلك كانت عيناها تلمعان بوقدة غير عادية ، وإن ارتست تحت جفونها صبغات بنفسجية فوق خديها المزهكين . ونظرت بعين غير مبالية على أرياف نهر «الشير» وه «الوار» وجزائرها ، وعلى مدينة «تور» وعلى هضاب «فوغريه» الطويلة ، ثم لم تتعب بأن ترى وادي نهر «الشير» الخلاب وألقت بنفسها بسرعة في أقصى المركبة ، وقالت بصوت بدا غايه في الضعف في الهواء الطلق :

— نعم... هذا رائع .

فقد انصرفت على أيها كما هو واضح من أجل تعاسها .

— ألا تخمين أن تعيش هنا يا «جولي» ؟

قالت بلا أدنى اكتراث : أوه ! هنا لَوْ في أُنَى مكان .

فبأُهَا المقدم (ديجليسون) : هل تتألمين ؟

أجابت المرأة الشابّة بشيء من الحبيوية المؤقّتة : ألبتة . وتأملت زوجها مبتسلة ثم أضافت : لي رغبة في أن أنام .

وفجأة دوى صوت عدو حصان ، فترك المقدم « ديجليسون » يد زوجته ، وأدار رأسه نحو متخطف الطريق في ذلك المكان . وبمجرد غياب نظر المقدم عن « جميل » اختفى تعبير البشاشة الذي طبعته طبعاً على وجهها الباهت اللون ، كأنّ الوهج قد كُف عن إضاءته . وبقيت في ركن المركبة دون أي رغبة في رؤية المنظر مرة أخرى ، ودون أي فضول لمعرفة من هو الفارس الذي كان حصانه يعدو على ذلك النحو الغاضب . وثبتت نظرها على شعر أرداف الخيول الأمامية دون أن تم عن أي عاطفة ، وكانت تبدو في غياء فلاح « برينوتى » (من مقاطعة بريثاني الفرنسية) في أثناء سماعه لنداء يوم الأحد من راعي الكلبة . وخرج فجأة شاب فوق فرس ثمين من غابة صغيرة من أشجار الحور والزعرير المزهرة .

قال العقيد : إنه إنجليزي .

أجاب السائق : أوه ! يا إلهي ! نعم يا سيدي إنه من نوع الشباب الذي يريد التهام فرنسا على حد قولهم .

وكان الضمهور أحد المسافرين الذين وجدوا أنفسهم على القارة الأوروبية ،

عندما قبض « نابليون » على كل البريطانيين اقتصاصاً منهم لاعتداء حكومة « سان جيمس » (١) على القانون الدولي عند نقض معاهدة « أميان » . وبعد أن استسلم هؤلاء السجناء لطوى القوة الإمبراطورية لم يبقوا جميعاً في الأمان التي قبض عليهم فيها ، أوفى الأمان التي أطلق لهم أول الأمر حرية اختيارها . وأغلب الذين سكنوا في تلك الفترة مقاطعات « التورين » كانوا قد نقلوا إليها من مختلف أنحاء الإمبراطورية ، حيث بدت إقامتهم ضارة بمصالح نابليون في القارة الأوروبية . وكان الأسير الشاب الذي خرج يروح عن نفسه ملل الصباح ، ولحداً من ضحايا السلطة البيروقراطية « هنري عامين » صدر أمر من وزارة العلاقات الخارجية أدى إلى انتزاعه انتزاعاً من جو « مونبلييه » ، حيث فاجأه من قبل تصدع السلام وهو في غمرة من حرصه على الشقاء من علة بالصدر . وعندما تبين هذا الشاب عسكرية شخص الكونت « ديجليسون » باذر بتحاشي نظراته بأن أدار رأسه نحو حقول « الشير » .

قال المقدم وهو يتعمّق : كل هؤلاء الإنجليز وقحون كأن الأرض ملك لهم . من حسن الحظ أن المارشال « سولت » سيلحق بهم الإهانات . وعندما عبر السجين أمام المركبة نظر نحوها . وبرغم نظرتة العجلى أمكنه عندئذ أن يعجب بتعبير الشجن الذي أعطى وجه الكونتيسة

(١) أي حكومة بريطانيا .

المفكر جاذبية غير محددة . وهناك رجال كثيرون يفعل قلبهم بشدة لغير مرأى العذاب عند المرأة ، فعندهم يكاد الألم يكون وعداً بالثبات والحب . وكانت « جوى » مأخوذة تماماً بتأمل مخدة في المركبة فلم تهر القرس أو الفارس الثقاتاً . وأعيد تركيب « الخير » بمثابة ورشاقة ، وصعد الكونت إلى المركبة . وساجد السائق من أجل توفير الوقت الضائع ، واقتاد المسافرين بسرعة نحو الجزء الصاعد على حافة الصخور المعلقة التي تنضج في وسطها أعتاب « قوقريه » وحيث تقوم منازل جميلة كثيرة . وتظهر عن بعد الأطلال الخاصة بدير « المارموتيه » حيث كان اعتزال القديس « مارتان » .

— ماذا يعني منا إذن ذلك اللورد الذي لا يكاد يحجب « ورايه » ؟ بهذا صاح المقدم وهو يدور برأسه ليؤكد من أن الفارس الذي كان يتبع مركبتهم منذ شهر « الشير » هو نفس الشاب الإنجليزي .

ولما كان الإنجليزي لم يחדش أى لياقة من لياقات الأدب وهو يتنزه في الطريق بين الجبل والهر الفاخر بالسد . فقد عاد المقدم إلى ركن المركبة بعد أن ألقى نظرة تهديد نحو . ولكن المقدم لم يستطع يرغم كراهيته غير الإرادية أن يمنع نفسه من أن يلاحظ جمال القرس وأروحية الفارس ، فقد كان لذلك الشاب وجه إنجليزي ذو لون دقيق . وبشرة ناعمة بيضاء إلى حد يكاد يدعو الناظر أحياناً إلى اقتراس انتمائها إلى جسم رقيق لفنانة شابة ! وكان أشقر اللون رفيعاً طويلاً . أما زيه فكان ذا طابع أثني نظيف . تتميز به أزياء إنجلترا الحريصة على عدم

محدث القضييعة . وبدأ كأنه يحمر خجلاً عن خيائه . أكثر مما كان يحمر خجلاً عن امتناعه بمظهر الكونتيسة .

رفعت « جوى » نظرها مرة واحدة نحو الغريب ، وكانت قد اضطرت إلى ذلك بشكل من الأشكال عندما أراد زوجها أن يدفعها إلى الإعجاب بسيقان القرس الذي كان من جنس أصيل . وعندئذ فقط التفت عينا « جوى » بعيني الإنجليزي الحجول . ومرة تلك اللحظة عمد إلى متابعة المركبة على بعد خطوات بدلاً من أن يسير بفرسه بالقرب منها . ونظرت الكونتيسة إلى الرجل المحجول ، ولم ترفيه أى مزايا إنسانية أو قرونية مما كان يوصف به ، وألقت بنفسها إلى أقصى المركبة بعد أن أفلتت منها حركة خفيفة يحاكيها تصديقاً لرأى زوجها . وعاد المقدم إلى النوم ، وبلغ الزوجان مدينة « نور » دون أن يقول أحدهما للآخر أى كلمة ، ودون أن تجذب المناظر الساحرة في المشهد المتغير الذي جاسا خلاله في أثناء الرحلة انتباه « جوى » ولو مرة واحدة . إذ لم يكد زوجها يغط في النوم حتى شرعت السيدة « ديجليسون » تتأمله حيناً بعد حين على مدد متفاوته . وفي أثناء آخر نظرة تلقيها عليه أدت إحدى رجات المركبة إلى سقوط نوط كبير بيضى معانق في رقبتهما بسلسلة حداد المأمم فوق ركبتي السيدة الشابة . وظهرت أمامها فجأة صورة والدها . وترقرت عيناها أمام هذا المشهد . وتخرج دفعها بعد أن كان حيساً . ومن المحتمل أن يكون الإنجليزي قد رأى آثار

الطولية والبريق التي خلفها الدفوع خطلة فوق حدود الكونتيسة الباهية اللون . ولكن سرعان ما جثقتها الهواء . وكان المقدم « ديجليمون » مكلفاً من قبيل الإمبراطور يحمل بعض الأوامر إلى المارشال « سول » الذي كان عليه أن يدافع عن فرنسا لإزاء غزو الإنجليز إقليم « البيان » فأنهز المقدم « ديجليمون » فرصة هذه المهمة كي يتشغل زوجته من الأخطار التي كانت تهدد « باريس » آنذاك ، ويوصلها إلى مدينة « نور » لدى قرية عجوز من أقربائه . وسرعان ما عبرت المركبة ملاط شوارع « تور » ، وسارت فوق الجسر إلى الشارع الكبير ، وثوقت أمام قصر عتيق كانت تعيش فيه الكونتيسة « دى ليستومير لاندون » سابقاً .

وكانت الكونتيسة « دى ليستومير لاندون » سيدة من تلك السيدات المسنات الجميلات ذوات اللون المصفر ، والشعر الأبيض ، والاشمامة الرقيقة ، وكأنها على رومين سلال ، إذ تضي شعورهن قبعات مجهولة البري . وكانت صورهن السبعينية ذات طابع قرن لويس الخامس عشر ، ولكن من السيدات اغنيات دائماً كما لو كن لايزلن في دور العشق ، وهن تقيت أقل مما هن ورجات ، وأقل ورعاً مما يبدو عليهن الورع . وهن يظهرن المساحيق دائماً على طريقة سيدات « المارشالات » ويجدن الرواية ، ويتحدثن بطلاقة ، ويضحكن من إحدى الذكريات أكثر مما تضحكن المداعبة ، ولا تروقهن أخبار الأحداث .

ولا وصلت الخادمة لإبلاغ الكونتيسة - إذ كان عليها أن تسرد لقبها عاجلاً - بزيارة أحد أبناء الأخوات الذي لم تره منذ بدء حرب أسبانيا . تزعت نظراتها بنشاط ، وأقفلت صفحات « كتابها المفضل » دهليز البلاط القديم ، واستعادت بشافها الخاصة في بلوغ المضطبة في اللحظة نفسها التي كان الزوج والزوجة يصعدان فيها السلم . وتبادلت الخالة والقرينة ترائش النظرات في سرعة :

وصاح المقدم وهو يسلك بالسيدة العجوز ويقلها متعجلاً :
صاح الخير يا خالي العزيزة . لقد جئتكم بأمرأة شابة لرعايتها . بل جئت أعهد إليكم بكزوي . وليست « جولي » مدللة أو غموماً . إنها ذات رقة ملائكية ، ولعلها لا تفسد هنا . أتعثم ذلك . هكذا قال وهو يقاطع نفسه .

أجابت الكونتيسة وهي ترجي إليه نظرة ساخرة : إنسان خلع . ! وسبغت الكونتيسة « جولي » إلى التقديم نحوها في لطف محب خاص . وقيتها ، حتى بقيت « جولي » شاردة الفكر ، وبدت مرتبكة أكثر مما بدا عليها الاستغراب .

قالت الكونتيسة مرة أخرى : سوف يتعرف أحدنا على الآخر إذن يا قاي العزيز ... لا تخشيني كثيراً ، فإنني أتعمد ألا أبدو كهالة على الإطلاق أمام الشباب . وقبل بلوغ غرفة الاستقبال كانت الكونتيسة قد طلبت الطعام لضييفها حسب العادة في الأقاليم ، غير أن الكونت قاطع فصاحة خاله ليقول :

لها بالهجة قاطعة إنه لن يستطيع أن يعطى من وقته أكثر مما يسمح له وقت الخدمة بالتناوب . وعندئذ عجل الأقارب الثلاثة بالدخول إلى غرفة الاستقبال دون أن يجد المقدم الوقت الكافى ليروى لخائنه الكبيرة كل أحداث السيامة . وأحداث الحرب التى اضطرت به إلى اللجوء إليها طالباً لإيواء امرأته الشابة . وتأمّلت الخالدة بالنهاد فى أثناء هذه الحكاية ابن الأخت الذى كان يتحدث دون مقاطعة ، وأبنة الأخت التى كان يصغرها ويؤسها بيدوان فأتى عن هذا الانفصال الذى لا مندوحة عنه وكان حال أمرها يقول : هيه .. هيه ..! هذان الشابان يجب كل منهما الآخر . فى تلك اللحظة دوت قرعقات كروياح فى القماء القديم الهادئ الذى كانت ملاطاته مرسومة بحزم من العشب . فقبّل « فيكتور » الكونتيسة مرة ثانية . واندفع خارج البيت .

وقال وهوى قبّل زوجته التى تعسحت باب المركبة : وداعاً يا عزيزى ... فقالت هى بصوت حبيب : أه يا « فيكتور » دعنى أصحبك إلى أبعد من هذا . ما كنت أود أن أبتعد عنك ...

— هل تعتقدين ذلك ؟

أجاب « جولى » : وداعاً إذن الآن ما دامت هذه رغبتك .

واختفت المركبة .

سألت الكونتيسة ابنة الأخت : وهى تستفسر منها بإحدى تلك النظرات الفاحصة التى تلقىها السيدات المسنات نحو الشباب :

أنت إذن تحبين ابن أختى المسكين « فيكتور » حباً كبيراً ؟
أجاب « جولى » : وأسفاه ! يا سبلتى أليس من الضرورى أن تحب الرجل تماماً لكى تزوجه ؟

وكانت هذه العبارة الأخيرة ذات نبرة دالة على حجة السداجة التى كشفت دفعة واحدة كل القلب البريء والأسرار العنيفة .

غير أنه كان من العسير على سيدة كانت صديقة « ديكوه » والماريقال « ريشيليو » ألا تسعى للتخمين بشأن سر هذا الزواج الحديث العهد . وكانت الخالدة وأبنة الأخت كلنهما فى تلك اللحظة على عتبة الباب الخاص بالعربات ، مشغولتين بالنظر إلى المركبة المفضية . ولم تكن عينا الكونتيسة تعبران عن الحجب على النحو الذى اعتادت الماركةزة أن تفهمه . فقد كانت السيدة الكريمة من لاقليم « البروغانس » كما كانت عواطفها حية .

سألت قريبتها : لقد تركت نفسك إذن ليسنخوذ عليك ابن أختى الخليع ؟

فارتعدت الكونتيسة دون إرادة منها : لأن نبرة الكلام ، ونظرة تلك العجوز المذلة ، ظهرت كأنها تنذر بمعرفة طباع « فيكتور » معرفة تكاد تكون أكثر عمقاً من معرفتها هى نفسها . وحاولت السيدة « ديجليسون » إذ أحست باتفاق أن تتخفى فى نوع من المداراة الخرقاء التى تمثل أقرب ملاذ تلجأ إليه القلوب الساذجة المتأللة . وقبّلت السيدة « دى ليستومير » إجابات « جولى » ولكنها اعتقدت فى غير قليل من

الابتهاج أن عزلتها سوف تحشد بعض أسرار الحب ، لما بدا على قريبتها من أنها تحتفظ بعقدة روائية تسل من يثابعتها .

وعندما وجدت السيدة « ديجليمن » نفسها في غرفة الاستقبال الكبيرة ذات السجاجيد الخفيفة بقضبان لينة مذهبة ، وجلست أمام النار المشتعلة محتمة من « رياح الشيايبك وراء « بارافان » ضئلي ، لم تستطع تعاسها أن تنقشع . وكان من الصعب أن تبرز الفرحنة تحت أغشية الحوائط القديمة إلى ذلك الحد بين الأثاثات العريقة . وبزعم ذلك وجدت الباريسية الشابة نوعاً من المتعة في النفاذ إلى هذه العزلة العميقة ، وإلى ذلك الصلت الحقيقى الخاص بمناطق الأقاليم .

وبعد أن تبادلت بضع كلمات مع الخالة التي كانت قد بعثت إليها منذ بعض الوقت خطاباً في مسهل أيام عرسها ، بقيت صامئة وكأنها قد استمعت إلى موسيقى الأوبرا . وبعد ساعتين من الهدوء اللائق بهذا المكان الشبيه بالدير ، وجدت أن هذا ليس من الأدب في شيء نحو الخالة . وقد كثرت أنها لم تجبها إلا بإجابات ياردة . وكانت السيدة العجوز قد احترمت غناد قريبتها بتلك الغريزة اللببة بالعلطف الذى امتاز به الناس في العصر السالف . وظلت الأرملة تعمل في « التريكو » أو الزرد في تلك اللحظة . وكانت في الحقيقة قد تغيبت مرات عديدة كى تعد الغرفة الخضراء التي وضع فيها أهل البيت الحفائب ، والتي كان مقدراً للكوثينية أن تنام فيها . ولكنها عادت فاحتلت مكانها في

مقعد ضخم ، وظلت تنظر غلسة إلى السيدة الشابة . وأحست « جولى » بالحجل ، لأنها سرحت مع تأملاتها التي لا تقاوم ، فحاولت أن تعتذر عن ذلك ساخرة من مرقفها .

فقال الخالة : يا عزيزتى الصغيرة ... نحن نعرف ألم الأرملة . وكان لا يد أن يكون المربع في سن الأربعين كى يغلن إلى السخرية التي عبرت عنها شفتا السيدة العجوز .

وفي اليوم التالى كانت الكوثينية في حالة أفضل ، إذ أتبلت على الكلام . ولم تعد السيدة « دى ليستومير » تأس من أن تستأنس بهذه الزوجة الشابة التي حكمت عليها أول الأمر بالنفور والغباء ، وحدثتها عن مصادر المتعة في الإقليم ، وعن الحفلات والبيوت والأماكن التي تستطيع التردد عليها . وكانت جنيح أسئلة الماركيزة في أثناء ذلك اليوم أشبه ما تكون بالمصائد التي لم تستطع — وفقاً لعادة قديمة من عادات البلاط — أن تمنع نفسها من أن تضعها في طريق قريبتها ، حتى تستخلص طبايعها . وقاومت « جولى » كل إلحاح عليها في أثناء بعض الأيام ، بالخروج بحثاً عن اللهو . وبزعم رغبة السيدة العجوز في أن تخرج للزهة مع قريبتها الجميلة زهواً بها اضطرت في النهاية إلى التخلي عن أملها في اقتيادها إلى بعض الأوساط . ووجدت الكوثينية مسوفاً لعزلتها وتعاسيتها في حزمها على أبيها الذى لا تزال تلبس الحداد عليه .

وبعد ثمانية أيام أعجبت الأرملة بالروقة الملائكية ، والعلطف المتواضع

والروح المتصاحبة التي تمتعت بها «جولي» واهتمت منذ ذلك الحين اهتماماً بالغاً بالاكنتاب الغريب الذي ظل يقرض أطراف ذلك القلب الشاب . لقد كانت الكونتيسة من النساء المخلوقات ليكن محبوبات ، واللائي يأتزن بالحير . وصار معشرها مخلو عتيباً ثميناً لدى السيدة «دي لستومير» حتى بدأت نهم بها . ولا ترغب إطلاقاً في مفارقتها . وكان الشهر الواحد كافياً لإنشاء صداقة أبدية بينهما .

ولاحظت السيدة العجوز بتعجب تلك التغيرات التي طرأت على نحيا السيدة «ديجليمون» فقد انطفأت الألوان الحية التي كانت تضرع بشرتها إلى حد غير معقول ، وأخذت الوجه ألواناً صماء باهتة . وعندما فقدت «جولي» تألفها البدائي صارت أقل تعاسة . وكانت الأرملة أحياناً توقف لدى قريبها الشابة دفعات من المرح ، أو من الضحك المضحك فلا يلبث أن يدوي مع فكرة مزعجة طارئة . وضمت أنه ليس ذكرى أبيها ولا غياب «فيكتور» سبب هذا الاكنتاب العميق الذي ألقى حجاً على حياة القرية . ومرت بها وسوس منة عديدة حتى لم تستطع أن تتف على السبب الحقيقي للدهاء ، لأنها قد لا تلتق بالسبب الحقيقي إلا بالمصادفة .

وأخيراً ، وفي ذات يوم صارت «جولي» تمثل في نظر الخالة المتدهشة النسيان الكامل للزواج ، وجنون الفتاة الشابة الحفقاء ، ورعونة الفكر ، كالطفولة الجديدة بالسنتين الأولى ، بل كل تلك الروح الرقيقة التي

تبلغ أحياناً عمقاً كبيراً ، ويتميز بها الشبان في فرنسا . فعمت السيدة «دي لستومير» عندئذ على أن تسير غور الأسرار الخاصة بهذه الروح التي كان وضعها الطبيعي البالغ معاذلاً للتصنع والمداواة بحيث لا يمكن النفاذ منها إلى ما وراءها . واقترب الليل عندما كانت السيدتان جالستين أمام نافذة مطلة على الشارع . وعادوت «جولي» حالة التفكير عندما مر رجل على قوس .

قالت السيدة العجوز : ها هو ذا أخذ ضحاياك !

فقطرت السيدة «ديجليمون» إلى الخالة مهدية دهشها المزوجة بالقلق ، فقالت الكونتيسة :

— إنه شاب إنجليزي . . . وهو شريف من الشرفاء . . صاحب الرفعة «آرثر أرومون» ، الابن الأكبر لورد «جزيغيل» وقضته جذيرة بالاهتمام . إذ جاء بناء على نصيحة من أطبائه إلى مدينة «مونلييه» سنة ١٨٠٢ على أمل شفاة — تحت تأثير جو الإقليم — من مرض صدرى نزل إلى ، فوقع في الأسر مع بقية أهلاء وطنه جديماً ، بناء على أمر «بوتاييرت» عندما وقعت الحرب . إذ لم يكن هذا الوحش قادراً على الاستغناء عن القتال . ومن ياب اللهو عكف هذا الإنجليزي الشاب على دراسة مرضه الذي كان في ذلك الوقت من الأمراض المميتة ، ورويداً رويداً بدأ يهوى التشريح ثم الطب ، بل أخذ يشغف بهذه الأنواع من الفنون شغفاً كبيراً . وهو أمر شديد الشذوذ بالنسبة إلى الرجال المرموقين ؛

ولكن الوصى على العرش كان من المعينين بالكيمياء ! وباختصار
تقدم السيد « آرثر » تقدماً مذهلاً حتى لدى أساتذة « مونثلييه » فكانت
الدراسة عزاءهم في الأسر واستطاع أن يشق نهائياً في الوقت نفسه .
ويقال إنه ظل ستين دون أن يتيسر بهت شفة ، فينتفض قليلاً وهو مستلق
في إحدى الحظائر يشرب البان البقر القادم من « سويسرا » ويتغذى
بالجرجير . ومنذ وصل إلى مدينة « نور » لم ير أحداً ، وبدأ مزهواً
كالطاووس ، ولكنك عزوت قلبه بالتأكد ، لأنه ليس محتملاً أن
يكون مروّره تحت نافذتنا مرتين كل يوم - منذ - وصلت أنت إلى هنا -
من أجل أنا ومن المؤكد أنه يجلبك .

أيقظت هذه الألفاظ الأخيرة الكونتيسة وكأنها كانت سحراً ،
وأبدت حركة وإنسامة أدهشتا الماركيزة . وظلت نظرة « جولي » آسنة
باردة دون أن يبدو منها ذلك الرضا العرّبي الذي تستشعره أشد النساء
صرامة ، عندما تعلم مدى تأثيرها على شفاء إنسان ، وعبر وجهها عن
شعور بالنور أشبه ما يكون بالاشمئزاز . ولم يكن هذا العزل الكامل الذي
تضرب به امرأة عاشقة الدنيا كلها عرض الحائط من أجل مخلوق واحد .
لأنها تعرف بلاشك الضحك والمرح . . لا . . لقد كانت « جولي »
حينذاك كشخص تدفعه ذكرى خطر شديد حاضراً إلى استئثار الألم ،
وكانت الخالة مقتنعة تماماً بأن قريبها ليست عاشقة لزوجها ابن
الأخت ، وذهلت لذلك تماماً حين اكتشفت أنها لا تحب أحداً ،

وارتعدت حين وجدت في « جولي » شخصاً غير سعيد . أو امرأة
شابة كفتها تجربة يوم أو تجربة ليلة لتقدير عدم أهلية « فيكتور » .
وقدرت الماركيزة في بالها . إذا كانت تعرفه فهذا هو كل السر . سوف
يعانى ابن اختى قريباً من أضرار الزواج .

وعندئذ اقترحت فيا بيتها وبين نفسها أن تحوّل « جولي » إلى عقائد
المذاهب الملوكية في قرن « لويس » الخامس عشر . ولكنها بعد ذلك
بساعات عرفت ، أو علمها خمنت ، الموقف الشائع إلى حد ما في
العالم المحيط بالكونتيسة . والذي يرجع إليه اكتئابها . وعندما صارت
« جولي » متفكرة فجأة انسحبت إلى غرفها أكثر تيكراً مما اعتادت .
وبعد أن تولت خادماتها خلع ملابسها ، وفارقها لتستعد للنوم . جلست
أمام المدفأة غاطسة في أريكة وثيرة ذات مسند من القטיפنة الصفراء ،
وهي قطعة من الأثاث العتيق الذي يرغب فيه المكرويون والسعداء
على السواء . وبكت وتهدت وغملت فكرها ، ثم أخذت منضدة صغيرة
وبحثت عن الورق . وشرعت تكتب . ومرت الساعات سريعة .
وبدت المناجاة المكشوفة التي وضعها « جولي » في هذه الرسالة كأنها
قد كلفتها غالباً ، بحيث ساقها كل عبارة إلى تحيلات طويلة وقجاة
فاضت بالسيدة الشابة الدموع وتوقفت .

وفي تلك اللحظة دقت الساعة الثانية صباحاً ، ومال رأسها الذي
كان في ثقل رأس امرأة بسبيل الموت فوق صدرها . وعندما أعادت

رفعها رأته ، جولى ، خالتها وقد برغت فجأة كشخص انفصل عن
السجادة المعلقة فوق الحائط .

قالت لها خالتها : ماذا بك إذن يا صغيرتى لماذا السهر إلى هذا
الوقت المتأخر ؟ ولماذا البكاء خاصة على انفراد ؟ مثل منك ؟
وجلست تغير تكلف بالقرب من قريبتها ؟ وتهتم عينها الرسالة
التي كانت قد بدأها .

— كنت تكتنين إلى زوجك !

فأجابت الكونتيسة : وهل أعرف أين هو ؟

وتناولت الحالة الرسالة وقراها . وكانت قد أحضرت معها نظاراتها ،
كأنها توقعت سلفاً ما حدث . وتركها المخلوقة البرينة تتناول الرسالة دون
أن تبدى أقل ملاحظة ، ولم يتزع منها كل طابق أى عيب من عيوب
الكرامة ، ولا أى شعور بالخطيئة الخفية .. لا .. إذ التقت الحالة
هنالك بالخير كما التقت بالشعر ، والتقت بالصمت كما التقت بالمنجاة
وموضع السر في إحدى اللحظات الأرمة عندما تكون الروح بغير ذريعة
ويكون الكل سواء . وكانت « جولى » أشبه ما تكون بالقناة الشابة العفيفة
التي تضنى عبداً من جراء الاستخفاف به ، ولكنها فى الليل تجد نفسها
نعية مهجورة إلى حد أن ترغب فيه ، وتبحث عن قلب تأوى إليه
بمناعبها . فتركت الرسالة وامتلست ، وقد أخذ يتلاشى ما يدفعها من

الروقة المفروضة على خطاب مفتوح دون أن تبس ببنت شفة ، وبقيت
مستكة أثناء قراءة الماركيزة الرسالة .

عزيزتى لويز

فيم يفيد الناس تحقيق الوعد العائم الذى تعاهدت عليه شابئان
جاهلان مرات عديدة ؟ لقد كتبت إلى تقولين لأنك غالباً ما تساءلت :
لماذا لم أجب عن استفساراتك منذ ستة أشهر ؟ فإذا لم تكفى قد فهمت
صمتى قلعلك اليوم تخمين سبب ذلك . عندما تعلين الأسرار التي
سوف أفشيها . لقد كنت عولت على أن أدفها إلى الأبد فى قرار قلبي
مالم تخطرى بزوجك القريب . سوف تتزوجين « يالوزا » وهذه الفكرة
وحدها تجعلنى أرتعد . يا صغيرتى المسكينة تزوجى ، ثم بعد أشهر
قليلة سيتزل بك ندم حاد من جراء ذكرى ما كنا عليه قبل وقت مضى ،
عندما وصلنا كلنا إلى مدينة « أكووان » فى أعلى سلاسل الجبل ،
وجعلنا نتأمل الوادى الجميل الذى كان تحت أقدامنا ، وأعجبتا فيه
بأشعة الشمس الغاربة التي كان يريقها بغيرها يغمرنا ، وجلسنا فوق قفلة من
الحجر ، واستغرقنا فى النهار تلاء أرق الاكتئاب .

وكنت الأولى حين شعرت بأن هذه الشمس البعيدة تحملنا عن المستقبل ،
وكنا غريبتين غيولتين فى ذلك الحين . هل تذكرين كل هذياننا !
وكنا نبادل القبلات كعاشقين على حد تعبيرنا آنذاك . وأقسمنا بأن
التي تتزوج قبل الأخرى تروى لها بإخلاص تلك الأسرار الخاصة

يزفاف البكارة ، وكل المتع التي نفعها أرواحنا الطفولية في شكل الذئبة .
ستكون تلك الليلة سبية في ياسك يا « لوزا » .

في ذلك الوقت كنت شابة جميلة . غير مكترثة بل سعيدة .
وميجوئك الزوج في أيام قليلة إلى ما أنا عليه الآن ؛ قبيحة متأللة ،
عجوز . سيكون من الجنون أن أقول لك إلى أي حد كنت مزهوة
ومغرورة وسعيدة بزواجي من المقدم « فيكتور ديغليسون » بل كيف
أقول لك ذلك ؟ إني لم أعد أذكر . أنا نفسي شيئاً . في ثوان قليلة
صارت طفولتي كحلم ، ولم تكن قدرتي أثناء النهار الشرعي الذي
الخص بالرباط الذي كنت أجهل أماده خالية من المؤامرات . فقد
حاول إلى أكثر من مرة أن يبط من فرجي . لأنني كنت أبدى من
المباهج ما كان يعد غير لائق . وأوتحت أقوالى بالدهاء لنسب بسيط
هو أنها كانت خالية من الدهاء . وقتت بالآلاف الأعمال الصبيانية
بخمار الزفاف وبالرداء والزهور . وفي المساء - عندما صرت على الأفراد
في الغرفة التي قادوني إليها في غايمة الآهية - خطرت لي بعض الشيطنة كى
أدفع « فيكتور » إلى الخيرة . وفي انتظار مجيئه أحسست بدقات قلبي
مثلما أحسست بها حينما تملكنتى قديماً في الأيام الخاصة باحتفالات
الأعياد في ٣١ ديسمبر . عندما نفذت - دون أن يراى أحد - إلى غرفة
الاستقبال حيث تكومت هدايا رأس السنة .

وعندما دخل زوجي بحث عني ، وإذا ضحكى المكبوتة التي

انطلقت من فمي تحت أغطية الشاش الموصلى الناعم التي أحاطت بي ،
كانت آخر صيحة لتلك الفرحة الرقيقة التي بعثت الحياة في ألعاب
طفولتنا ...

عندما انتهت الأملة من قراءة هذه الرسالة التي بدأت على هذا النحو
وكان ضرورياً أن يخشى على ملاحظات تعيسة حقاً ، وضعت نظارتها
ببطء فوق المنضدة ، وضعت فوقها الرسالة في الحال ، وركزت على
قريبها عينها الخضراوتين اللتين لم تكن وقديهما المضيفة قد وضعت
بعد بتأثير السن ، وقالت : يا صغيري .. لا تستطيع عبدة متروجة
أن تكتب على هذا النحو إلى فتاة شابة دون أن تقصر في شئون الياقات ..
أجابته « جولي » وهي تقاطع الحالة : وهذا هو ما اعتقدته وقد
شعرت بالحجل من نفسي عندما كنت تفرقته ...

عادت العجوز تقول ببساطة مفرولة : لا ينبغي - إذا لم يرقنا صنف
من أصناف الأكسل على المائدة أن نبعث غيرنا على القرف معة
يا طفلي .. ولا سيما أن الزواج قد بدا شيئاً ممتازاً من أيام حواء إلى
اليوم ... ألم تعد لك أم ؟

فارتعشت الكونتيسة . ثم رفعت رأسها بركة ، وقالت : منذ عام
وأنا لا أكف سلفاً عن اللدم بشأن أمي . ولكنني أخطأت في أني لم أصغ
للكراهية التي ابداءها إلى وهو يرفض أن يصبح « فيكتور » صهراً له .
ونظرت إلى الحالة . فجنفت دموعها لترعادة إليها ، حينما لحث

معالم الطبيعة التي يعث الحياة في ذلك الوجه المسن . وملت يدها الشابة إلى الماركيزة التي بدت عيناها مغرقتين . وعندما تضاعفت أصابع كل منهما كانت المرأتان قد بلغتا غاية التفاهم .

أضافت الماركيزة : أيتها اليتيمة المسكينة .

وكان ذلك بصيصاً أخيراً من النور بالنسبة إلى «جولي» إذ اعتقدت أنها لا تزال تسمع صوت النبوءة على لسان أبيها .

سألت المرأة العجوز : إن يدبك مشتعلتان من السخونة ! أحما كذلك دائماً ؟

وأجابت «جولي» : لم تفارقتي الحرارة المرتفعة منذ سبعة أيام أو ثمانية .

— كانت حرارتك مرتفعة وأخفيت ذلك عني !

قالت «جولي» بنوع من القلق الخجول : إنها عندي من سنة .

— على ذلك لم يكن الزواج حتى اليوم بالنسبة إليك يا ملاكي

الصغير إلا ألا طويلاً ؟

لم تجرؤ المرأة الشابة على الإجابة، ولكنها أثت بحركة إيجاب فضحت

كل معاناتها .

— أنت إذن تعيسة ؟

— أوه لا يا خالي «فيكتور» بجنى حب العبادة ، وأنا أعيدته ...

فهو طيب جداً .

نعم أنت تحببته ، ولكنك تهربين منه . أليس كذلك ؟

نعم .. بعض الأحيان .. إنه يبحث عني غالباً .

— ألسنت غالباً مضطربة في العزلة خوفاً من مفاجآت لك ؟

— وأستاه ! فعلاً يا خالي . ولكنني أؤكد لك أني أحبه كثيراً .

— ألم تكوني تهمين نفسك سراً بأنك أنت نفسك لا تعرفين أولاً تملكين

القدرة على أن تشاركه منته ؟ ألم تكوني تعتقدين أحياناً أن الحب

المشروع أشد قسوة في عيشه من أي عاطفة إجرامية ؟

قالت «جولي» وهي تبكي : أوه ! هو كذلك . أنت تخمين كل

شيء إذن حيثما كان كل شيء لغزاً بالنسبة إلي . لقد فترت حواسي

وصرت بغير أفكار ، وهأنذا أكابد العيش . لقد كبت روحي خوف

مبهم يثلج عواطفى ويهينى في فتور مستمر ، ولقد أصبحت فاقدة

التعلق لكي أشكو لنفسي وبغير أقوال تعبر عن ألمي ، لأنني أتعذب

وأعجل من عذابى عند رؤيتي «فيكتور» سعيداً بما من شأنه أن يودى في .

صاحت الخالة التي حيي وجهها الجلف فجأة بإبتسامة مريحة عكستها

مباهج شبابها : هذه صبيانيات . هذه كلها حماقات !

قالت المرأة الشابة في يأس : وأنت أيضاً تضحكين !

أجابت الماركيزة بسرعة : لقد كنت أنا كذلك . أما وقد تركك

«فيكتور» الآن وحيدة ، ألم تعودى فتاة شابة هادئة بلا متع ولكن

يدين آدم .

فتحت « جولى » عينها الواسعتين ببلاهة ، واستطردت المركيزة :

« على أى حال يا ملاكى أنت تعبدين « فيكتور » .. أليس كذلك ؟ ولكنك كنت تفضلين أن تكفى أخته لا زوجته حيث إن الزواج لا يصلح لكما .

— آه .. فعلا يا خالتي .. ولكن لماذا تتسعين ؟

— أوه ! معك حق يا طفلى المسكينة ، إذ ليس فى هذا كله مدعاة للسرور . وسيكون مستقبلك مليئاً بأكثر من شقاء ما لم أحذب عليك ، وما لم تظعن تجربة عمرى الطويل إلى سبب أحزانك الساذج . إن ابن أختى لم يكن يستحق حظه السعيد .. ذاك الأبله !! فى عهد عيونتنا لويس الخامس عشر إذا وجدت امرأة شابة فى مثل موقفك : كان ينبغى فى الحال أن يعاقب زوجها على سلوكه كجندى مرتزق ، ذاك الأثافى ! أما العسكريون فى عصر هذا الطاغية الإمبراطورى فكلهم جهالة أشرار ، ويأخذون القسوة بديلاً عن الشهامة ، ولا يعرفون النساء أكثر مما لم يعرفوا كيف يحبون ، ويعتقدون أن الذهاب إلى الموت فى الغداة يخلّصهم فى العشيّة من أى اعتبارات أو اهتمامات مبدولة حيالنا . لقد كانوا قديماً يعرفون كيف يحبون بنفس البراعة فى معرفة كيف يموتون فى الوقت المناسب . يابنة الأخت ، سوف أقوم بتأديبه من أجلك ، وسأضع حداً لهذا التصدع العيسى ، الطبيعى إلى حد ما ، الذى كان سيؤدّهما إلى كراهية أحدهما الآخر وإلى تقى الطلاق إذا لم تكفى



قد بلغت الموت قبل بلوغك اليأس .

أصفت « جولى » إلى خالتها باستغراب وباندهاش متعادلين عند مباحثها هذه الأقوال التي استطاعت أن تستشعر حكمها أكثر من أن تفهمها . وأحست بالدحر عند مباح الحكم الذى أصدره أبوها بشأن « فيكتور » على قم « قريبة » ذات تجربة ولكن بتعبير أرق .

وأصابها حدى عارم بمستقبلها ، فأحست بلا شك بثقل شغلها الذى كان يحتم فوق صدرها بالضرورة ، لأنها لم تلبث أن ذرفت الدموع ، وألقت بنفسها بين ذراعى السيلة العجوز وهى تقول لها : « كفى أُمى ؟ » أما الخالة فلم تترك : لأن الثورة أيقنت لنساء الملكية القديمة دموعاً قليلة فى العين ، فقد دعا الحب . ثم الرعب مؤخرًا جلاهن بألفن الحوادث المؤثرة الحادة بحيث صرن يحتفظن وسط أخطار الحياة بالكرامة الباردة وبالمودة الصادقة بغير مظاهر . وهذا من شأنه أن يسمح لمن بأن يكن دائماً مخلصات لأصول اللياقة ، ويوفر لمن نبل الميعة التى صارت الأختلاف الجديدة ترفضه عن خطأ .

أخذت الأمثلة المرأة الشابة بين ذراعيها وقبلت جبهتها برقة ولطف معهودين غالباً فى أساليب ومعادات مثل هاتيك النساء أكثر مما فى قلوبهن ولاطفت قريبتها بأقوال رقيقة . ووعدتها بمستقبل سعيد ، وهندستها بوعود غرامية لكن تعينها على النوم كما لو كانت ابتها هى . ابنتها الحبيبة التى تتحول آلامها وآمالها إلى آلامها وآمالها الخاصة بها هى .

وكانت ترى نفسها أيام شبابها ، فضخيلت نفسها جميلة وبلا تجربة كقريبتها . وصارت الكونتيسة تغط فى النوم سعيدة بلقاء صديقة وأم تستطيع أن تروى لها كل شئ برغم ذلك .

وغداً ذلك اليوم صباحاً فى اللحظة التى كانت إحداها تغفل الأخرى فى حبة قلبية عميقة ، وفى جو من التفاهم الذى يبرهن على تقدم عاطفى وعلى توافق أكثر اكتمالاً بين روجيهما . سمعتا خطوات فرس فأدارتا رأسيهما فى وقت واحد ، وشتا الشاب الإنجليزى الذى كان يمر متباطئاً كعادته . وكان واضحاً أنه قام بدراسة معينة للحياة التى اعتادها السيدتان الوحيدتان . وأنه لم يكن يتخلف قط عن المرور وقت غداشهما أو عشائهما .

وكان فرسه يتباطأ فى خطواته بلا حاجة إلى إشارة . ثم يلقى « آرثر » نظرة مكثبة خلال الوقت الذى يقضيه فى عبور المكان فيما بين شيكوى غرفة الطعام ، فيشعر بالإهانة أغلب الوقت من الكونتيسة التى لا تبدل نحوه أدنى انبها . غير أن الماركيزة — وقد اعتادت هذه الغرابيات المركبة المتعلقة بصغائر الأشياء مما يبعث الحياة عادة فى الأقاليم ، ولا يكاد يحصى نفسه منها أكبر العقول إلا بصعوبة — صارت تجد تسامياً فى هذا الحب الخجول الخاد الذى كان الإنجليزى يعبر عنه بطريقة مضمرة . وصارت نظراته الدورية شبه عادة بالنسبة إليها . وعادت إلى الإعلان عن عبور « آرثر » فى كل يوم بمداعبات جديدة . امرأة فى الأربعين

وعندما كانت السيدتان تجلسان إلى المائدة كانتا تنظران في آله معاً إلى رجل الجزيرة ، البريطاني « والتقت عينا « جولى » و « آرثر » أو « آرثر » في تلك المرة في شئ من الإيضاح العاطفى : بحيث احمر وجه السيدة الشابة . وفى الحال هزم الإنجليزي حصانه ورجل به عدواً .

قالت جولى للحالة : ولكن يا سيدتى ما العمل ؟ لابد أنه من الثابت لدى الناس الذين يرون هذا الإنجليزي عابراً من هنا أننى ...

أجابت الحالة مقاطعة كلامها : نعم !

— هيه ! طيب . ألا يمكن أن نطلب منه عدم النزول على هذا

النحو ؟

— أليس فى هذا إخطار بأنه ذو خطورة ما ؟ وفضلاً عن هذا هل فى إمكانك أن تمنع رجلاً من الذهاب والحجى . حيثاً حاله . ذلك ؟ منذ الغد لن نتناول طعاماً فى هذه الغرفة . وعندما لا يرافنا ذلك الشاب الوجيى بعد اليوم سيكف عن حبه لك عن طريق النافذة . هكذا يا طفلى العزيزة تصرفت المرأة ذات الخبرة بالحياة .

غير أن شقاء « جولى » كان يجب أن يكون كاملاً . إذ لم نكد السيدتان نهضان من المائدة حتى وصل فجأة خادماً « فيكتور » لقد جاء من مدينة « بورج » متجشماً السفر حقيقة خلال الطرق الملتوية حتى يحمل إلى الكونتيسة رسالة من زوجها . فقد هجر « فيكتور » الإمبراطور وأعلن إلى زوجته سقوط الحكم الإمبراطورى والاستيلاء على

« باريس » والحماس الذى انتفجر تأييداً لخمسة « البوربون » فى كل المواقع الفرنسية . ولما كان لا يستطيع الوصول إلى مدينة « تور » فإنه يرجوها الحىء فى سرعة كبيرة إلى مدينة « أورليان » التى يأمل أن يكون موجوداً فيها حاملاً جواز السفر لها . وكان على هذا الخادم ، وهو جندى سابق أن يرافق « جولى » من « تور » إلى « أورليان » حيث لا يزال الطريق بينهما حراً فى اعتقاد « فيكتور » .

قال الخادم : ليس أمامك يا سيدتى أى وقت .. فالقساويون والبروسيون والإنجليز سوف يلتقون فى نقطة تقاطع عند مدينة « بلوا » أو عند « أورليان » .

واستعدت المرأة النشابة فى بضع ساعات ، ورحلت فى عربة سفر قديمة أعارها لها الحالة ، وقالت وهى تقبلها : لماذ لا تجئين معنا إلى باريس ؟ الآن وقد استعاد البوربون أنفسهم سوف تجدين هناك ..

— لو لم تكن الرحلة غير مضمونة النجاح لحضرت معكما يا صغيرى المسكينة ، لأن نصاعى ضرورة جداً لك و « لفيكتور » وسوف أعد كل ما يلزم حتى ألحق بكما .

ورحلت « جولى » فى رفقة خادمتها والجندى السابق الذى كان يعدو بحصانه قرب المقعد ساهراً على سلامة سيدته . وعند الليل كانت « جولى » قد وصلت إلى إحدى المحطات قياً قبل « بلوا » وشعرت بالخوف لسماعها صوت عربة تمضى خلف عربتها ولا تفارقها منذ « أمبواز »

فعمدت إلى الكوة الصغيرة لتتحقق من شخصية رفقائها في السفر .
وساعدها ضوء القمر على رؤية آرثر أو أرنبر وفقاً على بعد ثلاث
خطوات منها ، وعيناه تحلمان نحو مقعدها . والتقت نظراتهما .
فألقت الكونتيسة بنفسها بشدة إلى ركن عربتها . ولكن يشعور
الخوف الذي جعل قلبها يخفق . وكانت تعتمد في خطيئة الحب الموحى
به بغير إرادة إلى أحد الرجال . شأنها شأن غالبية السيدات الشابات
الساذجات حبيبة وقليلات التجارب . . فقد امتشعرت فزعاً غريباً
قد يكون مصدره الشعور بضعفها أمام اقتحام جرىء من هذا الطراز .

ومن أسلحة الرجل القوية جداً قدرته الخفية على أن يشغل بال امرأة
ذات خيال واكد تفزعه أو تسوؤه المتابعة . وتذكرت الكونتيسة نصيحة
الخالدة ، وقررت أن تبقى في نهاية مقعدها بالعربة في أثناء الرحلة دون
أن تخرج منها . ولكنها كانت تسمع الإنجليزي وهو يخطو حول العربتين
عند كل محطة . وفوق ذلك كانت ضوءاء مركبة المزعجة تدوى على
الطريق بلا توقف في أدنى « جولى » . وقدرت المرأة الشابة أنها سرعان
ما سوف تجتمع بزوجها وأن « فيكتور » سيكون المدافع عنها ضد ذلك
التعذيب القريد .

— ولكن ماذا لو كان ذلك الشاب لا يحبني برغم هذا ؟

هكذا وصلت في نهاية تفكيرها إلى هذه العبارة . وعندما وصلت إلى
« أوليان » كان « البروسيون » قد استولوا عليها بكرسي عربتها . وقادوها

في حراسة الجنود إلى فناء الفندق . ولم تكن المقاومة ممكنة . وشرح
الأحابيل للمسافرين الثلاثة بالإشارات الأمر أنهم قد تلقوا الأمر
بعدم خروج أى شخص من عربته . فبقيت الكونتيسة تبكي مدة
ساعتين تقريباً وهي مسجونة وسط الجنود الذين كانوا يدخلون ويضحكون
ويظفرون إليها أحياناً نظرة متطلعة وقحة . ولكن في النهاية رأيتهم يتابعون
عن العربة بنوع من التوقير عند سماعهم ضوضاء خيول كثيرة .
وسرعان ما أحاطت بمقعد العربة قرقة من الضباط الأجانب من ذوي
الرتب الكبيرة التي كان على رأسها ضابط نمساوي .

قال لها اللواء : يا سيدتي تفضل بقول اعتذارنا . فقد حدث خطأ
ويمكنك مواصلة رحلتك بلا خوف ، وهناك جواز سفر يملك برغم
ذلك كل ألوان الإذلال . .

وتناولت الكونتيسة الأوراق وهي ترتجف ، وتمتعت بأقوال غامضة ،
وشاهدت بالقرب من اللواء « آرثر » في بدلة ضابط بريطاني . وهو الذي
كان له الفضل بلا شك في إنقاذها بسرعة ، وأدار الشاب البريطاني
رأسه في فرح واكتئاب معاً ولم يهروغ على النظر إلى « جولى » إلا خلسة .

ووصلت السيدة « ديجليسون » إلى باريس بغضل جواز السفر دون
أى حادثة مكيدة . وهناك التقت بزوجها الذي أقبلت من عين اللواء
للإمبراطور : فكيف بحقارة بالغة من قبل الكونت « دارتوا » الذي
عينه أخوه « لويس » الثامن عشر عبيداً للسلطنة . وحصل « فيكتور »

في الحرس الخاص على درجة بارزة جعلته في رتبة لواء :

وبزعم ذلك ، وسط كل هذه الاحتفالات التي أبرزت عودة « البوربون » كان شرعيق مؤثر على حياته قد هجم على « جولى » المسكينة ، إذ فقدت الكونتيسة « دى ليستومير لاندون » . فقد ماتت السيدة العجوز من الفرح ، وحدث لها جراحة في القلب عندما شهدت دوق « دانتجولم » في « تور » من جديد . وهكذا ماتت تلك التي كانت سنها تحول لها الحق في نصيحة « فيكتور » والوحيدة التي كان يمكنها بإرشادات ماهرة أن تجعل الوثام أكثر وفاءً فيما بين الزوجة والزوج . وأحسست « جولى » بملح فداحة هذه الخسارة ، ولم يعد بينها وبين زوجها سواها نفسها . غير أنها شابة حجيطة ، وكانت لاشك تفضل أولاً الغناء على الشكرى . وكان كمال طبعها نفسه متعارضاً مع ما جررت أن تطرحه من واجباتها أو مع تزوجها نحو البحث عن سبب آلامها لأن وقف هذه الآلام كان شيئاً دقيقاً ، فقد خشيت « جولى » أن تخدش حياتها كفتاة شابة .

كلمة فيما يتعلق بمصير السيد ديغليرون في عهد رجوع الملكية :

ألا يلتق رجال كثيرون فيما بينهم ونظف نفاهتهم العميقة مرةً بالنسبة إلى غالبية الناس الذين يعرفونهم ؟ فكل من الرتبة الكبيرة ، والأسرة ذات المكانة الملحوظة والوظائف الهامة ، وبعض المداينة في المعاملة

الحميدة ، والتحفظ الشديد في السالك أو امتيازات الثروة ... كل هذه لها بالنسبة إليهم شأن الحراس الذي يحولون دون نفاذ أي انتقادات للوجوه الخاص بهم . وهؤلاء الناس يشبهون الملوكة الذين يستحيل لهم قسمة وطباعهم وأخلاقهم الحقيقية تقديرًا عادلاً ، أو معرفتها بصفة سليمة ، لأن رؤيتهم ثم إما عن بعد شديد أو عن قرب شديد .

والسرم هذه الشخصيات ذات الفضل المضطرب بتوجيه الأسئلة بدلاً من أن تقوم بالكلام وتلك من إبراز الآخرين في المشهد كى تتخاشى اتخاذ وضع أمامهم : ثم يجادلون ببراعة موفقة كلا من يخطط عواطفه أو يخطط مصالحه : ويتلاعبون على هذا النحو بالرجال الذين يتميزون عليهم فعلاً ، ويعملون منهم صوراً خشبية متحركة . ويعتقدون بالتالى في صغرهم ما داموا قد قزلوا بهم إلى مستواهم ، وعندئذ يحصلون على الانتصار الطبيعي للفكر الذى المثبت فوق طيش الأفكار الكبيرة ، ومن أجل الحكم على هذه الرغوس القارعة وتقدير قيمهم السالبة يجب على المراقب أن يملك فكراً دقيقاً قبل أن يكون عالياً ، وأن يملك صبراً أكثر مما يملك طاقة في البصر ، وأن تتوافر النعومة والملمس الرقيق أكثر مما تتوافر له الرقة والعظمة في الأفكار . وبرغم ذلك - مهما بذل هؤلاء المختصون من مقدرة على الدفاع عن نواحي ضعفهم - من الصعب عليهم تماماً أن يخذعوا نساءهم وأمهاتهم وأولادهم أو أصدقاء البيت . غير أن هؤلاء يحفظون لهم دائماً سرهم فيما يمس الشرف المشترك على نحو ما .

بلى غالباً ما يساعدهم على أن يفرضوا ذلك السر على المجتمع .
وإذا كان تأمر أهل البيت بعين كثيرين من هؤلاء التوافه على أن يصبحوا
في عداد الرجال الممتازين فهم بهذا يعرضون عدد الرجال الممتازين
الذين يعدون من التوافه ، بحيث يتوافر للهبة الاجتماعية دائماً نفس
القدر من الكفايات الظاهرة .

ولنفكر الآن في الدور الذي لابد أن تلعبه امرأة ذات مستوى فكري
وعاطلي حيال زوج من هذا الصنف ... ألا نلاحظ وجود حيوات مثقلة
بالآلام والتضحية التي لا يعطى أى جزاء على الأرض بالنسبة إلى
قلوب معينة مليئة بالحب والرقّة ؟

ولو كان قد التفت بأمرأة قوية في هذا الموقف المربع لخرجت منه
بجريمة ، على نحو ما فعلت « كاترين » الثانية التي أطلق عليها لذلك
السبب اسم « العظيمة » .

ولكن لما لم تكن كل النساء جالسات على عروش فائهن ينقطعن
معظمهن لألوان من الشقاء البيتية التي لا يقصها الخول برغم كونها مبهمة .
وهن عندما يبحثن عن عزاء ذنوبهن مباشر عن الشرور يقمن غالباً
بتغيير الآلام فقط إذا شئن البقاء مخلصات نحو واجباتهن أو يؤذين
أخطاء إذا أظعن بالقوانين في سبيل لذاتهن .

وكل هذه الأفكار تقبل التطبيق على التاريخ السرى الخاص
« بيولى » . ففي كل المرحلة التي قال « نابليون » واقفاً فيها على رجله بقى

الكوث « ديجليمون » مقدماً مثل كثيرين غيره ، ضابطاً جيداً من
عصاوت الباوران . وممتازاً في أداء المهمات الخطرة ، ولكنه ظل يغير
أى فكرة قيادية ذات أهمية فلم يثر أى حسد . وأصبح معدوداً كواحد
من الشجعان الذين كان يؤثرهم الإمبراطور ، وكواحد ممن يطلق عليهم
المكسريون عادة اسم « الطفل الطيب » أما الملكية العائدة التي أعطته
لقب الماركيز فلم تجد فيه شخصاً عاقاً ، إذ أنه تبع أسرة « البوربون »
حتى مدينة « جان » ببلجيكا . وأدت هذه الفعلية المنطقية الأمية إلى
تكذيب الطابع عندما قدر صوره فيما سلف أن زوج ابنته لن يتقدم
على رتبة مقدم .

وعند العودة الثانية رقى عبيداً وصار ماركيزاً فطمع السيد « ديجليمون »
في أن يصل إلى الضيعة ، حيث ينتهي حكمة الخافطين وسياستهم ،
فيحيط نفسه بالرياء الذي لا يحق خلفه شيئاً ، ويصير رجلاً خطيراً
قليل الكلام مستفسراً ، وينظر إليه كرجل عميق . فإذا حصن نفسه
بلا توقف بأشكال آداب التعامل المروية بالصيغ وحفظ ترديد العبارات الجاهزة
التي تصك بانتظام في « باريس » حتى يعطى الأغنياء انكسار الصغيرة
منها كمعنى من معاني الأفكار الكبيرة أو الوقائع ، اشتهر لدى أهل
المجتمع بأنه رجل ذوق ومعرفة . وبمجرد عناده في آرائه الأرستقراطية
يوضع في قائمة أصحاب الطباع الحسنة . وإذا صار بالمصادفة غير عابئ
أو مرح ، كما كان في الأيام السالفة ، أن تكون سخافته وتفاهته في

الأحوال بالنسبة إلى الآخرين مصدر لإحاطات خُصُمية دبلوماسية :
 « أود ! ياله من رجل لا يقول إلا ما يرمى إليه . . . هكذا كان يعتقد فيه
 قوم من الفضلاء . وكانت تحبهم فضائله وعبوبه على السواء ، وكلفته
 بسائلته شهرة عسكرية عالية لا تنكر ، لأنه لم يتول قيادة رئيسية قط .
 وغير وجهه الحارم النبيل عن أفكار عريضة ، ولم تكن هيئته خادعة
 إلا في نظر زوجته . وانتهى الماركيز عند سماعه الناس جميعاً يقولون
 بمواجهته المصطنعة إلى أن اقتنع هو نفسه بأنه كان واحداً من الرجال
 المرموقين في البلاط حين عرف بفضل مفاخره كيف يحوز الرضا حتى
 صارت قيمه المختلفة مقبولة بدون معارضة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان السيد « ديجليسون » متواضعاً في
 بيته ، وأحسن فيه بغيرته بعلو شأن زوجته عليه بشك شباها . ومن هذه
 الناحية غير المتصورة تولدت قوى مستورة وجدت الماركيزة نفسها
 مرغمة على قبوطا برغم كل جهودها التي بذلتها سعى تدفع عن نفسها
 حملها . ولما كانت سديدة النصح لزوجها فقد أدارت كل دعاواه
 وكل شروائه ، وكان نفوذها ذلك ضد الطبيعة ، كما كان بالنسبة إليها
 نوعاً من التحقير ومصدر كثير من الآلام التي دفنتها في قلبها .

فأولاً وقبل كل شيء كانت غريزتها الأنثوية الرقيقة تغريها أنه
 من الأجمل أن تطيع هي رجلاً موهوباً بدلاً من أن تقتاد غيباً ، وأن
 الزوجة الشابة التي تضطر إلى التفكير والعمل على نحو ما يفعل الرجل

لا تكون رجلاً أو امرأة ، وتتخلى عن كل لطفها الجنسي حين تفقد
 شروبه . ولا تستحوذ على أي امتيازات مما أودعته القوانين في أيدي
 الأولى . لقد كان وجودها يعني هزماً مريعاً مؤكداً . لم تكن مضطرة
 إلى احترام معبود أجوف وأن تقوم هي بحماية حاميتها ذلك الكائن
 الضيق الذي قابل إخلاصها وتغانيها المستمر له بأن ألقى إليها بحب أنافي
 كعجب الأزواج ، وبأن رأى فيها امرأة وحسب ، فلم يتنازل ، أو لم يكن
 يعرف - وهي إهانة أكثر عمقاً - الاهتمام بلذائدها أو السؤال عن مصدر
 شقاؤها وذوائبها .

وقد أنفذ الماركيز حبه لذاته مثل أغلب الأزواج الذين يحسون
 بإذلال الروح العالية بأن قامس الضعف الجسمي بضعف « جولى »
 المعنوي الذي كان يستحسن الشكوى منه وهو يطالب بحساب المصير
 الذي منحه فتاة شابة مريضة كزوجة . على أي حال كان يجعل من
 نفسه التضحية وهو الجليلاد .

وكان على الماركيزة أن تظل تبتسم وهي محسلة بكل شقاء ذلك
 الوجود التعيس أمام مولاها الغني ، وأن تزين بالزهور بيتاً في حداد
 وأن تلصق السعادة إعلاناً على وجه مصفر من جراء أسرار التعذيب .
 وقد أضفت هذه المهمة الفخرية أو هذا الإنكار الذاتي الرائع على
 الماركيزة الشابة شيئاً فشيئاً وقار المرأة وشعور الفضيلة اللذين كانا
 الوقاية من أخطار الدنيا بالنسبة إليها . ونسب غور هذا القلب تماماً

فتجدد إما أن يكون الشقاء العاطفي المكون الذي توج حبها الأول الساذج كفتاة دفعها إلى أن تنظر إلى الحب نظرة فرع ، وإما أنها لم تكن قد أدركت الاثنان أو المتع المخطورة بل المتع الختوية التي تنسى بعض النساء قوانين الحكمة ويبدأن الفضيلة التي يتركز عليها المجتمع . أما وقد تخلت عن الملاحظات الخلوة والانسجام الحزن الذي وعلاها به التجربة المحزنة الخاصة بالسيدة « دى ليستمبر لاندون » فلم يبق لها إلا أن تنتظر في استسلام نهاية أيامها على أمل أن تموت شابة .

وبعد عودتها من « الثورين » أخذت صحتها في التدهور يوماً بعد يوم ، وصارت الحياة تقاس في نظرها بالعناء ، وهو عناء ظريف علاوة على ذلك ، فالمرض يكاد يكون شهرياً في مظهره ، بل يمكن أن يعد في نظر الناس السطحين مجرد وهم شابة مفرطة الباقة معجبة بذاتها . وقد حكيم الأطباء على الماركيزة بأن تغل راقدة فوق أريكة حيث أخذت تنحف وتهزل وسط الزهور التي أحاطت بها ، وهي تذهل مثلها . وامتنعت لضعفها عن الزهرة والخروج في الهواء الطلق ، ولم تكن تخرج إلا في عربة مقفلة . ولم تكن — وقد أحاطت نفسها دائماً بكل روائع الترف والصناعات الحديثة — أشبه بمرحضة بل بملكة متكاملة . وكان يحضر إليها بعض الأصدقاء ممن قد عاشقون شقاءها وضعفها متأكدين من وجودها دائماً بالبيت ، ويتفكرون بلاشك أيضاً في صحتها الجيدة المستقبلية ليحملوا إليها الأخبار ويحيطوها بالآلاف الأحداث الصغيرة

التي تجعل الحياء في « باريس » كاملة التنوع . وكان اكتسابها إذن برغم خطورتها وعمقه اكتساب الرفاهية ، إذ كانت الماركيزة « ديجليمن » شابة برهرة رائعة الحسن نخرت جلودها حشرة سوداء . وترددت أحياناً على بعض الأوساط لا عن رغبة ولكن بدافع الاستجابة لدواعي الوضع الذي كان يطمح إليه زوجها . واستطاعت بحكم صحتها وبراعتها في أداء الأغاني أن تتلقى من التصفيق ما يسبق دائماً في الغالب امرأة شابة ولكن فيم يفيد هذا النجاح الذي لم يكن يعزيها عن مشاعرها أو آمالها ؟

أما زوجها فلم يكن يحب الموسيقى ، ولذلك كانت تشعر دائماً بالخروج في الصالونات ، حيث كان جمالها يجذب إليها مظاهر مجاملات مفرضة . وأثار وضعها هناك رافة قاسية وفضولاً بالنساء . وأصابها التهاب ميث في العادة مما يقيه النساء سرّاً ولم تستطع علوم الاشتقاق القوي الحديثة أن تعثر له بعد على اسم . وعلى الرغم من الصمت الذي جعلت الحياة تتصل في إطاره فإن سبب معاناتها لم يكن سرّاً بالنسبة إلى أحد . ولما كانت قد ظلت آتمة برغم زواجها فإن أقل النظرات إليها كانت تثير فيها الحياء . وكذلك كانت تعتمد لكن تنفادي الاحمرار خجلاً ألا تظهر إلا ضاحكة مرحة . كما كانت تتكلف قسراً من الابتهاج المزيّف . وتفعل عن نفسها دائماً إنها في صحة جيدة ، أو تستدرك الأسئلة عن صحتها مقدماً ببعض الأكاذيب المحتشمة .

وبرغم ذلك شاركت حادثة في سنة ١٨١٧ مشاركة كبيرة في تعديل الحالة المزرعة التي كانت «جويل» قد تردت فيها آنذاك ، ذلك أنها رزقت بابتنة وعهدت إلى إرضاعها ، وهذه المشغوليات الشديدة ، والملاهي الملهية بالقلق التي تنشأ عن رعايات الأمومة ، جعلت حياتها أقل تعاسة مدة سنتين . وتبدأ لها الأطباء بتحسين صحتها ، ولكن الماركةيزة لم تعتمد إطلاقاً في نفاذاتهم الافتراضية ، وربما كانت ترى في الموت خاتمة سعيدة شأن كل الأشخاص الذين تصبح حياتهم خالية من أى حلاوة .

وفي أوائل سنة ١٨١٩ كانت الحياة في ذروة قسوتها بالنسبة إليها ، ففي الوقت الذي هتأت نفسها فيه بعض الهناء السلبى الذى استطاعت أن تكسبه ، استغشت هوات مفزعة ، إذ كان زوجها قد أفلح عنها رويداً رويداً ، وكان هذا البرود العاطفى الذى كان من قبل غائراً وأثلاثاً أنانية تامة قادراً على أن يؤدي إلى أكثر من كارثة مما كانت بصيرتها الحساسة وحكمها تنبأها به ، وبرغم تأكيدها من احتفاظها بسلطتها على «فيكتور» ومن أنها استحوذت على تقديره إلى الأبد ، أشقت من تأثير الأهواء على مثل هذا الرجل النافذ الأهوج المغرور ، وكثيراً ما كان أصدقاء «جويل» يفاجئونها مستسلمة لتأملات طويلة ، فكان قليلو الذكاء منهم يستفسرون عن السروهم يتضاحكون ، كأن المرأة الشابة لم تكن قادرة على أن تفكر إلا في الترقق والتهوى .

«كأنه لم يكن دائماً لأفكار ربة الأسرة أى معنى عميق . وعلاوة على هذا فالشقاء مثله مثل السعادة الحقيقية في أن كلا منهما يؤدي إلى الأحلام .

وفي إحدى المرات كانت «جويل» تلعب مع ابنتها «هيلين» فنظرت إليها نظرة مبهمة ، وكفت عن الإجابة عن أسئلتها الطفولية التي نسب للأهميات سروراً كبيراً ، لتعود بذهنها وتحاسب مصيرها في الحاضر والمستقبل . وبللت عينيها الدموع حين استعادت فجأة ذكرى مشهد العرض في حديث «الثويليرى» ، إذ دوت في أذنها مرة ثانية نبوءات أبيها ، وأنها ضحيرها على أنها لم تقدر حكمته قدرها ، فكل هذه المصائب قد نشأت عن عصيان أحمق ، وغالباً ما كانت تجهل أى هذه المصائب كلها كان أثقلها حملاً . فلم يكن حسبها أن كنوزها الحلاوة في روحها ظلت مجهولة ، وإنما لم يمكنها قط أن تجعل نفسها مفهومة لدى زوجها حتى في أبسط حوائج العيش ، وحيناً تمت ملكتها في الحب لديها ، وصارت أكثر قوة وأكثر حيوية اختفى الحب المباح أو الحب الزوجي وسط ألوان خطيرة من المعاناة الجسدية والمعنوية . ثم إنها كانت تشعر نحو زوجها بالرأفة الملاصقة للاختصار الذى يتبدل مع الزمن كل عاطفة .

على أى حال إذا لم تكن محادثاتها مع بعض الأصدقاء أو بعض مغامرات الأوساط الكبيرة قد علمتها أن الحب يجلب سعادة هائلة فإن الجروح قد جعلتها تخمن المتع العميقة البرينة التي توحد بين الأرواح

المتأخفة . وارتسم وجهه آرثر «أو» آرثير ، أبيض القلب في لوحة ، ذا كرتها
التي اختلطت الماضي كل يوم بشكل أكثر نقاء وأكثر جمالا ، ولكن
في لمح البصر ، لأنها لم تكن تجرؤ على التوقف عند تلك الذكرى .
وكان حب الشاب الإنجليزي الصامت الحجلان هو الواقعة الوحيدة
التي تركت بعض الأثر اللطيف منذ زواجها في هذا القلب المظلم
الوحيد . وكل الآمال التي خابت وكل الرغبات التي لم تتحقق مما كان
بالتدريج يزيد من تعاسة فكر «جويل» كان يذكر بلعبة طبيعية
من لعب الخيال بذلك الرجل الذي كانت طرائفه وعواطفه وطباعه
تبدو ذات تعاطف كبير مع طرائفها وعواطفها وطباعها . غير أن هذه
الفكرة كان لها دائما مظهر النزوة أو الحلم . وبعد هذا الحلم المنحجل
الذي ينتهي دائما بالتهديدات كانت «جويل» تستيقظ وهي أشد تعاسة
وتشعر بالآلام الكامنة على نحو أفضل إذا أخذت تنسيتها تحت أجنحة
سعادة وهمية .

وفي إحدى المرات أغلقت أنفها طابع الجنون والوقاحة ، فأرادت
تحقيق متعتها بأي ثمن ، ولكنها بقيت بزعم ذلك غريسة لا أدرى لأي
عصود أبله ، تصغي بلا فهم أو تدرك الأفكار غامضة بلا تحديد ،
بحيث لم تجد أي ألفاظ تستجيب بها لهذا كله . واضطرت أمام التنقيص
الذي شعرت به في إرادتها الجنون ، وفي عادات سلوكها التي كانت
تعلم بها في الزمن السالف وهي لا تزال فتاة شابة — اضطرت لإزاء

فكك كله أن تتبع دموعها . لمن تشكو ؟ ومن ذا يسمع شكواها ؟
ثم لأنها كانت تنصف بهذه الرقة الأنثوية الكبيرة وبهذا الحياء العاطفي
الساحر الذي يتمثل في إسكات الشكوى التي لا تجدى وفي عدم انتهاز
الفرص عندما يكون الانتصار مبالا لكل من الهازم والمهزوم على سواء .

لقد حاولت «جويل» أن تسخر قدرتها وفضايلها الشخصية للسيد
«ديجليمون» وتفاخرت بطعوم السعادة التي لم تلقها . واستخدمت
كل نعمتها كإمرأة في اللعب المحض بتدبيرات غير معلومة لديه حتى
إن بقي مستمرا في طغيانه . وأحيانا كان يسكرها الشقاء ، فتصبح
يعبر فكر أو ضابط . ولكنها تحسن الحظ كانت ترتد دائما إلى أمل
علوي بدافع من شفقة حقيقية . فكانت تحسن حياة مستقبل وباعتقاد
زاهر يدفعها من جديد إلى قبول مهبها المؤلمة . وكان صراعها مفرعا
كما كانت تمزقاتها الداخلية بلا أي مقفلة ، أو اكتئاباتها الطويلة
مجهولة . إذ لم يكن ثمة لسان واحد يتلقى نظراتها الحزينة ودموعها
المرة الجارية في وحدتها بلا تبصر ولا قصد .

وتكشفت أمام الماركية أخطار الموقف الحرج الذي كانت قد
يلقته شيئا فشيئا تحت تأثير الظروف بكل أخطارها في أثناء سهرة في شهر
يناير سنة ١٨٢٠ . وعندما يتعارف الزوجان تماما ويعتاد كل منهما
الأخر اعتيادا طويلا ، بحيث تستطيع المرأة أن تفسر أبسط حركات
الرجل ، وأن تنفذ إلى المشاعر أو إلى الأشياء التي يخفيها عنها ، تلعب

غالباً بعض الأتوار المفاجئة ، وتلى أفكاراً وملاحظات سابقة ، ويكون مردها إلى الصلابة أو تصدر بطريقة بدائية بغير مبالاة ، إذ تستيقظ المرأة غالباً فجأة على حافة أو في قاع حوض . وهكذا استنتجت الماركييزة — وهي سعيدة لوجودها بمفردها منذ بضعة أيام — سر وحدتها . فإن زوجها لعدم ثباته أو لتعبه وتكرمه أو لامتلائه بالشفقة نحوها لم يعد يسمى إليها .

وفي تلك اللحظة لم تعد تفكر في نفسها أو في آلامها أو في تضحياتها . لم تعد سوى أم تعيش حظ ابنها وتستقبلها وسعادتها . فابنتها هي الكائن الوحيد الذي يهبها بعض الحبور . . ابنتها « هيلين » هي وحدها التي قيدها بالحياة . الآن تريد « جولي » أن تعيش كهي تقي ابنتها الهوان الخفيف الذي تستطيع امرأة الأب أن تختفي حياة هذه المخلوقة العزيزة في ظله .

وأمام هذا التقدير الجديد لمستقبل مشغوم ابنتها تأملات متأججة من شأنها أن تلتهم سنوات برمتها . فعلى الرغم من كل شيء لا بد أن يبنها وبين زوجها عالماً من الأفكار تقع أحماله عليها بمفردها . وحتى ذلك الحين كانت واثقة من حب « فيكتور » لما يفتقر ما كان في مقدوره أن يحب ، فأخلصت لسعادة لم تكن تشارك فيها . أما اليوم فلم يعد أمامها — وقد فقدت الرضا ، لعلمها بأن دموعها كانت مصدر فرح لزوجها — إلا أن تختار الأحرار . وبوسط فتور الشجاعة

التي أرخت كل قواها في سكون الليل وصمته . . في اللحظة التي خرجت فيها أوكيتها وقد غبت نازها . . اتجهت على ضوء مصباح نحو ابنتها تتأملها بعين خالية من الدموع . . ودخل السيد « ديجليمنون » مليئاً بالمرح ، فدعته « جولي » لتأمل ابنته وهي قائمة ، غير أنه قابل تهلل زوجته بعبارة مبتذلة : في هذا السن كل الأطفال ظرفاء .

قال هذا ثم أرخت ستائر مهد ابنته بعد أن قبلها بغير مبالاة فوق جبهتها . ونظر إلى « جولي » وتناول يدها وأجلسها بالقرب منه فوق الأريكة حيث برز منذ قليل عدد كبير من الأفكار المشتتة ، وصاح بقوله في مزح ثقيل اعتادت الماركييزة أن تعرف مقدار خواته : أنت جميلة هذه الليلة ياسيدة « ديجليمنون » .

سألته الماركييزة مع تظاهرها بعدم المبالاة العميقة : أين قضيت السهرة ؟

— عند السيدة « ديسيريزي » .

وأمسك بخاجب نار المدفأة الشفاف يتضحضه ياهتمام دون أن يلحظ أثر الدموع التي ذرفتها زوجته . وارتجفت « جولي » . وما كانت اللغة لتكفي للتعبير عن دقاع الأفكار الذي أغلت من قلبها ولزمها أن تحوشه فيه .

— سوف تقيم السيدة « ديسيريزي » حفلة عزف موسيقى يوم الاثنين القادم ، وتتحرق شوقاً لكي تكوني بين مدعوها ، ويكفي أنك

لم نظهري في المجتمعات منذ وقت طويل حتى ترغب في زويتك
لديها . إنها سيدة طيبة وتحب كثيراً ، وسأكون مسروراً بأن تحضري
وكذبت أكون قد أعطيت رذاً نياة عنك ...

أجاب « جولي » : سوف أذهب .

وكان في رنة صوت الماركيزة وطمعها ونظرها شيء نقاذ
خاص بحيث الثقت « فيكتور » إلى زوجته مستغرياً برغم عدم اهتمامه .
هذا هو كل ما حدث . واستنتجت « جولي » أن السيدة « ديسيريزي »
هي المرأة التي انتزعت قلب زوجها منها . واسترخت في حلم يائس ،
وبدت مشغولة جداً بتأمل النار . وأدار « فيكتور » المحجن بين
أصابعه يادياً عليه قلق الرجل الذي يسأل إلى بيته تعب السعادة بعد
أن كان سعيداً خارجه . وعندما هاجمه الشاؤب عدة مرات أمسك
بالمصباح في إحدى يديه ويحب باليد الأخرى بفنور عن عنق زوجته
وأراد تقبيلها . ولكن « جولي » هبطت مقدمة إليه جنبها وتلقط عليها
قبلة المساء . تلك القبلة الآلية الخالية من الحب كتوع من الإرغام
الذي بدا لها بغيضاً . وعندما ألق « فيكتور » الباب انكفأت الماركيزة
فوق مقعد وترنح ساقها وسالت دموعها .

ولابد من المرور بالعذاب في موقف مماثل لكي يفهم المرء كل
ما يخفيه ذلك الموقف من آلام ، ويستنتج المألمى المريعة الطويلة التي
يؤدي إليها . هذه الأحوال البسيطة الحفقاء - وهذا الصمت بين

الزوجين ، والحركات والنظرات ، وطريقة جلوس الماركيز أمام
المدفأة ، والوضع الذي اتخذوه وهو يسعى لتقبيل عنق زوجته، كل هذا
قد أدى إلى تحويل تلك اللحظة إلى حادثة مفاجئة الحياة المثالية الموحدة
التي تعيشها « جولي » . وركعت فوق ركبتيها أمام أريكتها في حالتها
الجنونية ، وضمت وجهها في الأريكة حتى لا ترى أى شيء وتوجهت
بالصلاة إلى الله معطية أقوال أدعيها العادية لهجة عاطفية ختونا ،
ودلالة جديدة لوسمها زوجها لتطرت قلبه .

وبقيت ثمانية أيام مشغولة بمستقبلها الذي كانت تدرسه . وهي
فريسة ثقافتها ، بحثاً عن الوسائل التي تجعلها لا تخدع نفسها ،
وتسترد سلطانها على الماركيز ، وتعيش مدة طويلة تسمح لها بالسهر
على سعادة ابنتها . فصصت بالتالي على أن تنازل منافستها وعلى أن تعود
إلى الظهور في المجتمعات ، وأن تتألق فيها . كذلك صصت على أن
تظهر تكن تحب زوجها ذلك الحب الذي لم تعد قادرة على أن تحققه
له وعلى أن تأسره . ثم تدلل عليه بعد أن تخضعه لقودها بهذه الطرق
المصطنعة على نحو ما تفعل العشيقات من صاحبات الأهواء والتزوات
حين يتلذذن بتعذيب محبين . وكانت هذه الحيلة الشنيعة هي الدواء
الوحيد الممكن لشروحه . فعمل ذلك النحو ستصبح متحكممة في آلامها
وتوجهها وفقاً لرغباتها حتى تقضي عليها مع استمرارها في تدوين
زوجها وفي إخضاعه لاستبداد خفي . وما كانت لتشعر بأي تأنيب

ضئير لو فرضت عليه حياة المثقة والعذاب .

وظفرة واحدة اندفعت في ترتيبات باردة بغير اهتمام أو مبالاة .
ولكى تنفذ ابتها نصحت فجأة كل ضروب المكر والكذب لدى
الخلقوات التي لا تحب خداع الدلال الأتقوى وحيله القظيمة مما يدفع
بالرجال إلى كراهية المرأة كراهية عميقة ، لا قراضهم أن فسادها أصيل ،
وأنها مفسورة عليه . والواقع أن زهو « جولي » الأتقوى ومصلحتها
ورغبتها المهمة في التآمر لنفسها كانت كلها بغير علم منها ملائمة لحبها
الأموى كما تنفذ منه إلى طريق تنتظرها فيه آلام جديدة . غير أن
روحها كانت عادية وكان فكرها شديد الرقة ، وكانت على الخصوص
صريحة صراحة ضخمة تحول بينها وبين التوافق طويلا على هذا الغش .
ولما كانت قد اعتادت أن تراجع نفسها عند أول خطوة من خطوات
الرذيلة ، إذ كان هذا كله رذيلة ، فقد هبت صيحة ضميرها كي تختق
أنفاس الشهوات والأناية . ولاشك أن المرأة الشابة التي يبقى قلبها نقيًا
ويظل حيا عذريًا تخضع عاطفة الأمومة نفسها لديها لصوت الحياء .
أليس الحياء هو المرأة بأكملها ؟ غير أن « جولي » لم تتأ أن تسمع
أى خطر أو أى خطأ في هذه الحياة الجديدة . ودعيت إلى الاستقبال
الذي أعدته السيدة « ديسيريزى » وحسبت منافستها حساب أنها سوف
تلقى امرأة باهتة سقيمة ، فرفضت الماركيزة المساحيق الحمراء ، وظهرت
في ثألق جلبيها الذي أعطاها جمالا فوق جمال .

وكانت السيدة « ديسيريزى » واحدة من تلك النساء اللاتي يزعمن
لأنفسهن في « باريس » إمبراطورية الأزياء واجتمع . كانت تصدر
المراسيم التي كان يخيل إليها أنها تعمل بها عالميا ويؤخذ بها مجرد قبوطا
في الدائرة الضيقة لتقودها . وكانت تدعى التأليف ، فكانت بمثابة
الحكم الأعلى ، فالأدب والسياسة والرجال والنساء ... الجميع خضعوا
لرقابتها ، وبذت السيدة « ديسيريزى » كأنها تتحدى الرقابات الأخرى .
وكان بينها نموذجاً للنوع الحسن في كل شيء .

وانتصرت « جولي » على الكونيسة وسط هذه الصالونات المليئة
بالنساء الأنيقات الجميلات ، فقد كانت « جولي » ذات روح وحياء
وفشاط . دفع النخبة الممتازة من رجال السمرة إلى الالتفاف حولها .
وكانت زينها غير منتقلة مما دفع الحاضرات إلى اليأس ، وجعلهن
جميعاً يحسدنها لتفصيلتها ثوبها وشكل الصدر الذي أرجع تأثيره علامة
إلى تيوغ معين لدى خياطة مجهولة . إذ تبيل النساء إلى الاعتقاد في
علوم التسج أكثر مما يملن إلى الاعتقاد في ملاحه وكال اللاتي يفقهن
في الملامح والخلاقة .

وعندما وقعت « جولي » لتتجه نحو البياضكي تغني أغنية (ديزدلموة)^(١)
المؤثرة هرع الرجال من كل الصالونات ليصغوا إلى ذلك الصوت المشهور
الذي ظل صامتا أمدًا طويلا ، وساد بينهم صمت عميق . وأحسبت

(١) غروب بلزك هنا مثلا بكل من المليوننة وياسنا من أشهر المقربات .

الماركيزة بانفعالات شديدة عندما رأت الوجوه المسرعة نحو الأبواب وكل النظرات المتعلقة بها . وبحثت عن زوجها وصوتت نحوه نظرة مليئة بالذلال ، وتبين لها في تلك اللحظة يبلغ السرور أن رضاها عن نفسها وجوها لذاتها كانا بشكل غير عادي . وسحرت الغبتعين في أداها للجزء الأول الخاص بالمدخل ولم تكن أشهر المطربات قادرات على تشييف الأذان بالأداء الغنائي قط على هذا النحو المتكامل من الإحساس والاستهلال النغمي^(١) ولكنها عند عودتها الثانية إلى الغناء نظرت إلى الجعرجات فلمحت « أرتير » الذي لم تكن نظراته الثابتة تفارقها . فارتجعت بشدة وتبدل صوتها . فاندفعت السيدة « ديسيريزي » من مكانها نحو الماركيزة : « ماذا بك يا عزيزتي ؟ أوه يا بالصغيرة المسكينة ! إنها مريضة . لقد ارتفعت لرؤيتها شيئا أكبر من قدراتها ... »

وتوقفت الأغنية ، ولم تجد « جول » مضطربة الشجاعة للاستمرار ورضخت لرحمة منافستها الخائرة ، وهامت النساء جميعا . ويكثر التداول حول هذا الحادث استتجت الحاضرات أن الصراع قد بدأ بين الماركيزة وبين السيدة « ديسيريزي » فلم يقتصدن في الاعتاب . لقد تحققت فجأة كل المشاعر المسبقة الغريبة التي طالما أفلقت « جول » فعندما شغلها « أرتير » ارتضت أن تعتقد أن رجلا يمثل هذا المظهر الحلو الرقيق لابد أن يظل مخلصا لحبه الأول . وأحيانا كان يرضى

(١) من تأليف روسيني (١٧٩٢ - ١٨٦٨) .

غروبها أن تكون موضع هذه العاطفة الجميلة .. هذه العاطفة النقية الصادقة التي تصدر عن شاب تنتمى كل أفكاره إلى حبيبة قلبه ، وتتوقف كل دقائق حياته عليها ، وهو فوق ذلك لا يهدف إلى مجرد التحليل ويمر وجهه خجلا لما تخمر له خجلا وتجتا امرأة بل يفكر كما تفكر المرأة نفسها ، فلا يضع أمامها أى منافسة لها ، ويبه نفسه لها دون أن يحلم بأى طموح أو مجد أو ثروة .

كانت قد قدرت كل هذا عن « أرتير » في جنون وشهوة فكر ، ثم فجأة اعتقدت أنها شهدت تحقيق هذا التقدير أو هذا الحلم . فقد قرأت على وجه الشاب الإنجليزي المائل إلى الأمية تقريبا كل الأفكار العنيفة وكل الاكتشافات الرقيقة والاستسلامات المؤلمة التي كانت هي نفسها ضحية لها . لقد عرفت نفسها فيه . فانشقاء والاكتئاب هما أباغ مفسرين للحب ، ويتناظران بين كائنين متماثلين في سرعة لا تصدق ، والنظرة الحنون وتلاقح الأشياء أو الأفكار عندهما تام وصحيح . بل إن عنف الصدمة التي تلقىها الماركيزة قد كشفت لها عن كل أخطار المستقبل . فإن سعادتها الكبيرة بالثور على مسوغ لاخطرابها وانتقامها من حالها المعتادة إلى الألم قد جعلتها تستسلم عن طيب خاطر لثقل رافة السيدة « ديسيريزي » الحاذقة . وكان توقف الأغاني حديثا يحدث بشأنه أشخاص كثيرون على أنحاء مختلفة . فقد كان البعض يأسف لمصير « جول » ويشنكى من فقدان المجتمع لامرأة على هذا القدر من الامتياز . وكان

الآخرون يريدون معرفة سبب هذه الآلام وسبب العزلة التي حاصرت تعيش فيها .

وقال الماركيز لشقيق السيدة « سيسيريزى » : هيه ، والآن يا عزيزى « رونكيرول » لقد كنت تحسد سعادتى عند رؤيتك للسيدة « ديجليمون » وكنت تتأخلف على خدم وقاتى لها ؟ هالك إذن ، وسوف تجد مصرى شيئاً لا أعيط عليه لو بقيت مثلى إلى جوار زوجة جميلة مدة سنة أو سنتين بغير أن تجرؤ على تقبيل يدها خشية خدشها وتكسیرها . فلا تنحير أبداً أمام هذه الحل الرقيقة التي لا تصالح إلا من وراء لوح زجاج والتي تفرض علينا هشاشتها ونفاسها معاً احترامها دوماً . هل تطلق أنت فورك الجميل الذى تخشى عليه - كما قيل - تحت المطر المنهر والتلج ؟ تلك قصتي . من الحق أنى واثق من فضيلة زوجتى ، ولكن زواجى نوع من الترف ، ومن الخطأ أن تحسبى متزوجة . وهكذا تكون خياناتى مشروعة بشكل من الأشكال . ولكم وددت أن أعرف كيف كنتم تنصرفون فى مكائى أبا السادة الضاحكون ؟ وما كان الكثيرون من الرجال ليلعبوا درجة التحفظ والتحرز التي بلغت فيها يتعلق بزوجتى .

وأضاف الماركيز بصوت منخفض بل إنى متأكد أن السيدة « ديجليمون » ليس لديها أدنى شك . ومن المؤكد أيضاً أنى غطيت جداً فى شكواى ، وإنى غاية فى السعادة ... غير أنه لا شئ يضايق

الإنسان الحساس أكثر من أن يرى مخلوقاً مسكيناً تعلق به بتعذب ...
أجاب السيد دى رونكيرول : « فأنت إذن ذو حساسية كبيرة لأنك قليلاً ما توجد فى بيتك » .

فأثارت هذه العبارة اللاذعة غير العذائية كل المستمعين . غير أن « أرتيزه » بقى جامداً ثابت الجنان كرجل مهذب اتخذ الجدية أساساً لطبعه . ولقد أدت أقوال الزوج الغريبة بلا شك إلى التماس بعض الآمال لدى الشاب الإنجليزي الذى انتظر صابراً لحظة انفراده وحده بالسيد « ديجليمون » حتى واثته المناسبة بعد قليل ، فقال له : سيدى لأننى أتألم ألماً بالغاً لمأى حالة السيدة الماركيزة ، وأعتقد أنك ما كنت لتفرح فيها بتعلق بالأمها لو كنت تعلم أنها قد تموت موتاً تقيماً خطأ فى نظامها الخاص . وإذا كنت أتكلم معك على هذا النحو فعلى أساس أن تقبلى من قدرى على إنقاذ السيدة « ديجليمون » وعلى ردها إلى الحياة وإلى السعادة تبيع لى ذلك . ومن غير الطبيعى أن يصبح رجل فى مثل رتبتي طبيباً ... وعلى الرغم من ذلك شامت الصدقة أن أقوم بدراسة الطب . والواقع أنى غير مرتاح (قال هذا وهو يتكلف نوعاً من الأنانية الباردة التي نخدم أغراضه) لأن أرى نفسى غير مهمم ببذل وقى ورحلاتى فى سبيل مريض يتألم بدلا من إرضاء بعض نزواتى الخيالية البلهاء . والشفاء من هذه الأنواع من المرض نادر لأنه يستلزم كثيراً جداً من العناية والوقت والصبر . ومن الضرورى خصوصاً

توافر المال والحلات. ومتابعة التعليمات التي تتغير من يوم إلى آخر
والتي لا تنسم بالإكراه بدقة متناهية. ونحن الاثنان رجلان من عليّة
القوم (قال ذلك وهو يضغط على هذه الكلمة بمعنى الجنتلمانية
الإنجليزية) وتستطيع التفاهم. وأخطرك بأذلك إذا قبلت هذا العرض
فتكون في كل لحظة صاحب الحكم على سلوكي، ولن أشرع في
شيء دون استشارتك وبغير ملاحظتك. وأؤكد لك النجاح إذا وافقت
على أن تطيعني. نعم.. أي إذا شئت أن تكف أثناء مدة طويلة
عن أن تكون زوج السيدة، ديجليسون (هكذا قال له في أذنه).

قال الماركيز ضاحكاً: «من المؤكد يا سيدى اللورد أن إنجليزيّاً
هو الذي يستطيع أن يعرض على مثل هذا الاقتراح الغريب. واسمع
لي يالاً أرفضه وبالأأويده. سأفكر في الأمر. ثم إنه لايد أن يعرض
قبل كل شيء على زوجتي».

وفي تلك اللحظة ظهرت «جولي» مرة أخرى على البيانو. وغنت لمن
«سيراميس» وملكتها وحروبها^(١). وكان التصفيق الإجماعي،
أو التصفيق الأصم إن صح هذا التعبير، والحنافات المهذبة الخاصة
بني (سان جيرمان) دليلاً على الحماس الذي استثارته.

وبمجرد عودة «ديجليسون» في صفة زوجته إلى قصرهما استطاعت
«جولي» أن تلحظ بشيء من السرور المخوف سرعة نجاح محاولاتها.

(١) من تأليف روسيني أيضاً الذي اشتهر بالإوبرا ابتداء من سنة ١٨١٠.

فكانما استيقظ زوجها من سباته تحت تأثير الدور الذي لعبته منذ
قليل، وأراد تهجيلها بإجلى النزوات، فلتاها بشغف ورغبة كما
لو كان مع إحدى الممثلات. ولم تستنكر «جولي» معاملتها على ذلك
النحو برغم كونها زوجة فاضلة. وبادرت إلى التلاعب بكل قولها،
وفي أول النزاع دفعها طبيبتها إلى أن تحس مرة أخرى غير أن تلك المرة
كانت أشد الدروس التي تلقها هولاً من بين كل ما اعتلأ به مصيرها.

ففي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً كانت «جولي» في جلستها قائمة
حاملة في سرير الزوجية. وقد أضاء الغرفة إضاءة خفيفة مصباح
قو وهج ضعيف، وساد صمت عميق. وأخذت الماركيزة منذ حوالي
الساعة - وقد استسلمت لتوحزات تبيكت التضمير - تذرف دموعاً
لا تعرف مزارتها سوى النساء اللاتي عشن في مثل موقفها، وكان ينبغي
أن يكون للسرة روح كروح «جولي» كي يشعر مثلها بالاشمئزاز
من التقارب والتلاصق المحسوب بقدر، ولكي تجد نفسها مغموسة
من جراء قبلة فاترة، فذاك جسد في القلب زادت وطأته بفعل غياب
مولم. وشعرت بوضاعة نفسها، ولعبت الزواج، وودت لو أنها ماتت،
ولولا صيحة بكاء طفلها حينذاك لكانت قد عجلت بإلقاء نفسها
من الشباك إلى أرض الطريق. وكان السيد «ديجليسون» تأملاً بجوارها
في هدوء دون أن يوظفه الدموع الدافقة التي تركتها زوجته تنساقط
عليه.

وظهرت «جويل» في اليوم التالي مبتهجة ، وأعاتبها قواها على أن تبدو سعيدة ، وعلى أن تخفى ، لا اكتئابها وحسب ، بل إهانة واشمئزازاً لا يقاومان . فبعد ذلك اليوم صارت تنظر إلى نفسها كامرأة لا لوم عليها ولا تثريب . ألم تكذب على نفسها ؟ فكانت منذ ذلك الوقت قادرة على الرياء ؟ وعلى أن تمنع فيها بعد إعانتها منه لافاق الذنوب الزوجية ؟

لقد كان زواجها سبب هذه الدعارة «القتيلية» أي «الفطرية» التي لم تلق ما تباشر نفسها فيه أو ما تتحقق في أذاته ورغم ذلك تسامت سلفاً عن سبب مقاومتها لعاشق تحبه ، حين كانت تهب نفسها لزوج بغض ، معارضة بذلك قلبها ودعاء الطبيعة . ولعل كل الأخطاء والجرائم إنما تقوم على مبدأ من الاستدلال السيئ أو من بعض مبالغات الأنانية ، ولا تستطيع المجتمعات أن تقوم إلا على التضحيات الفردية التي تفرسها القوانين . ألا يعنى قبول فوائدها الالتزام بالمحافظة على شروطها التي تدفع إلى دوامها ؟

والواقع أن الأنبياء الذين لا يجدون الخير والذين يضطرون إلى احترام الملكية لا يستحقون الرثاء والعطف أكثر من النساء المجروحات في رغباتهن ويوظفن في رهاقة طبيعتهن .

وبعد ذلك المشهد بأيام .. ذلك المشهد الذي دفنت أسمره في سرير الزوجية . . . قادم السيد «ديجايمون» لورد «جرينفيل» إلى زوجته ، واستقبلت «جويل» «أرثير» في أدب خال من الحرارة بحيث

أوصت رياءها ، وفرضت الصمت على قلبها اكتفاء بعينها ، وجعلت صوبها ثابتاً ، واستطاعت بذلك أن تظل سيدة مستقبليها . ثم بعد أن تعرفت السيدة «ديجايمون» برسائلها الفطرية التي تتميز بها النساء عادة ، إن صح هذا التعبير على مدى الحب الذي أوجته ، ابتسمت للأمل في شفاء سريع ، ولم تعارض المقاومة لإرادة زوجها الذي اعتسف من أجل قبولها أن تصبح في رعاية الطبيب الشاب . وعلى الرغم من ذلك لم تشأ أن تظمن إلى اللورد «جرينفيل» إلا بعد أن درست أقواله وطرائقه كي تتأكد من أنه سيكون من الأريحية بحيث يعانى في صمت . وكان لها عليه أكبر سيطرة وبدأت سلفاً تستفيد من ذلك . أليست امرأة ؟

و«مونكوتو» اسم قصر إقطاعي قديم قائم على إحدى الصخور الذهبية اللين التي يمر تحتها نهر «الاور» على بعد قليل من الموقع الذي توقفت فيه «جويل» سنة ١٨١٤ . إنه واحد من تلك القصور الصغيرة في مقاطعة «التورين» البيضاء الجميلة ذات الأبراج المليئة بالتفاصيل والمطرزة كنسيج «الدنيل» من صنع «مالين» أو أحد هذه القصور اللطيفة الأنيقة التي اتخذت مكانها في مياه النهر بجملة غاباتها الصغيرة من شجر التوت ومن الكروم وطرقها المحفورة ودياريزنتها الطويلة البارزة وكهوفها الصخرية وأغطيها من البلابل وتحدراتها الوعرة . وكانت أسقف سطوح قصر «مونكوتو» تتألق تحت أشعة الشمس كما كان

كل شيء هنالك مضطرباً . ويثير ملامح الشاعرية في تلك المرعة الساحرة ما يقرب من ألف أثر من آثار إسبانيا وبقيائها : أشجار «الوزال» الذهبية والزهور «ذات الجريس» التي تملأ برائحها النسيم ، والمراء رقيق الملامسة ، كما أن الأرض تنسم في كل مكان ، وتحيط بالروح في كل مكان أيضاً وفي سحرية حلوة ، فتجعلها كسولا عاشقة وتريحها وتهدئها . ومن طبيعة هذا الإقليم الجميل الحلو أن ينجم الكوجاع ويرقق الشهوات ، فلا يبقى أحد بارداً تحت هذه السماء النقية وأمام هذه المياه البراقة . وهنالك يحنق كل طموح ، ويرقد المرء وسط سعادة هادئة تماماً ، كما تغرب الشمس كل مساء في أقمطة ولقائف أرجوانية وزرقاء .

في ليلة رقيقة من ليالي شهر أغسطس سنة ١٨٢١ كان شخصان يتساقان الطرق المبلوعة بالأحجار التي تمرق في الصخور المقام فوقها القصر . وكان الشخصان يتجهان نحو المرتفعات كي يتأملوا بإعجاب بلا شك مناحي النظر العديدة التي يمكن اكتشافها هنالك . وكان هذان الشخصان هما «جولي» ولورث «جرينفيل» ولكن «جولي» هذه قد صارت تبدو كما لو كانت امرأة جديدة ، وكانت الماركيزة تتمتع بألوان الصحة الزاهية ، وكانت عيناها اللتان أحبهما قوة خصية تلمعان خلال ضباب رطب أشبه بالسائل الذي يعطي عيون الأطفال مقائن لا تقاوم ، وكانت تنسم بملء شفتيها ، وبدت سعيدة بالحياة وقد أدركت

كنهها وكان من السهل أن يرى المرء من طريقها في رفع قدميها النظريتين أنه لا ينقل حركاتها البسيطة ، ولا يضئ نظراتها أو أقوالها أو إشاراتها أي ألم على نحو ماكان في الماضي . بل كانت «جولي» هذه تشبه تحت مظلتها الحورية البيضاء التي حتمها من أشعة الشمس الحامية عروساً في غلاتها أو عذراء مستعدة إلى الاستسلام لنشوات الحب .

واستطاع «آرتير» أن يقودها بعناية العاشق ، وأن يرشدها كما ترشد الطفل ، فيوجهها نحو أفضل الطرق ، ويساعدها على تفادي الأحجار ، ثم يريها منظرًا بين تلال ، أو يصحبها أمام زهرة . وهو إذ يفعل ذلك ، يحركه دائماً شعور مستسر بالغبية . وقصد رقيق ، ومعرفته حنون يعيش تلك المرأة الرعيد ، كأنها مشاعر فطرية عنده تناسب ، وقد تزيد قليلاً ، على حركة وجوده الخاص الضروري . وبضت المريضة . وطبيها متعادلي الخطوات ، دون أن يستغريا توافقاً بدا كما لو كان قد وجد منذ أول يوم صارا يعيشان فيه جنباً إلى جنب . فيهما يطيعان نفس الإرادة ، ويتوقفان بانطباعات عين الإحساسات ، وتجاوبت نظراتهما وأقوالهما مع أفكارهما المتبادلة .

وعندها بلغا كلاهما أعلى الكومة آزادا أن يستريحا على أحد هذه الأحجار الطويلة البيضاء التي تبرز باستمرار من كهوف مفتوحة في الصخر . غير أن «جولي» نظرت إلى الموقع تتأمله قبل أن تجلس هنالك .

أمرأة في الثلاثين

قالت « جويل » : هذا الإقليم رائع فلننصب خيمة ولنقم هنا .
يا « فيكتور » علم إذن .. علم إذن !

وأجاب السيد « ديجليسون » من المتخفي بصيحة رجال الصيد دون أن يسرع الخطر ، ولكنه اكتفى بالنظر نحو زوجته من وقت لآخر كلما سمحت له بذلك انعطافات الطريق الضيق . واستشقت « جويل » الهواء بلذة في أثناء رفع رأسها ، وهي تلتقي إلى « آرثر » بإحدى نظراتها الدقيقة التي تقول بها النساء الذكيات كل أفكارهن .

عاشت « جويل » تتكلم : أوه ! كم أود أن أبقى هنا دائماً . هل يمكن أن يتعب المرء من تأمل هذا الوادي الجميل ؟ هل تعرف اسم هذا النهر الجميل ياسيدي اللورد ؟

— هذا نهر « الشير » .

— « نهر » الشير » وهناك أمامنا ... ما ذاك ؟

تلك ثلاث نهر « الشير »

— وإلى اليمين ؟ آه ! هذه مدينة « تور » ، ما أروع ذلك الأثر الذي تحدثه عن بعد أبراج أجرامس الكاتدرائيات .

ثم صممت وتركت يدها التي كانت قد مدتها نحو المدينة تهبط فوق يد « آرثر » وتأمل كلاهما بإعجاب صامت ذلك المنظر وتلك الطبيعة ذات الروائع المنسجمة . وتم التوافق التام بين همس المياه وتقاق الهواء

وسفاه السماء ، وبين الأفكار التي خطرت مزحمة في قلوبهما العاشقين الشابين .

— أوه ! يا إلهي ، كم ذا أحب هذا الإقليم .

قالت « جويل » بعد براءة صمت ، وفي خيالي ماذج متزايد « هل أعشت فيه طويلاً ؟ »

ارتعد لورد « جرينفيل » عند سماع هذه الكلمات وأجاب باكتئاب وهو يشير إلى حزمة من أشجار الجوز ، على حافة الطريق : « هناك كنت أميراً وأرأيتك لأول مرة .. » .

نعم . ولكنني كنت حزيناً جداً وبدأت لي هذه الطبيعة وحشية : أما الآن ...

وسكنت فلم يجرؤ لورد « جرينفيل » على أن ينظر إليها .

قالت « جويل » في النهاية بعد صمت طويل : « يرجع إليك الفضل في هذا الاستمتاع . أليس من الضروري أن يكون المرء حياً كي يجد كل هذه المتع في الحياة ، أو لم أكن أسوأ ميتة بالنسبة إلى كل شيء حتى الآن ؟ لقد وهبني أكثر من الصحة إذ علمتني كيف أشعر بقيمتها ... »

وتساءل مواهب لا مثيل لها في تعبيرهن عن مشاعرهن دون استخدام أقوال كثيرة عالية الرنين ، فبلاغتهن تسري في التهجئة خصوصاً وفي الحركة الوضع والنظرات ، وأخفى اللورد « جرينفيل » رأسه بين يديه لأن

الدموع تدحرجت في عينيه . وكان هذا الشكر أول شكر تؤديه « جويل » له منذ ارتحالها عن « باريس » وقد عالج الماركيزة منذ سنة كاملة بإخلاص وفنن كاملين . أيده « ديجليرون » فصحبها إلى مياه « إلكس » ثم إلى شواطئ البحر من ناحية « الرشيل » وظل يقرب في كل لحظة التغيرات التي أحدثتها أوامره الحسنة البسيطة في بناء « جويل » البدني المهتم ، كما ظل يتعهد كما يتعهد البستاني المشغوف زهرة قاهرة . وعمدت الماركيزة . إلى تلقي عناية « أرتير » الواعية بكل أنانية المرأة الباريسية التي اعتادت التكريم والاحترام . . أو تلغصها بلا مبالاة مثل لا مبالاة سيدة البلاط التي لا تعرف قدر الأشياء أو قيم الرجال . وتأخذهم وفقاً للدرجة القائمة العائدة عليها منهم . ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة التأثير الذي تحدثه الأماكن في الروح . وإذا كان الاكتئاب يتسببنا دون أن نخطئ اهدف عندما نكون على شواطئ البحار . فإن قانوناً آخر من قوانين طبيعتنا الانطباعية يؤدي إلى تنقية عواطفنا فوق الجبال . ذلك أن الشهوة تسولي هنالك استبلاء عميقاً على ما تهبو كأنها تفقده من حيث النشاط .

وأشاع مشهد حوض « الوار » القسيح وارتفاع الثل البديع الذي كان العاشقان يجلسان فوقه في نفسيهما هبوطاً لذيذاً ذاقا خلاله أول الأمر تلك السعادة التي يحسها العشاق في تخمين أبعاد العواطف القوية التي تخفى وراء أقوال ليس في مظهرها دلالة خاصة .

وما إن ختمت « جويل » عبارتها التي حركت انفعالات لورد « جرينفيل » تحريكاً قوياً حتى هزت نسمة عاصفة قمة الأشجار ، وأشاعت نضارة المياه في الهواء . وحجبت بعض السحب الشمس ، وأناحت بعض الظلال الثابتة رؤية كل روائع تلك الطبيعة الندية . وأدارت « جويل » رأسها كحي تخفى عن اللورد الشاب منظر الدموع التي لجمت في حبسها وتحفيتها ، لأن جنو « أرتير » تملكها بسرعة خاطفة . ولم تجرؤ على أن ترفع عينها نحوه خوفاً من أن يقرأ فرحة كبيرة في نظرها . وأشعرتها غريزتها كأمراة بأنه من الضروري في تلك اللحظة الخطرة أن تدفن حبها في قاع قلبها . وبزغم ذلك يستطيع الصنّيع أيضاً أن يكون رهيباً .

وعندما انتهت « جويل » إلى أن اللورد « جرينفيل » كان في حالة لا تسمح له بنبط قول واحد عادت كلامها بصوت عذب قائلة :

« لقد تأثرت بما قلته لك يا سيدي اللورد . ولعل إظهار أسرار القلب فيما يشبه الصباح هو الطريقة التي تتخذها روح لطيفة وطيبة مثل روحك عندما تتراجع عن حكم خاطئ . لقد اعتقدت أنني بحاجة للجميل عندما رأيته باردة محتفظة أو ساخرة وفاترة الحسن في أثناء هذه الرحلة التي سرعان ما سوف تنهى لحظ . وما كنت جديرة بتقبل عنايتك لو لم أكن قاهرة على تقديرها . إنني لم أنس شيئاً يا سيدي اللورد . وأأسفاه ! ولن أنسى شيئاً ... لا الاهتمام الذي بذلته في

المهر على كاهنهم أم روم بابها . ولا الثقة النبيلة على الخصوص في معادتنا الأخوية ورقة لإجراءك . وكلها إغراءات تجد أنفسنا جميعاً أمامها بلا أسلحة . ياسيدى اللورد إنه أكبر من طاقتي أن أكافئك .. »
وعند قولها ذلك ابتعدت « جولى » بقوة ، ولم يبق لورد « جرينفيل » بأى حركة لوقفها . وانتهت الماركة نحو خضرة على بعد بسيط . وبقيت هنالك ساكنة . وكانت انفعالاتها سرّاً بينهما ، ولاشك أنهما كانا يميكان صامتين . ولعل زققة العصفير المرحّة المتزايدة المعبرة تعبيراً دقيقاً عن غروب الشمس كانت سبباً في زيادة تأثيرها الشديد العنيف الذى أرغمهما على التبعاد . وأخذت الطبيعة على عاطفها أن تعبر لهما عن الحب الذى لم يجرؤا على الكلام عنه .

قالت « جولى » مرة أخرى وهي تقف أمامه في وضع ملء بالاحترام سمح لها بأن تمسك يد « أرتير » : هيه ، حسن يا سيدى اللورد .. سوف أطلب منك أن تجعل الحداثة التى أعدتها لى نقيّة ظاهرة . وهنا سوف نفرق . أنا أعرف ...

ثم قالت وهي ترى وجه لورد « جرينفيل » بصقراً : إنه مكافأة لك على تضحيتك سأفرض عليك أيضاً تضحية أكبر من تلك التى كان على أن أعترف بها أكثر من سواها .. ولكن يجب ... لن نبقى في فرنسا أليس في طلب هذا منك إعطائك من الحقوق ما سوف يصبح مقدساً ؟ ثم وضعت يد الرجل الشاب فوق قلبها السريع الضربات .

قال « أرتير » وهو يهض من مكانه : « فعلاً » .

وأشار في تلك اللحظة إلى « ديجليسون » الذى كان يمسك بآبته بين ذراعيه ، وقد ظهر من الناحية الأخرى من الطريق المحصور الجاور للرايزين القصر . وكان قد تسلقه خصصاً ليجمع أبنه الصغيرة « هيلين » تقف من فوقه .

— « جولى » لن أحدثك عن حبي . فروحنا تفهم إحداهما الأخرى أكثر مما يلزم . وأياً تكن أعماق أو أسرار للدائد قلبى ومنعه فقد شاركته فيها جميعاً . لئنى أحس هذا الحب وأعرفه وأراه . ولأن أسلم الدليل الجميل المذاق على تعاطف قلبيتنا تعاطفاً دائماً ، ولكننى أولى الأدبار .. لقد حسبت عدة مرات بيراعة وسائل قتل ذلك الرجل كما أستطيع أن أقاوم قتله دائماً إذا بقيت إلى جوارك .

— لقد خطرت في ذهني عين الفكرة . قالت ذلك وعلى وجهها المضطرب تبدو علامات الدهشة الأنيمة .

ولكنها كانت ذات فضيلة حسنة ، ويقين شديد بنفسها ، وانتمصارات عديدة أحرزتها على الحب سرّاً في اللهجة والحركة اللتين بشرتا منها ، حتى ظل لورد « جرينفيل » مأخوذاً بالإعجاب ، فقد كان ظل الجريئة نفسه قد تلاشى في ذلك الضمير الساذج . وسيطرت عاطفة دينية على ذلك الحبين الرائع الحسن ، فاستطاعت أن تطرد منها دائماً الأفكار الخبيثة غير الإرادية التى تولدها عادة طبيعتنا

القاصرة ، وتدل برغم ذلك على عظيمة مصيرنا وأخطاره .

وعندئذ كنت سأعرض لاحتقارك ، ولكنه صار منقذى .

وعاد يقول وهو يخفض عينيه : « أليس فقدان تقديرك هو الموت

بعينه ؟ »

وظل هذان العاشقان البطوليان صامتين بعض الوقت أيضاً وبقيا مشغولين بالتهام أوجاعهما الحسنة والسنة على السواء ، وكانت أفكارهما بإخلاص عين الأفكار عند كل منهما ، ولعلهما كانا يتفاهمان في متعهما الذاتية تماماً على نحو ما يتفاهمان في أكثر الآلهما خفاء .

قالت وهي ترفع عينها المليئين بالدموع نحو السماء : « لا ينبغي أن أحمس . وشقائي في حياتي هو بعض ما يخصني » .

صباح اللواء من مكانه وهو يقوم ببعض الحركات : ياسيدى اللورد : لقد التقينا في هذا المكان نفسه لأول مرة ، وقد لا تذكر أتت ذلك . هناك في المنحدر بالقرب من أشجار الحور « تلك » . وأجاب الإنجليزي بإمالة مفاجئة من رأسه .

وقالت « جويل » لقد كان ينبغي لي أن أموت شابة شقية . نعم ؛ إذ يجب ألا تعتقد أنني أعيش . وسوف يكون الحزن مميتاً بنفس درجة المرض اللعين الذى شقيتني منه . ولا أرى نفسى مذنبه . لا .. فالعواطف التى حملتها لك لا تقاوم ولا تنفى ، ولكنها غير إرادية بالمرء ، وأود البقاء عفيفة . وبرغم ذلك سأظل مخلصاً لضميرى كزوجة .

ولواجباتي كأُم ، وكذلك لأمنيات قلبي . اصغ إلى ..

وقالت « جويل » ذلك له بصوت مضطرب : « لن أعيد أنتنى إلى ذلك الرجل بحال » وأثارت إلى زوجها فى حركة مخيفة من الفرع المزوج بالصدق . واستمرت تقول :

— تفرض على قوانين المجتمع أن أجعل وحيده سعيداً وسوف أطيع ذلك . سأكون خادمتة . وستكون تصحيتي من أجله غير محدودة بخدود . غير أنى سأكون أرملة منذ اليوم . ولا أريد أن أكون عاهرة فى نظر نفسى أو فى نظر المجتمع . وإذا لم أعد أنتنى إلى السيد « ديجلبسون » قلن أنتنى أبداً إلى سواه . ولن تحظى أنت بأكثر مما انتزعت مني . وهذا قرار اتخذته على نفسى . قالت ذلك وهي تنظر إلى « آرثير » فى خيلاء . واستطردت : وهو قرار لا رجعة فيه ياسيدى اللورد . والآن أعلم أنك إذا استسلمت لفكرة إجرامية فسوف تسخل أرملة السيد « ديجلبسون » النير فى إيطاليا أو فى إسبانيا . لقد شاء سوء الحظ أن نتحدث عن غرامنا . ولعل هذه الاعتراضات كانت فى حكم المقهور . ولا كان ذلك لأخبر مرة فقد اهتزت قلوبنا اهتزازاً شديداً . وسوف تتظاهر غداً بتلقى رسالة تستدعيك إلى إنجلترا وستفترق على ألا نلتقى .

وبرغم ذلك فقد أحست « جويل » بعد أن أرهفها المجهود بركبتها تنهيناً . وتملكها برد قاتل وجلست بدافع من فكرة نسائية بحثة كجا تنفادى الارتقاء فى أحضان « آرثير » .

صاح لورد « جرينفيل » : « جويل » .

ودوت هذه الصيحة النافذة كأنه نذار الورد . وباحت تلك الصرخة المزعقة بكل مالم يقله العاشق الذى ظل صامتاً حتى آنذ .

سأل اللواء : « هيه .. إذن ... ماذا بها ؟ »

وعند سماع هذه الصرخة أسرع الماركيز الخطو . ووجد نفسه فجأة أمام العاشقين .

قالت « جويل » : وهى محتفظة بالدم البارد على نحو رائع مما تسمح نعمة النساء الطبيعية غن به فى أغلب أوقات الأزمات العصبية فى الحياة : « لا شيء فى الأمر .. لقد كادت نضارة شجرة الجوز هذه تنفقدنى الوعى مما أزعج طبيبى المعالج خوفاً . ألسن بالنسبة إليه مثل العمل الفنى الذى لم يكتمل بعد ؟ لقد ارتعد أمام رؤيته ينهدم .. »

واستندت فى جراحة إلى ذراع لورد « جرينفيل » وابتنست إلى زوجها ونظرت إلى المنظر قبل أن تغادر قمة الصخور وجذبت رفيق رحلتها وهى تأخذ بيده .

قالت « جويل » : هالك بالتأكيد أجمل موقع رأيته . ولئن أنساه إطلاقاً . انظر إذن يا « فيكتور » أى أبعاد مرامية . وأى مساحات شاسعة . وأى تنوع واختلاف . هذا الإقليم يجعلنى أفهم الحب . وصدرت منها ضحكة تكاد تكون مخلجة . ولكنها استوفت أدامها حتى تخلص زوجها . وقفزت تعدو بمرح فى الطرق المحفورة واختفت .

قالت وقد اجتهدت عن السيد « ديجايمون » : « هيه .. ماذا .. الآن ؟ هيه .. ماذا يا صديق ؟ بعد لحظة لا نكون نحن أنفسنا ولن تصبح أنفسنا إطلاقاً . أى أننا لن نعيش بعد اليوم .. »

أجاب لورد « جرينفيل » : « هيا يبطء فالعربات لا تزال على مبعدة من هنا . سوف نمشى معاً . وإذا كان مباحاً لنا أن نثبت نظراتنا بعض أحوالنا سوف نحيا قلوبنا لحظة أطول ... »

ودها يتزهان فوق السد على حافة الماء فى آخر النهار صامتتين تقريباً لا يتطلقان إلا بعبارات مبهمه حلوة كهمس مياه نهر « اللوار » ولكنها تحرك النفوس . وعندما غابت الشمس لفتها جميعاً فى انعكاساتها الحمراء قبل أن تزول كصورة أسيانة لحيهما المقدور .

وتخوف اللواء من عدم العثور على العربة فى المكان الذى كانت واقفة فيه . فتبع العاشقين أوسبقهما دون أن يتدخل فى محادثتهما . وقد حطم سلوك اللورد « جرينفيل » النبيل الرقيق الذى احتفظ به خلال الرحلة كل وساوس الماركيز وشكوكه فترك زوجته حرة منذ بعض الوقت واثقاً من حسن النية لدى الطبيب اللورد . وبغضت « جويل » و « آرثير » وجعلاً يتشيان فى ظل الاتفاق الحزين المؤلم بين قلبيهما اللذيلين . ومنذ هنيهة حين كانا يصعدان خلال المتحدر الوعر لتقصر « مونكورنور » كان لديهما أمل غامض منهم وسعادة مشفقة ولم يكونا يجرؤان على الاستفسار عن مؤداهما . أما وقد عادا يهبطان على

طول السد فقد قلبا البناء الواهي الذي شيدته خيالهما . ولم يعودا يجرؤان على إظهاره مثل الأطفال الذين يتوقعون سلفاً سقوط القصور التي يقيمونها من الورق المقوى . كأننا بغير أمل . وفي نفس الليلة رحل لورد « جريفيل » . وأثبتت آخر نظرة أني بها نحو « جويل » لسوء الحظ أنه كان على حق في التحرز من نفسه منذ اللحظة التي بدأ التعاطف يكشف لها مدى العشق الخاف الذي كان يكمن في قلبيهما .

وحينما جلس السيد « ديجليسون » وزوجته في اليوم التالي في داخل العربة بغير رفيق رحلتهم ، وأخذوا يشقان الطريق في سرعة . تذكرت « جويل » الرحلة التي قطعنها مع الماركيز سنة ١٨١٤ : عندما كانت لا تزال تجهل الحب . وكادت تلعن استمراره حينذاك في فؤادها ثم تدافعت آلاف الانطباعات المنسية . فالتفت له ذاكرته الخاصة به . وبمثل تلك المرأة التي لا تقوى على تذكر الأحداث الجسام سوف تتذكر طول حياتها أشياء تهم عواطفها . كذلك كانت « جويل » تتذكر التفاصيل النافذة تذكرها كاملاً ، وتعرفت بسعادة على أبسط الأحداث التي اعترضت رحلتها الأولى إلى حد تذكرها بعض الأفكار التي خطرت على بالها عند مواقع معينة في الطريق .

ولما كان « فيكتور » قد عاد يعشق زوجته بشغف منذ استردت نصارة شبابها وكل جملها ، فقد جاء يدنو منها على طريقة الحيين . وبمجرد سعيه لأخذها بين ذراعيه انسحبت بروقة وتعللت بأى عذر

لكي تتحاشى تلك الملازمة المبرمة . ثم سرعان ما انشأرت من الاحتكاك به يرغم أنها كانت تحس بخبراته وتشارك فيها بحكم الطريقة التي جلسا بها . وأرادت أن تجلس بتأريدها في مقدم العربة فأبدي زوجها كبراً وتركتها وحدها في أقصى العربة ، وشكرته لهذا اللطافات في تهدد لم يرعه انتباهها . وفي آخر النهار اضطرها « فانت » الحرس العسكري ذلك إلى أن تتحدث معه بنبات أربه بعد أن كان قد راح يقسم اكتسابها في مصلحته .

وقالت له : « يا صديق ، لقد كذبت أن تقتلي سلفاً . وأنت تعرف ذلك . وإذا كنت الآن فتاة شابة بلا تجربة في استطاعتي أن أبدأ من جديد التضحية بحياتي . ولكنني أم الآن . ولدي ابنة يجب أن أربيها وأدين لها بقدر ما أدين لك . فلنخضع لسوء حظ أصابنا معاً بالنسوى . وأنت صاحب النصيب الأقل من الرثاء لك . ألم تعرف كيف تهد غزائك وسلبتك ، في حين أن واجبي ، وشرقتا المشترك . والطبيعة فوق ذلك كله نحرمت علي . ثم أضافت : وعلى فكرة لقد نسيت بطيش منك ثلاث رسائل من السيدة « ديسيريزي » في الدرج . ها هي ذى . وإذا كان صحتي يثبت لك شيئاً فهو دليل على أن لك في شخصي زوجة مائة بالنسابع ولا تفرض عليك التضحيات التي يفرضها القانون عليها . غير أنني فكرت بما فيه الكفاية حتى تحققت من أن دورينا مختلفان . وأن المرأة وحدها مقسوم عليها بالشقاء . وتقوم عني على مبادئ محددة وثابتة .

وسأعرف كيف أعيش بغير انتقاد، فلا أقل من أن تدعى أعيش .

حار الماركيز من المطلق الذى تعرف النساء درامته فيما يتعلق بوضوح الحب وقد قمته تلك الكرامة التى تبدو طبيعية لديهن فى مثل هذه الأنواع من الأزمات . ومن أجمل الأشياء عند النساء ذلك التفور الغريزى الذى أظهرته «جولى» نحو كل ما أساء إلى حبها أو إلى أمتيات قلبها والذى قد ينشأ عادة من فضيلة طبيعية لن تسكنها القوانين أو المدنية .

ولكن من ذا يجرؤ على تأنيب النساء ؟ ألسن يشهن المساومة بغير عقيدة حين يفرضن الصلح على العاطفة الهائلة التى لا تسمح لمن بالانجاء إلى رجلين ؟ إذا كانت بعض التقويض القاسية تعاتب ذلك النوع من «الانفاق» أو العهد الذى أخذته «جولى» على نفسها بين واجباتها وسحبها فقد ترى فيه الأرواح العاطفية الوطى جريمة . إذ أن الإنكار العام بهم الشقاء الذى ينتظر عدم الطاعة للقوانين ، كما يتم العيوب المؤسسة فى الأنظمة التى تقوم عليها المجتمعات الأوروبية .

ومضى عامان عاش فيها السيد والسيدة «ديجليمون» حياة أهل المجتمع فيخرج كل منهما منفرداً يلتقيان فى الصالونات أغلب ما يلتقيان لا فى البيت . وذلك هو نوع الطلاق الرشيق الذى ينتهى إليه الكثير من زيجات المجتمع العالى . وفى إحدى السهرات التقى الزوج وزوجته فى صالون بينهما على غير العادة . إذ كانت السيدة «ديجليمون»

قد دعت إحدى صديقاتها إلى العشاء . وبقي اللواء فى بيته فى تلك الليلة برغم عشائه الدائم فى الخارج .

— سيدنى الماركيزة سوف تكونين سعيدة .

قال السيد «ديجليمون» ذلك وهو يضع قنجان القهوة الذى شربه قبل قليل فوق المائدة . ونظر الماركيز إلى السيدة «ديوجفين» معبراً عن الحب والحزن بقدر متساو ثم أضاف :

«سوف أرحل فى رحلة صيد طويلة فى صحبة قائد الصيد بالكلاب . وستعيشين أرملة تماماً على الأقل أثناء ثمانية أيام ، وهذا هو ما تمنينه فيما أعتقد ...»

ثم قال للخادم الذى جاء يحمل الفناجين : «يا جيوم» :
هيا علمى الخيوانات بالعربات .

أما السيدة «ديوجفين» فهى «لوريزا» التى أرادت السيدة «ديجليمون» قديماً أن تنصحبها بالجزيرة . وتبادلت المراتان نظرة واعية أثبتت أن «جولى» قد وجدت فى صديقتها الشخص الذى تنق به وتسر إليه بكل أدائها . وهى موضع ثقة أمين عطوف . لأن السيدة «ديوجفين» كانت سعيدة جداً فى زواجها . ولعل حظ إحداها السعيد فى مثل هذا الموقف المتعارض الذى كانتا فيه . صار مصدر ضمان لتضحيتها بالنسبة لى نعاسة الأخرى . ففى مثل هذه الحالة يكون عدم التشابه فى المصائر فى الغالب رابطة قوية من روابط الصداقة .

قالت « جوني » وهي تلقى نظرة غير عابثة إلى زوجها : « وهل هذا هو فصل الصيد ؟ »

كان ذلك في أواخر شهر مارس...

— سيدتي إن قائده الصيد بالكلاب بصطاد في أي زمان وأي مكان يريد . وسوف نذهب إلى الغابة الملكية نصيد الخنازير الوحشية .

احتط لنفسك حتى لا يصيبك شيء ما .

قال وهو يتشم : إن سوء الطالع غير متوقع دائماً .

قال « جيروم » : « عربة السيد جاهزة » .

فهض اللواء . وقبل يد السيدة « ديوتيفين » ثم استدار نحو « جوني » وقال في حائلة استعطاف :

سيدتي إذا وضعت ضحية خنزير وحشي !

سألت السيدة « ديوتيفين » ماذا يعني ذلك ؟

قالت السيدة « ديجليمون » « فيكتور » : « هيا تعال . ثم ابتسمت

كما لو كانت تقول « لوريزا » « سوف ترين » .

ومدت « جويل » رقبها نحو زوجها الذي تقدم لتقبلها . ولكن لم تلبث أن تحركت فانزلت القبالة الزوجية فوق شريط زيتة الخرولة .

قال الماركيز وهو يوجه كلامه إلى السيدة « ديوتيفين » : « سوف تشهدين على ذلك أمام الله إذ يلزمي فرمان من أجل الحصول على هذا

الإععام الطفيف . وهذا هو عما تعبه زوجتي بالحلب . لقد ساقني إلى ذاك بحيلة لا أدريها . تمنائي السعيدة .

وخرج .

صاحت « لوريزا » عندما صارت المرأتان على انفراد : « ولكن زوجك المسكين طيب حقيقة ... إنه يحبك » .

أوه . لا تضغني إلى كلمة الحب من الأوصاف ما يحمله إلى معنى آخر . فأسمى ما يشعر به بادفعني إلى الاستمزاز .

قالت « لوريزا » : « نعم ولكن « فيكتور » يطيعك طاعة عبياء .

قالت « جوني » : « مرجع طاعته في الغالب إلى الإعزاز الكبير الذي أوجبت به إليه . ذلك أي امرأة فاضلة جداً حسب القوانين » .

وأجعل بيته محبباً ، وأغمض عيني عن سوائه . ولا أنقص شيئاً من ثروته . فهو يستطيع أن يبعثر دخوله كما يشاء . وأنا أعني فقط بالحفاظة

على رأس المال . وهذا هو ثمن الهدوء وراحة البال . وهو لا يشرح لنفسه أبداً ليريد أن يشرح لنفسه وجودي . ولكنني إذا كنت أمضي مع زوجي

على هذا النحو فلا يتخلو ذلك من آثار تهيج طباعه . فأنا أشبه مروض اللب الذي يرتعد من أن تتحطم الكمامة يوماً من الأيام . وإذا كان

« فيكتور » يعتقد أن له الحق في ألا يشعر بالإعزاز نحوي فلا أكاد أجرو على التنبؤ بما يمكن أن يحدث . إذ أنه عنيف مليء بحب الذات

وبالفرور على الأخص ، ولو لم يكن ذا فكر دقيق بما فيه الكفاية .

كفى يقف موقفاً حكيماً في ظروف حرجة ، عندما تتعرض رغباته السيئة للبعث ، نعد إلى قتل موقفاً ، لأنه ضعيف الطباع ، ولو مات هو نفسه حزناً في اليوم التالي . ولكن هذا الحظ المقدور لا خوف منه .

وسادت لحظة صمت انتقل فيها فكر الصديقين إلى السبب المجهول لهذا الموقف . ثم استطردت « جويل » وهي تلقي نظرة حزم نحو « لويزا » : « لقد أطلعت في قسوة . ولكنني برغم ذلك لم أمنعه » هو « من أن يرأسني أه ! لقد نسيتي » هو « وله في ذلك حق . لقد كان مصيره سيئاً عظيماً بأشأم الأحداث ! أليس يكفي ما حدث بمصيري ؟ هل تصديقين يا عزيزتي أنني أطلع الصحف الإنجليزية يومياً على أمل وحيد هو أن أقع على اسمه مطبوعاً . هيه ! أليس غريباً ألا يكون اسمه قد ظهر بعد في مجلس اللوردات .

— أنت تعرفين الإنجليزية إذن ؟

— لم أكن قد بحث لك بذلك ! لقد تعلمتها .

صاحت « لويزا » وهي تمسك بيد « جويل » : « مسكينتي الصغيرة ..

ولكن كيف تستطيعين أن تغلي على قيد الحياة ؟

أجابت الماركيزة وقد أفلست منها حركة ساذجة تكاد تبلغ حد الطفولة : هذا سر غامض إلى ، لاني أتناول الأفيون . قصة حياة الدوقة « دى .. » في لندن أعطتني الفكرة . وأنت تعرفين أن « ماتيران » قد ألف عنها رواية طويلة . ولكن قطرات « لودانوم » أى « صبغة الأفيون »

ضعيفة جداً ، إذ أنني أنام وحسب . ولا أظل مستيقظة سوى سبع ساعات أمها كلها لابلتي . . .

وتأملت « لويزا » نار اللعنة دون أن تجرؤ على أن تنظر إلى صديقها التي كان شقاؤها يتزايد في عينها لأول مرة .

وقالت « جويل » عقب لحظة صامتة : « لويزا » احفظي في سري .

وفجأة أحضر خادم خطاباً إلى الماركيزة ..

صاحت « جويل » مصفرة الوجه : « أه !

قالت السيدة « ديومفين » : إن استفسر عن المرسل . وراحت الماركيزة تقرأ ولم تعد تسمع شيئاً . وشهدت صاحبها أشد المشاعر حيوية وأكثر التبرجيل خطراً ، وهي ترتسم كلها على وجه السيدة « ديجليسون » التي كانت تحمر وتضمر دوراً بعد دور . وأخيراً ألقت « جويل » بالورق إلى النار .

— هذا الخطاب مثير . أوه ؟ قلبي يخفقني .

ونفضت وأخذت تمشي وعيناها تومضان .

صاحت « جويل » إنه لم يغادر ياريس .

وكان حديثها مرتجياً بلانسي بحيث لم تجرؤ السيدة « ديومفين » على أن تقاطعها ، بل مكث حديثها متقطعاً تتخلله فترات صمت مخيفة . وكانت العبارات تصدر خلال كل توقف عن قهها بلهجة أكثر فأكثر عمقا . كما أن الألفاظ الأخيرة كانت تضم بطابع مفرع .

— إنه لم يكف عن رؤيتي دون غلبتي نظرة من نظراتي الحائرة
كل يوم تعينه على الحياة . أنت لا تعرفين يا « لويزا » إنه يموت ويطلب
أن يودعني . ويعرف أن زوجي قد غيب عن البيت هذه الليلة لعدة
أيام ، وسيأتي بعد لحظة . آوه ! لسوف أضيق بسبب ذلك لقد ضعت
أبقي معي . أمام امرأتين لن يجرؤا ! أوه ! امكثي فأنا أخشى نفسي .
أجابته السيدة « ديومفين » : « ولكن زوجي يعلم أنني تناولت
العشاء في بيتك ، ولا بد أن يحضر ليصبحني » .

— إذن سأكون قد صرفته قبل رجولك . سوف أكون الجلالد
بالنسبة إلينا نحن الاثنين . وإسفاه سوف يعتقد أنني لم أعد أحبه .
هذه الرسالة ! عزيزتي .. لقد احتوت تلك الرسالة على عبارات أراها
الآن مكتوبة في خطوط من نار .
وخطرت عربة أمام الباب .

صاحت الماركييزة في نوع من الهجة : « آه ! لقد جاء غلثاً وبغير
خفاء .

— صاحب الخادم : لورد « جرينفيل »

بقيت الماركييزة واقفة ساكنة . وبمجرد رؤيتها « أرنيز » أصفر
اللون خيفاً شاحباً لم تعد القسوة ممكنة خيالها . ورغم أن لورد « جرينفيل »
قد أحسن باستئناء عنيف لرؤية « جولي » في غير افراد ظهر هادئاً
بارداً . أما بالنسبة إلى هاتين المرأتين الملمتين بأمرار حبه فقد كانت

هيئته ورنه صوته وتعبير نظراته في مثل القوة التي تُعزى إلى آلات الانفجار
الجوي . وبقيت الماركييزة والسيدة « ديومفين » كمنجولين تحت
تأثير الشعور المتبادل الصارخ بالألم المروع . وكانت رنة صوت لورد
« جرينفيل » تدفع السيدة « ديومفين » إلى الاختلاج القاسي . حتى
لأنها لم تجرؤ على أن تحببه خوفاً من أن تكشف له عن مدى تأثيره
وسيطرته عليها . ولم يجرؤ لورد « جرينفيل » على تأمل « جولي » بحيث
أخذت السيدة « ديومفين » على عاتقها وحدها مهمة المحادثة الخالية
من أية أهمية . وشكرتها « جولي » على تجديدها بأن بعثت إليها بنظرة
مطبوعة بالاعتراف المؤثر بالجميل .

وعلى ذلك فرض العاشقان الصمت على مشاعرهما ، وكان لازماً
أن يستسكا في داخل الحدود التي تعينها الواجبات والتياقات . ولكن
سرعان ما أعلن حضور السيد « ديومفين » . وعند دخوله تبادل الصديقتان
نظرة . وفهمتا دون كلام صعوبات الموقف الجديدة . وقد كان من
المستحيل إطلاع السيد « ديومفين » على سر هذه المأساة ، ولم يكن
لدى « لويزا » مبررات ذات قيمة كي تقدمها إلى زوجها لو طلبت إليه
البقاء مع صديقتها . ولم تذكر السيدة « ديومفين » تلبس الشال حتى
نهقت « جولي » كأنها تساعد على ربطه ، وقالت بصوت خفيض :
« سأجد الشجاعة . مادام قد جاء علناً عندي فما الذي أخشاه ؟ ولولاك
لست عند قلبي منذ أول لحظة لمراه المتغير » .

ثم قالت السيدة « ديجليسون » في صوت مرتجف ، وهي تعود
لتأخذ مكانها فوق تخت لجلوس شخصين لم يعرفوا اللورد « جرينفيل »
على اغني « للجلوس عليه : ماذا إذن يا « آرثر » ؟ إنك لم تطعني .
- لم أستطع مقاومة متعة الاستمتاع إلى صوتك ومتعة البقاء إلى
جوارك مدة أطول . لقد كان ذلك نوعاً من الجنون أو الخرف . لم أعد
سيد تقنى . لقد شاورت نفسي جيداً وعرفت أنني أضعف مما ينبغي
إذ يجب أن أموت . ولكن الموت بغير أن أكون قد رأيته . وبغير أن
أكون قد استمعت إلى ارتعاش ثوبك واقتطفت دموعك . أي موت
هو ذلك ! »

وأراد الابتعاد عن « جويل » ولكن حركته المفاجئة أدت إلى سقوط
مسدس من جيبه . ونظرت الماركيزة إلى هذا السلاح نظرة لم تعبر عن
العشق أو التفكير . ولتلفظ لورد « جرينفيل » مسدسه « وظهر كأنه قد
استاء بقسوة من حادث يمكن أن يؤخذ على أنه مساومة غرامية .
سألت « جويل » : « آرثر ! » .

أجاب « آرثر » وهو يخفض من عينيه : « سيدتي » لقد جئت
مليئاً بالأسى وأردت .. ثم توقف ..

صاحت : « أردت أن تتحرف في بيتي » .

قال بصوت رقيق : « ليس بمفردى » .

— إيه ! ماذا ! من المحتمل زوجي أيضاً ؟

صاح بصوت متخفق : « لا .. لا .. ولكن اطمئني » . وعاد يقول :
لقد اخنني مشروعي المقبول . بمجرد دخولي إلى هنا : وعندما رأيته
أحسست بالشيعة على أن أصبت وعلى أن أموت وحدي .
ونهبست « جويل » وألقت بنفسها بين ذراعي « آرثر » الذي استطاع
أن يتبين ، ورغم شهيق عشيقة بالكاء ، قولين مليئين بالعشق . قالت
« جويل » : « أن يعرف المرء السعادة ثم يموت ... إيه » بل نعم !

وكانت كل قصة « جويل » مركزة في هذه الصيغة العينية :
صيغة الطبيعة والحب الذي تدع له المرأة غير المتدينة . وأمسك بها
« آرثر » وحملها فوق الأريكة بحركة ذات طابع العنف الذي تدفع
إليه السعادة غير المتظرة . ولكن الماركيزة انزعجت نفسها فجأة من
ذراعي حبيبها . وقذفته بنظرة ثابتة من امرأة يائسة . وأخذته من يده .
وأمسكت بمصباح وقادته إلى غرفة النوم . ثم بلغت السرير الذي نائم
فوقه « هيلين » فدفعت سائرته وكشفت غطاء ابنتها بركة . وهي تضع
يدها أمام الشمعة حتى لا يضايق الضوء جفون الابنة الصغيرة الشوقية
نصف المغفلة . وكانت ذراعاً « هيلين » مغرحتين . كما كانت تبسم
وهي نائمة . وبمنظرة أشارت « جويل » إلى ملغتها أمام لورد « جرينفيل »
وكان كل شيء في تلك النظرة .

— أما الزوج همنستطيع أن نهجرة . حتى ولو أجبنا . فالرجل كائن
قوي يستطيع أن يبعد عزاءات كبيرة . وتستطيع أن تحترق قوانين

المجتمع. أما الطفل بنظر أم... !
كانت كل هذه الأفكار وآلاف أخرى أكثر حثوا في تلك
النظرة.
قال الإنجليزي وهو يتحتم: « نستطيع أن نحصلها معنا.. وسوف أحبها
كثيراً... »

صاحت « هيلين » مستيقظة: « ماما ! »
« بمجرد سماعها ذرفت « جولى » الدموع. وجلس لورد « جرينفيل »
صامتاً حزناً يذراعيه مضطربين إلى صدره في تقاطع.
« ماما ! هذا الطلب الحلو الساذج أيقظ كثيراً من المشاعر
النبيلة ، وكثيراً من التعاطفات التي لا تقاوم ، بحيث انسحق الحب
لحظة أمام صوت الأمانة القوي . إذ لم تعد « جيل » امرأة ، وإنما
صارت أمّاً . ولم يقاوم لورد « جرينفيل » طويلاً إذ انتصرت عليه دموع
« جولى » .

وفي تلك اللحظة افتتح أحد الأبواب يغلف عذلاً ضجة كبيرة ،
ودوت هذه الألفاظ كلودى الرعد في قلب العاشقين ! هل أنت هنا
يا سيدة « ديكليمون » ؟

فقد عاد الماركيز . وقيل أن تستطيع « جولى » استعادة الدم البارد
كان اللواء يتجه من غرفته نحو غرفة زوجته ، فقد كانت الغرفتان
متلاصقتين . ولحسن الحظ أمارت « جولى » إلى لورد « جرينفيل »

الذى ألقى بنفسه في مقصورة المياه . وأوصدت الماركيزة بابها بإحكام .
قال « فيكتور » : « هايا زوجتي .. هاندا .. إننا لم نقم بمشروع
الصيد ، وسأذهب للتوم .
قالت هي : « عم مساء ، وسأفعل مثلك ، وعلى ذلك دعني أستبدل
ملابسي » .
— تبدين خشنة الليلة . سمعاً وطاعة يا ميلقى الماركيزة .

وعاد الماركيز إلى غرفته ، وخصبته « جولى » كي تغلق الباب الموصل
واندفعت لتخليص اللورد « جرينفيل » واستعادت رباطة جأشها
وحضور ذهنها ، ففكرت في أن زيارة طبيبها القديم لها طبيعة تماماً .
وكان في إمكانها أن تتركه في الصالون كي تحضر لتشرف على نوم
ابنتها . وذهبت لتطلب منه التوجه إلى هناك بلا ضوضاء . ولكنها
لم تكذ فتفتح باب المقصورة حتى صرخت مدوية ، إذ كانت أصابع
لورد « جرينفيل » قد انحسرت في آخرة الباب قهرستها .
سألتها زوجها : « إيه ! ماذا بك إذن ؟ »

— لا شيء ، لا شيء ... لقد شككتي دبوس في أصبعي .
وفجأة افتتح باب الاتصال . وظلت الماركيزة أن زوجها جاء
خصيصاً من أجلها . ولعلت ذلك الاهتمام . فلم يخلق القلب عبثاً .
ولم تكذ تجد الوقت لإففال بمقصورة المياه ولم يكن لورد « جرينفيل »
قد سحب يده بعد . وظهر اللواء مرة أخرى في الواقع . غير أن الماركيزة

أخطأت إذ كان قد قدم نحوها بسبب مسائل شخصية خاصة به .

— هل لك في أن تعبريني منديلا ؟ إن « شارل » ذلك الغريب .
فهو يخفى دون أن يترك لي منديلا واحداً للرأس . في أيام زواجنا الأولى
كنت تتدخلين في أعمالي برعاية دقيقة إلى درجة مضايقتي . آه إن
شهر العمل لم يدم طويلا بالنسبة إلى ولا بالنسبة إلى أربطة عنقي .
والآن صرت تحت رحمة سلطة مدنية خاصة هؤلاء الناس الذين يسخرون
جميعاً مني .

— غدا . هالك منديل . ألم تمر بالصالحون ؟

— لا .

— كان يمكن أن تلتقي هناك بلورد « جوينفيل » .

— أهو موجود بباريس ؟

— يبدو هذا .

— أوه ! سأذهب إلى هناك . هذا الطبيب الطيب .

صاحت « جويل » : ولكن لعاه زحل الآن ؟

وكان الماركيز حينذاك في وسط غرفة زوجته قد غطى رأسه بالمنديل ،
وهو ينظر إلى نفسه في المرأة بإعجاب ورفض .

— لا أدري أين هم شغالة البيت ؟ لقد دقت الجرس « لشارل »
ثلاث مرات ولم يحضر . أنت أيضاً إذن بدون الخادمة ؟ دقتي لما الجرس
لأنني أود اللبابة غطاء إضافياً لسريري .

أجابت الماركيزة بخفاف : لقد ذهبت « بولين » للترفة .

— في منتصف الليل !

— لقد أدنت لها بالذهاب إلى الأوبرا .

قال الزوج وهو يخلع ملابسه : هذا شيء فريد ! .. لقد عجل إلى أنفي
رأيها عند صعودي السلم .

قالت « جويل » وهي تتكلف عدم الصبر : « لقد عادت إذن
بلاشك »

ثم لكي تتحاشى الماركيزة إيقاظ أي شك لدى زوجها سحبت
حبل الجرس شداً خفيفاً .

ولم تعرف أحداث تلك الليلة تماماً . ولكن لاشك أنها كانت
جميعها غاية في البساطة ، وغاية في الشناعة : على نحو ما كانت عليه
الأحداث المتتالية البتية السابقة .

وفي اليوم التالي رقدت الماركيزة « ديجليمون » في سريرها جملة أيام .
سأل السيد « ديرونكروال » السيد « ديجليمون » بعد أيام قليلة
من ليلة الكوارث : ما الحدث الغريب الذي وقع بينك حتى يتحدث
الاجتمع كله عن زوجتك ؟

قال « ديجليمون » : صدقتي .. وأبق عزباً . لقد أمسكت النار
بستائر السرير الذي كانت تنام فيه « هيلين » وفجعت زوجتي للحدث
حتى أصابها مرض يستغرق عاماً كاملاً حسب إشارة الطبيب . . . نتزوج

من امرأة جميلة فتصير قبيحة . وتزوج فتاة مليئة بالصحة . فتنحول إلى صاحبة نقاهة . وتعقد أنها شديدة الوله فإذا بها باردة . أو أنها باردة في المظهر ثم تكون في الحقيقة شهوانية بحيث تنقلب أو ترى بشرفك . أحياناً تصير الخلوقة الشديدة الرقة مخلوقة ذات أهواء . ولئن تكون ذات الأهواء بقيقة بحال . وأحياناً تبسط الطفلة ، التي اختوتها حواء ضعيفة ، ضدك لإرادة من حديد أو روح شيطان . لقد تعبنا من الزواج .

— أو من زوجتك .

— هذا صعب . بالمناسبة ، هل تحب أن تخضر معي إلى كنيسة القديس « توما الإكويني » لمشاهدة دفن « لورد » جرينفيل ؟
قال ديرونيكرويل : هذه فرصة فريدة لإضاعة الوقت . ولكن هل عرف سبب وفاته على وجه التحديد ؟

— نعيم خادمه أنه بقي ليلة بأكلها على الإفريز الخارجي من الشباك إنقذاً لشرف عشيقته ، وكان الليل بارداً برداً قارساً هذه الأيام !
— هذه التضحية كانت تصوير محل تقدير كبير لدينا نحن المدربين أيضاً ، غير أن « لورد » جرينفيل « شاب و .. إنجليزي . هؤلاء الإنجليز يريدون دائماً التفرد في كل شيء .

— أجاب « ديجليسون » على أي حال توقف ملامح البطولة على المرأة التي توحى بها ، ومن المؤكد أن « أرنبر » المسكين لم يمض من أجل زوجتي !

آلام مجهولة

يمتد فيما بين شهر « الموان » الصغير وشهر « السين » سهل فسيح تحفه غاية « فونتيلاه » وثلاث مدن هي « موريه » و « نيمور » و « مونتيروه » ولا يرى البصر في ذلك الإقليم الجلب سوي تلال نادرة . وتري أحياناً وسط الحقول بعض الجلولور الخشبية التي تأوى إليها طرائد الصيد ، ثم ترى في كل مكان تلك الخطوط المخلوطة الرمادية أو الصفراء الخاصة بأفاق « سولوى » و « يوس » و « بيرى » . وتري المسافر وسط ذلك السهل بين « موريه » و « مونتيروه » قصرًا قديمًا اسمه « سان لانج » الذي لا تخلو مناظر الوصول إليه من عظمة وجلال . إنها كلها من المنزهات الرائعة ذات شجر الدرار على الجانبين ، وذات الحفريات والحوايط الطويلة حول الأحواش . والحدائق الشاسعة ، والمباني الواسعة الخاصة « بالأشراف » التي احتاجت في بنائها إلى جباية الضرائب غير القانوتية ، وكذلك إلى ثمرات المزارع العامة ، وسرفات وكيل الخزنة لمال الحكومة المشروعة ، أو الثروات الضخمة الأرستقراطية التي هدمها الآن مطرقة القانون المدني . فإذا ناه بعض الفنانين ،

أو بعض الخاملين مصادفة في الطرق. ذات آثار العجالات العميقة أو الأراضي الصلدة التي تسمى مدخل الإقليم ، فإنه يتعامل عن النزوة التي دفعت إلى الإلقاء بهذا القصر الشعري إلى تلك السهول المعشوشبة بالقصح ، وتلك الصحراء المليئة بالبشائر والسجيل والرمال ، حيث يموت المرح ، وتنشأ النعاسة حتماً ، وتعب الروح بلا توقف بسبب العزلة التي لا يمتزج بها صوت - والآفاق الرتيبة ، والمظاهر السلبية للجمال ، وإن كانت مناسبة للآلام التي لا تطمع في عزاء .

وجاءت امرأة شابة اشتهرت في «باريس» بلطفها وحسنها وروحها ، وكانت ذات وضع اجتماعي وثروة متناسبة مع شهرتها العريضة، جاءت تقيم ، مثيرة اندهاشاً كبيراً ، في القرية الصغيرة الواقعة على بعد ميل تقريباً من «سان لانج» وفي حوالي آخر سنة ١٨٢٠ . ولم يكن المزارعون والفلاحون قد شهدوا أي «سادة» بالقصر منذ أجيال لا تذكر . ولو أن محصول الأرض كان وفيراً فلأن الأرض قد تركت في رعاية وكيل أعمال ، وفي حراسة «أجراء» قداماء . وأثارت رحلة السيدة الماركيزة نوعاً من القلق في الإقليم ، واجتمع أشخاص عديدين عند طرف القرية في فناء فندق رديء واقع عند مفترق طرق «نيشور» و«موريه» كي يشهدوا مرور المركبة المتباطئة ، لأن الماركيزة جاءت من «باريس» بخيولها وفي مقدم المركبة كانت الخادمة تمسك فتاة صغيرة أميل إلى الأحلام منها إلى الانسجام . في حين كانت الأم تجلس مضطجعة في داخل

الغربة مثل محتضر في النزح الأخير أرسله الأطباء إلى الريف . ولم يحجب عما تلك المرأة الشابة الرقيقة المتوكل دهاء القرية الذين رأوا في وصولها إلى «سان لانج» أملاً في حركة ما بالمقاطعة . ومن المؤكد أن كل نوع من الحركة كان غير أثير كما هو ظاهر لدى تلك المرأة المصابة بالأوجاع .

وأعلن أكبر شيوخ القرية في «سان لانج» مساء بالملهى الليلي في ركن الحانة التي يقدم فيها الوجهاء على الشرب ، أن مظهر النعاسة المطبوع على سمات وجه السيدة الماركيزة هو دليل على أنها أصبحت بالإفلاس . إذ تغيب السيد الماركيز بناء على تعيينه - كما أشارت الصحف - مرافقاً للديق «دانجوليم» في إسبانيا . وعليها أن توفر في إنشاء بقائها في «سان لانج» المبالغ الضرورية للوفاء بالقروض المعزوة إلى مضاربات خاطئة بالبورصة ، فقد كان الماركيز أحد كبار المقاربين ، وقد تباع الأرض حصصها صغيرة ، وسيكون ثمة فرص طيبة لمن يشاء . ولعل كل مستمع قد شرع يفكر في حصر دراهمه ، وفي سحبها من مخبتها ، وتعداد ممتلكاته ، حتى يكون له نصيبه من حطام «سان لانج» وبدا ذلك المستقبل جميلاً إلى الحد الذي دفع كل وجه من الوجهاء إلى التشوق لمحنة واقع الأمر والتفكير في وسائل الإلمام بالحقيقة عن طريق العاملين في القصر . غير أنه لم يكن في إمكان أي واحد منهم أن يلقى أي أقصواء على تلك الكارثة التي قادت سيدهم إلى قصرها

العتيق في « سان لانج » في مطلع الشتاء ، في حين أنها تملك أراضي أخرى معروفة ببهجة معالمها وجمال حدائقها . وجاء السيد عمدة القرية ، لتقديم تحياته واحتراماته إلى السيدة ، ولكنه لم يقابلها . وجاء الوكيل بعد العمدة ، وقدم نفسه ، ولكن حظه لم يزد شيئاً على حظ الأول .

ولم تكن السيدة الماركية تخرج من غرفها إلا لكي يقوموا بترتيبها ، وفي الانتظار تبقى داخل صالون صغير مجاور كانت تناول فيه العشاء ، إذا صح تسمية الجلوس إلى المائدة والنظر إلى ما عليها من طعام في قرف . ثم تناول القدر الضروري منه على وجه التجديد ، كي لا تقضى جوعاً .. عشاء . وبعد ذلك ترجع في الحال إلى مقعد قدم مبطن بوسادة حيث تجلس منذ الصباح في كوة الشباك الوحيد الذي كان ينير الغرفة . ولم تكن ترى ابنتها إلا في أثناء اللحظات القصار التي تناول فيها عشاءها المكروب . وحتى لحظات رؤيتها تلك كانت تدفعها فيما يبدو إلى معاناة الألم .

ليس من الضروري أن تشعر امرأة شابة بالآلام خارقة كي تخرس فيها عاطفة الأمومة ؟

ولم يوفق أحد هؤلاء الناس في التقرب إليها . وكانت خادمتها الشخص الوحيد الذي تقبل منه الخدمات . وفرضت صمتاً مطلقاً على القصر ، بحيث كان على ابنتها أن تلعب بعيداً عنها . وكان يصعب عليها أن تتحمل أقل ضوضاء ، حتى صار أي صوت إنساني — بما في ذلك صوت



طفلتها مصدر حزن مقيت بالنسبة إليها . وشغل أهل الإقليم أنفسهم بأحداثها العريية ، ولكن عندما استنفدت كل الافتراضات الممكنة لم يعد أهل المدن الصغيرة المجاورة أو الفلاحون يفكرون إطلاقاً في تلك المرأة المريضة .

واستطاعت الماركةزة ، وقد خلعت إلى نفسها ، أن تمكث إذن صامدة تماماً وسط الصمت الذي ضربته حول نفسها . ولم تجد فرصة إطلاقاً لكي تغادر الغرفة المغطاة بالسجاد ، حيث ماتت جدتها ، وحيث جاءت هي تقويت مبرئاً رقيقاً بلا شهوة وبلا معجزات ، ويدون أن تعاني مظاهر الأنانية الزائفة المخالفة بالعاطفة التي تجعل موت الأموات في المدن مزدوجاً .

كانت هذه المرأة في السادسة والعشرين من عمرها . وتستعذب الروح عاقدة وهي لاتزال مليئة بأوهام شاعرية . أن تستطعم الموت عندما يبدو لها نافعاً مفيداً ، غير أن الموت ذلالاً بالنسبة إلى الشباب ، إذ يقدم الموت ويتراجع ، ويظهر ثم يختفي ، حتى يصبح إبطاءً سيئاً في زوال أوهامه . بل يؤدي ما بعد الموت إلى عدم اليقين ، ويشقى إلى أنه يلقى بهم إلى العالم حيث يلتقون بالألم . وهو أقل شفقة من الموت فيضربهم دون أن يترك لهم فرصة انتظاره . والواقع أن هذه المرأة التي حرمت نفسها الحياة ، كانت في طريقها إلى تجربة مرارة ذلك التواني في أعماق العزلة ، وإلى أن تتلقى فيها . في أثناء فترة احتضارها خلقي

لا يلقى عليها الموت - درساً قاسياً في الأنانية يخلع منها القلب ويشكلها حسب المختص .

ويشتأ هذا الدرس التعليمي القاسي الحزين عن آلامنا الأولى . ولعل الماركةزة قد تأملت ، وعانت حقيقة للمرة الأولى والوحيدة في حياتها . ليس من الخطأ حقيقة الاعتقاد بأن مشاعرنا تتوالد ؟ ألا تظل بمجرد تفرغها موجودة في قاع القلب ؟ فتسكن وتصبحو حسب أحداث الحياة . وتبقى كامنة فيه بحيث تؤثر إقامتها على الروح بالضرورة . وعلى ذلك ينحصر كل شعور يوم كبير واحد ، هو يوم عاصفته الأولى الطويل إلى حد ما . ولا يكون أكثر الآلام ثباتاً من بين مشاعرنا قوياً إلا في هجمته الأولى . على حين تواصل إصاباته الأخرى سيرها آتية في الضعف ، إما بسبب تعدد أزماته ، وإما بسبب أحد قوانين طبيعتها التي تسعى إلى البقاء . فتعارض تلك القرية الهدامة بقوة مساوية مدفوعة في حالة تسكون في تدبيرات الأنانية . ولكن إلى أي نوع من أنواع تلك الآلام ينتمي اسم هذا الألم ؟

لقد أعدت الطبيعة الناس لحزن فقدان الوالدين في حين يعد الألم العضوي عابراً ولا يلحق بالروح . وإذا دام فليس هو بالألم . وإنما هو الموت . وعندما تفقد امرأة شابة مولودها سرعان ما يعطيها حب الزوجية مولوداً آخر . وهذه الآلام وأخرى غيرها مشابهة هي ضربات وجروح بشكل ما ، ولكن ليس من بينها ما يصيب الجبوية في جبهتها ،

ولا بد من أن تتابع هذه الآلام بشكل عجيب ، كما تقتل الشعور الذى يحثنا على البحث عن السعادة . فالآلم الحقيقي الكبير لا بد أن يكون إذن داه فتاكاً إلى حد ما كى يعانق الماضى والحاضر والمستقبل معاً ، ولا يدع أى جزء من أجزاء الحياة فى تكامله ، ويغير معالم الفكر إلى الأبد ، ويرتسم على الدوام فوق الشقاء وفوق الحنين حتى يحطم أو يرغى نوايض اللذة بأن يغرس فى الروح مبدأ القرف من كل شيء فى الحياة ، ولا بد أن يحدث هذا الآلم كى يستكمل ضغامة ، وكى يتقل على الروح والجسد . لا بد أن يحدث فى لحظة من لحظات الحياة عندما تكون كل قوى الروح والجسد لاتزال شابة ، أن يصعق القلب فى ريعانه ، وعندئذ يشق الآلم ندباً كبيراً ، إذ أن المعاناة شاقة ، ولا يكاد يفلت أحد من هذا المرض دون تغيير شعري فى . فإما أن يأخذ طريق السماء ، أو يبقى ها هنا أرضاً ، على أن ينفذ إلى العالم كى يكذب على المجتمع ، ويلعب فيه دوراً ويعرف الطريق إلى « الكواليس » حيث ينسحب من أجل التدبير والبكاء والمزاح . وبعد هذه الأزومة الصحيحة لا توجد أى أسرار فى الحياة الاجتماعية التى تصير منذ ذلك الحين محكوماً عليها نهائياً . وتنشأ هذه الأزومة الأولى أو أشد الآلام جرحاً عند النساء الشابات فى سن المازكية عن واقعة بعينها ، إذ لا يفوت المرأة ، وبخاصة المرأة الشابة الكبيرة الروح والكبرة القدر من الجمال - لا يفوتها إطلاقاً أن تبذل حياتها حيناً تدفعها الطبيعة والعاطفة والمجتمع على القذف بها

كاملة . أما إذا كانت تنقصها تلك الحياة ، وكانت تعيش على الأرض ، فتأخذ فى تجريب أقصى الآلام فيها للسبب نفسه الذى يجعل من الحب الأول أجمل العواطف جميعاً .

لماذا لم يوهب قط هذا الشقاء مصوراً أو شاعراً ؟ ولكن هل يستطيع أن يصور نفسه ؟ وهل يستطيع أن يتغنى بالآلم نفسه ؟ لا .. فطبيعة الآلام التى يولدها هذا الشقاء لا تستسلم لأنى تحابل أو لأنى ألوان فنية . وفضلاً عن ذلك لا يمكن أن تروى هذه الآلام إطلاقاً إلى أحد ، ولكيما يمكن التبرية عن إحدى النساء بصددها ، لا بد من القدرة على تخمينها . لأن العلم بها يحاط دائماً بجمرة ، ويعاقب عليها دينياً ، وتأتى إلى الروح ككتلة هابطة من الجليد تلتف كلها فى أثناء سقوطها فى الوادى قبل أن تبلغ مكانها فى قاعه .

كانت المازكية إذن فرسة لآلامها التى كان مقدراً لها أن تمكث طولها مجهولة ، لأن كل ما فى الحياة يحكم عليها بذلك فى حين تقوم العاطفة بملامسة تلك الآلام كما يقوم وعى المرأة الصادق بنسويتها جميعاً دائماً . ومن تلك الآلام ما يشبه الأطفال الذين تجدهم الحياة عمداً أو الذين يستنسون بقلوب أمهاتهم بروابط أقوى من روابط الأطفال الموهوبين بتوفيق . ولعل تلك الكارثة المرحبة التى تقضى على كل ما هو حياة خارجتنا لم تكن على هذا النحو من القوة والتمام قط . ولم تنضم بقسوة بواطة الظروف مثلما جرت فى حياة المازكية . فقد مات

رجل معشوق شاب كريم لم تسجب قط لرغباته كنى تطيع قوانين المجتمع بسبب حرصه على أن يفقد ما اصطاح المجتمع على تسميته باسم « شرف المرأة » . ولن تستطيع أن تقول « إننى أعانى » . ولو بكت لساءت زوجها دموعها ورغم أنه السبب الرئيسى للتكية . ولأبطلت القوانين وصنوف العرف شكواها . واستفادت من وراثتها صديقة ، وضارب عليها صديق . لا .. لم يكن لهذه المكروبة المسكينة أن تبكى بدون انزعاج إلا فى الصحراء . بحيث تلهم هناك ألها . أو بحيث يلهمها ألها ، أو بحيث تموت ، أو تقتل شيئاً فيها . وليكن ضميرها مثلاً .

وبقيت منذ بضعة أيام بنظراتها معلقة على أفق منبسط ، حيث لم يكن ثمة ما يبحث عند كالحال بالنسبة إلى حياتها المستقبلية ، ولم يكن ثمة ما يبحث على الأمل ، حيث كان كل شيء ظاهراً مكتشفاً فى نظرة واحدة . وحيث كانت هى تلقى بعصور حزنها اليارد الذى لا يكف عن تمزيق قلبها .

وكانت الأصباح الضبابية ، والماء ذات النور الخافت . والسحب المنخفضة الداكنة البخارية بالقرب من الأرض ، كأنها أروقة رمادية كان ذلك كله يلائم أطوار مرض الماركيزة النفسى . إذ لم يكن قلبها ينقبض ، ولم يكن يدوى تقريباً .. لا .. ولكن طبيعتها الناضرة المزهرة كانت تتعجن بفعل ألم لا يحتمل . لأنها لم تكن محددة الهدف ، فقد عانت طبيعتها من الألم كما عانت من أجل الألم ، ولكن أليست

المعاناة انتقالاً إلى الأنانية ؟

وكذلك كانت أفكار مقزعة تمر بضميرها فتخشنه . وتساءلت ، قى إيمان صادق ، فوجدت نفسها فى حالة ازدواج ، إذ كان فيها امرأة تستخدم البرهان ، وامرأة تستخدم العاطفة . امرأة تعانى . وأخرى لا تريد المعاناة أكثر من ذلك . وتذكرت مباحث طفولتها التى جرت حول أن تحس بسعادتها . والتى أخذت تتوافد صبرها الذهبية الصافية فى ازدحام كأنها تريد أن تؤهبها على خديعة الزواج الذى يظهر مناسباً فى نظر المجتمع . ويكون شيئاً فى الحقيقة . فم أفادها التعفف الجميل فى شيائها ؟ وفهم أفادها المباحث المكروبة ، والنصحيات المؤداة نحو المجتمع ؟ ورغم أن كل ما فيها غير عن الحب وثوقه ظلت تتساءل : لماذا الآن هذا التناسى فى حركاتها وإبشائها ولقائها ؟ فلم تعد تحب . أن تشعر بالنضارة والشهوة أكثر مما يكون مكروها سماع لحن متكرر بلا غرض . وكان جمالها نفسه غير محتمل بالنسبة إليها كأي شيء لا جدوى منه ، واستهشفت فى قزع أنها ورغم ذلك لم تعد قادرة على أن تصبح مخلوقة كاملة . ألم يفقد (الأنا) الداخلى فيها منكمّة تليق الانطباعات فى هذا الوضع الجليد الخلو الذى يهب الحياة مقادير طائلة من السزور والفرح ؟

وسمحي أكثر الأحاسيس فى المستقبل غالباً بمجرد تلقها ، وسيصبح كثير من الأحاسيس التى كانت تثيرها لو مرت بها فى الزمن

القديم - بلا قيمة أو أهمية بالنسبة إليها ، إذ تنبع طفولة المخلوق طفولة القلب . والواقع أن عشيقها قد حمل معه إلى القبر تلك الطفولة الثانية ، ولو أنها لا تزال شابة من حيث رغباتها ، لكنها لم تعد يتوافر لها ذلك الشباب الكامل في الروح الذي يعطى كل ما في الحياة قيمته ونكهته . ألم تحتفظ في نفسها ببدا الحزن والحذر الذي يسلب انفعالاتها عنفوانها المفاجئ ، وانذاعها ؟ لأنه لم يعد شيء يستطيع أن يعيها السعادة التي تمتتها ، والتي حملت بها أحلاماً جميلة . وأطفأت دموعها الأولى الحقيقية هذه النار السماوية التي تثير انفعالات القلب الأولى ، وكان عليها أن تقاسم على الدوام ألا تكون على نحو ما كان يمكنها أن تكون . ومن هذا الاعتقاد كان لابد أن ينشأ قرف مزير يدفع إلى إدارة الرأى كلما سنحت متعة جديدة . وتصورت الحياة على ذلك تصور المسن الهرم الذي يوشك أن يفارقها . ورغم إحساسها بشبابها أفضل روحها حجم أيامها الخالية من المتع ، وضعت عليها ضمناً أحلاماً إلى عجز قبل الأوان .

وطلبت إلى المجتمع بصرخة بأس ما كان المجتمع قد رده إليها بدلاً عن الحب الذي أعانها على أن تعيش والذي فقدته . وتساءلت : أليس الفكر أقمنى من العمل في غرامها الضائع الذي كان على قدر كبير من العذرية والنقاء ؟ وظهرت بمظهر المدنية عن خطيئة ، كى تسب المجتمع ، وكى تجد هي العزاء عن أنه لم يحدث بينها وبين الذي يكنه

ذلك الاتصال الكامل الذي يعتمد إلى وضع الأرواح بعضها فوق بعض ، بحيث يخفت من ألم الروح التي تبقى يبقين استمتاعها المطلق بالسعادة ويبقى أنها عرفت تماماً كيف تعطىها . ثم يبقين احتفاظها في ذاتها بانطباع من تلك الروح التي ولت . وكانت غير راضية عن نفسها مثل المبتلة التي فاتها حوزها ، لأن الألم كان يهاجم كل وشائج بدنها وقلبها وعقلها . وإذا كانت الطبيعة قد انقبضت في تحدياتها الدوية الخالصة ، فإن الغرور لم يكن يجرحه بأقل من جرح الطبيعة التي تحمل المرأة على التضحية بنفسها . ثم عادت إلى إثارة كل الأسئلة وإلى تحريك جميع قوى الموجودات المختلفة التي تبين إياها الطياع الاجتماعية والأخلاقية والجسدية . ولكنها أحملت تماماً قوى الروح ، بحيث لم تعد تدرك شيئاً وسط أشد الأفكار تناقضاً . وأحياناً عندما كان الضباب يغم الأرجاء كانت تفتح نافذتها ، وتظلي أمامها بلا فكر ، وهي مشغولة بتنفس الرائحة الرطبة الترابية المشورة في الأجواء آلياً ، وتبقى واقفة ساكنة بلهاء في مظهرها لأن طين ألها أحلاماً أضاً إلى آلة صماء بالنسبة إلى استجابات الطبيعة ومفاتيح الفكر .

وفي أحد الأيام قرب الظهور ، في لحظة أضاءت الشمس فيها البحر دخلت خادماً بغير إذن وقالت لها : « هذه هي المرة الرابعة التي يحضر فيها السيد التيسر لرؤية السيدة الماركيةزة . وهو يلح اليوم بإصرار حتى لم نعد نعرف بماذا نجيبه ؟ »

— إنه يطمع بلاشك في بعض التقوى ، من أجل النقاء في الدائرة
فخذى خمساً وعشرين ليرة ذهبية وأعطيه إياها من قبلى .
قالت الخادمة : وقد عادت بعد لحظة : « سيدتى ، السيد القسيس
يرفض تسليم النقود ، ويريد أن يخاطبك » .
— فليحضر إذن !

أجابت الماركييزة بذلك وقد أفلتت منها حركة ثم عن مزاج منحرف
ينبئ باستقبال تعيس للقسيس الذى تمت بلاشك لو أمكنها أن تنفدى
كل الملاجبات بتقديم شرح مختصر صريح إليه .

كانت الماركييزة قد فقدت أمها وهي طفلة ، وبطبيعة الحال تأثرت
تربيتها بالفتور الذى دمع الروابط الدينية في فرنسا في أثناء الثورة .
وتعد التقوى من فضائل المرأة التى تستطيع النساء وحدها أن يتفاهن
نقلاً طيباً . وقد كانت الماركييزة طفلة من أطفال القرن الثامن عشر
الذى كانت عقائده هي عقائد والدها ، ولم تكن تبشر رأى عبادات دينية ،
وكان القسيس في نظرها موظفاً أحياناً غير معترف بحلواه ، ولم يكن
يستطيع صوت الدين أن يؤدي إلا إلى استنحال الشرور حيال الموقف
الذى تردت فيه ، ثم إنها قانماً كانت تعتقد في قساسة الأرياف
أو في شعوبهم ، ولذلك عزمت على أن تعرف هذا القسيس جلوسه دون
خشونة ، وأن تتخلص منه ببعض الحيات على طريقة الأغنياء .

حضر القسيس . ولكن مظهره لم يؤثر على أفكار الماركييزة ،

فقد رأت رجلاً قصيراً سمياً ذا بطن بارز ، وذا وجه محمر ، ظاهر
الشيخوخة ، وظاهر التجاعيد ، ويتكلف الإهتمام دون أن تفلح
ابتسامته في شيء . وكان رأسه أضلع مغطى بتجاعيد عديدة بالعرض
كما كان يسقط في ربع دائرة على وجهه وبصره ، وكانت تضع شعرات
بيضاء تزين أسفل رأسه فوق الرقبة . وتمتد إلى الأمام نحو الأذنين ،
ومهما يكن من شيء فقد كانت هيئة وجه هذا القسيس أشبه بهيئة
وجه رجل مرح بالطبع ، وكانت شفاه الغليظتان ، وأنفه الخفيف
المنقوص ، ودقه الذى توارى وراء ثياب التجاعيد ، كان كل ذلك يدل
على طبع سعيد . ولم تلمح الماركييزة أول الأمر سوى ملامحه الرئيسية ،
ولكن بمجرد نطقه أول كلمة أذهلتها رقة صوته ، فتأملته بانبهات أكبر ،
ولاحظت عنيبه من تحت حاجبيه اللذين وخطهما الشيب ، وقد بللتهما
الدموع . وكانت خطوط خده من ناحية الخائب تسبق على وجهه تعبيراً
جليلاً للألم ، بحيث اكتشفت الماركييزة إنساناً وراء هذا القسيس .

— سيدنى الماركييزة : إن الأغنياء لا يشتمون إلينا إلا حين يتألمون ،
ويمكن تخمين نوع الآلام التى تنزل بساحة امرأة متزوجة شابة جميلة
غنية لم تفقد أطفالاً أو أقارب . فهذه الآلام تنشأ عادة عن جروح
لا تخفى أوجاعها الشديد سوى الدين ، وروحك يا سيدنى في خطر .
وأنا لا أحذرك الآن عن الحياة الأخرى التى تنتظرك ! لا . فلست
أمام كرمي الاعتراف ، ولكن أليس من واجبى أن ألقى لك الأضواء

على مستقبل وجودك الاجتماعي ؟ لعلك تغفرين لرجل عجوز إذ عاجلك
بقصد سعادتك .

— لم يعد ثمة سعادة بالنسبة إلى يا سيدى . سوف أكون منكم عما
قليل ، كما تقول ، ولكن على الدوام .

— لا ، يا سيدى . أنت لن تموت من الألم الذى يثقل عليك ويرسم
على ملامحك . لو كان عليك أن تموت بسببه لما جئت إلى « سان لانج »
فنعن نموت تحت تأثير الندم الأكيد ، أقل مما نموت من آثار الآمال
التي تخيب الظن . لقد عرفت آلاماً أشد قسوة ، وبما لا يحتمل ، دون
أن تؤدى إلى الموت .

أدت الماركيزة حركة من لا يصدق ...

— سيدى أنا أعرف رجلاً كان شقاؤه عظيماً حتى لتبدو آلامك
خفيفة إذا قورنت بآلامه .

ولعل عزلتها الطويلة بدأت تثقل عليها أو لعل اهتمامها قد آثاره
احتمال تمكنها من أن تصب أفكارها المؤلمة في قلب صديق ، ومهما يكن
من أمر فقد نظرت إلى القسيس بتعبير الاستفهام الذى لا يحيطه المرء .

عاد القسيس يقول : « سيدى ؟ كان ذلك الرجل أياً لأسرة تحولت
من أسرة عديدة الأبناء إلى أسرة ذات ثلاثة أطفال فقط ؟ إذ أنه
قد أقاربه على التوالى ، ثم ابنته وزوجته اللتين كان يحبهما حباً جمّاً ،
وبقى بمفرده في أقصى أقاليم الريف على أرض صغيرة يمتلكها » حيث

كان سعيداً مدة طويلة . وذهب أولاده الثلاثة إلى الجيش ، واحتفظ
كل منهم بالرتبة المناسبة مدة خدمته . وفي فترة المائة يوم من ٢٠ مارس
إلى ٢٢ يونيو سنة ١٨١٥ . عند عودة « نابليون » إلى « باريس » دخل الابن
الأكبر الحرم ، وصار برتبة مقدم . وكان الصغير رئيس فرقة مدفعية
كما كان الابن الأوسط ذا رتبة رئيس كتيبة من فرسان الحياطة .
« وكان هؤلاء الأولاد الثلاثة - يا سيدى - محبوبين والدهم بقدر ما كان هو يحبهم »
ولو كنت تعرفين عدم مبالاة الشبان الذين يتدفعون مع عواطفهم الجاهلة
فلا يتوافر لهم وقت على الإحلاق للشاعر الأممية ، لفهمت مرة
واحدة قوة هذه العاطفة بالنسبة إلى عجوز مسكين معزول لم يكن يعيش
إلا بهم ومن أجلهم . ولم يمر أسبوع دون أن يتلقى رسالة من أحد أولاده
ولكنه لم يكن هو أيضاً ضعيفاً نحوهم مما ينقص احترام الأولاد ،
ولم يكن أيضاً قاسياً في ظلم مما يدفعهم إلى الانتفاض ، ولم يكن فوق
هذا وذلك بخيلاً عليهم بالتضحية مما يدفعهم إلى التفكك . لا ،
بل كان أكثر من والد ، لأنه جعل من نفسه أماً لهم وصديقاً . وفي
النهاية ذهب يودعهم في « باريس » عند سفرهم إلى « بلجيكا » .
إذ كان يود أن يرى أهلكون خيرلاً جميلة ! ألا ينقصهم شيء ؟ ..
وعندما رحلوا عاد الوالد إلى بيته ، وبدأت الحرب ، فتلقي الرسائل
مكتوبة من « فلير » ومن « ليني » وسار كل شيء سيراً حسناً ، ثم تقع
معركة « ووترلو » وأنت تعرفين النتيجة ، إذ في نفس واحد كانت فرنسا

كلها في حداد ، وعاشت الأسر جميعها في أعرق قلق : أما هو ياسيدنى فقد كان ينتظر : ولم يعرف فسحة أو راحة ، وكان يقرأ صف الأخبار ، ويلهب كل يوم نفسه إلى مكتب البريد . وفى إحدى الليالى أبلغ بزيارة خادم ابنه المقدم ، فإذا الرجل يقود الحصان الخاص بيده : ولم يكن ثمة موضع للسؤال : إذ كان المقدم قد مات ممزقاً إلى تصفيين برصاصه . وقرب نهاية السهرة وصل خادم الابن الأصغر على قدميه ، وكان الابن الأصغر قد مات عداء المعركة : وأخيراً عند منتصف الليل جاء أحد رجال المدفعية يعلن وفاة الابن الأخير الذى كان الأب المسكين قد وقف حياته بأكلها فوق رأسه منذ وقت قصير . نعم ياسيدنى سقطوا جميعاً موتى !

وبعد فترة سكون غالب القيس انفعالاته . وأضاف هذه الأقوال في صوت يقيق :

— وبقى الأب حياً يا سيدنى . وفهم أنه إذا كان الله قد تركه حياً على الأرض فعليه أن يواصل العذاب فيها . وهو يتعذب فيها فعلاً ، ولكنه ألقى بنفسه وسط الدين . ماذا يستطيع أن يصيح ؟

ورفعت الماركيزة عينها نحو وجه القيس الذى صار مجللاً بالحزن والفضاعة ، وانتظرت هذه المظلة التى انتزعت دموعها انتزاعاً !

قيساً ياسيدنى . فقد ظهرته الدموع قبل أن يتطهر عند أقدام

المنابع

وساد الصمت لحظة . وصارت الماركيزة . والقيس يتأملان الأفق الضبابى من النافذة كما لو كانا يريان هناك أولئك الذين لم يعودوا أحياء . ثم قال القيس : « لا قسيماً في مدينة ، وإنما مجرد غورى سيده . »

سألت وهى تسمح دموعها : في « سان لانج »

— نعم يا سيدنى .

ولم يظهر جلال الألم قطع كبيراً على هذا النحو في نظر « جولى » . وقوله الرجل : « نعم يا سيدنى » وقعت من قلبها كوقع أثقال ألم لا تنأى . وكان هذا الصوت الذى يرن بركة في الأذن يؤدي إلى مغص في الأحشاء أه ! لقد كان نفس صوت الشقاء . ذلك الصوت الملمع الرهيب الذى يبدو كما لو كان يجمع في حلقاته سوائى نفاذة .

قالت الماركيزة فيما يحل تقريباً معنى الاحترام : « سيدى » وإذا لم أمت فأذا أصبح إذن ؟

— سيدنى : أليس لك طفل ؟

قالت برود : « بلى » .

ألقي القيس نحو تلك المرأة فطرة شبيهة بالنظرة التى يلقها الطبيب نحو مريضه في حالة الخطر ، وعزم على أن يعمل كل ما يوسعها كي ينزعها من الروح الخبيثة الشريرة التى وضعت اليد عليها سلفاً .

— كما ترين . ياسيدنى . لا منلوحة عن أن نعيش بالأمنا ، ولا

يعطينا العزاء الحقيقى سوى العقيدة الدينية ، فهل تسمحين بأن أعود
أسعدك صوت إنسان يستطيع أن يتعاطف مع كافة الآلام ، ولا يحمل
فيها اعتقاد أى فرع ؟

— نعم يا سيدى .. عذ .. وأشكرك لأنك فكرت فى ..

— على ذلك لى لقاء قريب يا سيدى .

أرخت هذه الزبارة روح الماركيزة : إن صح هذا التعبير ، وكان
الحزن والعزلة قد أثارا قواها يعنف شديد ، وخلف لها القيس فى قلبها
ذلك الأريج البلسمى ودوى الخلاص عبر الأقوال الدينية ، ثم إنها
أحست بذلك النوع من الرضا الذى يسعد السجين عندما يلقى — بعد
أن يتعرف على عمق الوحدة ونقل قيودها — حرقا جارا يطرُق الحائط
دافعا إياه إلى الرد عليه بصوت آخر يتناقلان به التعبير عن أفكار
مشتركة . وهكذا عثرت على نجي . لم تكن تتوقعه ، ولكنها لم تلبث أن
عادت إلى أعماق تأملاتها المريرة وقالت لنفسها مثل السجين : إن رفيق
الأم لا يخفف من القيود أو من المستقبل .. ولم يشأ القيس أن يجعلها
تيفل أو تنفر كثيرا من ألم كانه أنانية وأثرة منذ زيارته الأولى ، ولكنه
تعمد أن يجعلها يفضل فته وطريقته — تقرب من الدين بتقديم فى أثناء
اللقاء الثانى .

وعاد فى الوقع غداة اليوم التالى : فبرهن استقبال الماركيزة له على
أن زيارته كانت مطلوبة .

قال العجوز : « على أى حال يا سيدى الماركيزة : هل فكرت قليلا
فى كتل الآلام البشرية ؟ هل رفعت عينيك نحو السماء ؟ هل رأيت
هناك عظمة العوالم وضخامتها التى تنقص من أهميتها وتسحق غرورها
فقتل الآلام ؟ »

قالت : « لا يا سيدى ، إذ تنقل الفوائين الاجتماعية بشدة على قلبى
وتمزقه فى تحريفا قويا حتى أستطيع الارتضاع بنقسي إلى السموات ،
ولعل القوائين ليست فى قسوة آداب المجتمع . أوه ! المجتمع ! »
— علينا ، يا سيدى أن نطبع هذه وثلك : فالقانون هو الكلمة
والآداب هى أفعال المجتمع .

عادت تقول الماركيزة مبدية حركة الشيطان « طاعة المجتمع » ..
هيه ! يا سيدى إن شرورنا جميعها تنشأ عنه . لم يضع الله أى قانون
للشقاء ، ولكن عندما تجتمع الناس بعضهم مع بعض أفسدوا عمله .
ونحن .. نحن النساء .. لقد عاملتنا المدنية بأسوأ مما عاملتنا الطبيعة به ،
فالطبيعة تفرض علينا الآلام البدنية التى لم تخففها ، فى حين أضافت
المدنية المشاعر التى تخففونها باستمرار ، إذ تخفف الطبيعة الكائنات
الضعيفة ، على حين تحكمون عليها أنهم بأن تعيش كى تقوموا بتسليمها
إلى شقاء دائم . ويؤدى الزواج ، وهو نظام يرتكن إليه المجتمع ، إلى
إشعارنا نحن وحدنا بأنقاله ، فالرجل الحرية ، والمرأة الواجبات . علينا أن
نهيكم حياتنا بأكملها ، وليس عليكم من حياتكم نحونا إلا لحظات نادرة

ثم إن الرجل يختار هناك حيث يرضخ نحن عن عني . أوه ! يا سيدي ؛
لعل أستطيع أن أقول لك كل شيء . . فالزواج على نحو ما يطبق اليوم يبدو
لي دعارة مشروعة . منه تتبع كل الآمنا . ولكن على أنا وحدي - من
بين كل المخلوقات العنسية التي عقدت قرانها قضاء . وقدرك أن ألزم الصمت
أنا وحدي كنت مصدر الشر لأنني أردت هذا الزواج .

وتوقفت وذرفت دموعاً مريرة وبقيت صامتة . ثم عادت تقول :
« في هذا الشفاء العميق ، ووسط هذا المحيط الشاسع من الألم عذرت على
بعض الرمال ، حيث خطوت بقدي ، وحيث تعذبت بغير أدنى لزجاج ،
ثم هبت عاصفة أودت بكل شيء . » وهناك وحدي بلا سند ، أضعف
من أن أقف ضد العواصف . »

قال القسيس : « لأنكون ضعفاء قط حينما يكون الله معنا ، وعلاوة
على هذا إذا لم تكن لديك عواطف ترسيبها هنا على الأرض أفليس
عليك واجبات تتطلب الأداء ؟ » صاحبت هي بشيء من نفاد الصبر :
« دائماً واجبات ! ولكن أين لي العواطف التي تمهنا قوة أدائها ؟ سيدي ؛
لا شيء في لاشي . أو لاشيء من أجل لا شيء . هو أعليك قوانين الطبيعة
والأخلاق والأبدان . هل تريد أن تعطر هذه الأشجار أوراقها دون
ماء النبات الذي يجعلها تورق ؟ والأرواح رحيقها أيضاً . وقد نصب
الرحيق عذدي في منيعه ١٩ . »

قال القسيس : « لم أكن أتكلم معك عن العواطف الدينية التي تولد

الإذعان . ولكن أليست الأمومة إذن يا سيدي . . »
قالت الماركييزة : « كفى يا سيدي سأصدق في كلامي معك . وانفاه !
وبرغم ذلك لا أملك أن أصدق إنساناً القول ؛ إذ أنه محكوم على بالتريف ،
والتقصي منا الدنيا النفاظر المستمر ، وترغماً على قبول العرف السائدة ؛
ولاً رمنا بالعار . هناك أمومتان يا سيدي . وكنت في الزمن القديم
أجهل مثل هذه الفارق ؛ لكنني أعرفها اليوم . ولست إلا نصف
أم . » وكان الأفضل ألا أكونها إطلاقاً . وأليست « هيلين » ابنته !
أوه ! لا ترتعب ! إن « سان لانج » هوة مسخيفة تتبلغ العواطف
الرائقة ابتلاعاً . ومنها تشب وعضات شريرة . وفيها تبار الأبنية
الواحدة من القوانين المناقضة للطبيعة . فعندى طفل ، وهذا يكفي .
لأني أم ، وهذا هو ما أرادته القانون . ولكن أنت يا سيدي . . يا من
تملك روحاً رقيقة رقيقة . . لعلك تهم صرغيات امرأة مسكينة لم
تدع لأى عاطفة مضطربة سبيلا إلى قاتها ، وسيحكم الله على ولكنني
لا أظن أنني أقصر في تنفيذ قوانينه عندما أستسلم لعواطف وضعها في
روحي . وهناك أجد تقبلي بيها . أليس الطفل يا سيدي صورة كائنيتين
وثمره عاطفتين متمزجتين في حرية ؟ فإذا لم يتعلق الطفل بكل وشائج
الجسم ، وبكل حنان القلب . . إذا لم يكن ذكرى لحب لذيذ ، وللأمانة
والأماكن التي كان الشخصان سعداء فيها ؛ وكانت لغتهما ملائمة
بالموسيقى الإنسانية ، وبأفكارهما العذبة الحلوة . فذلك الطفل إذن خلق
غير موفق . نعم فيالنسبة إليهما يجب أن يكون ذلك الطفل تحفة ساحرة

تجمعت فيها أشعار حياتها المزوجة الخفية : إذ عليه أن يكون بالنسبة
إليها منبع انفعالاتها الخصبية : فيمثل ماضيها بأكله : ويستقبلها
بأكله . وطفلي الصغيرة المسكينة « هيلين » هي ابنة أبيها ، لأنها ابنة
الواجب والمصادفة . وليس لها عندى سوى غريزة المرأة أى القانون الذى
يدفعنا دون أن نقوى على مقاومته إلى حماية الخلوة المولودة بين ضلعينا .
أنا لا أستحق المداخلعة من الناحية الاجتماعية . ألم أضح بحبائى وسعاذى
من أجلها ؟ وصباحها يثير شحن أحشائى ؟ وإذا وقعت فى الماء
فسأجرى بسرعة كى آخذ بيدها ، ولكنها ليست فى قلبى . آه !
لقد جعلنى الحب أحلم بأموعة ضخمة معقدة . وقد لأمست برقة
ذلك الطفل الذى انطوت عليه رغائى قبل أن يولد ، أو تلك الزهرة
الخلوة النابتة فى الروح قبل أن تخرج إلى الحياة فى أثناء حلم ضائع .
وأتى بالنسبة إلى « هيلين » ما يجب أن تكون عليه أم نحو ذريتها فى النظام
الطبيعى ، وميسرتنى كل شيء حين تصبح بغير حاجة إلى : إذا انطفأ
النسب انتهت آثاره ! وإذا رزقت المرأة بالزوجة الرائعة التى تجعلها تمتد
بأموعتها فتشمل كل حياة طفلها .. أفليس ينبغي إرجاع ذلك الاستمرار
الإلهى العاطفى إلى إشعاعات مفهوميها الأخلاق ؟ وإذا لم يوهب الطفل
روح أمه كقطعة أول : توقفت الأمومة بالتالى فى قلبها كما تتوقف عند
الحيلوانات . وهذا صحيح وأنا أشعر به . وكلما تكبرت ابنتى تقلص
قلبي . وأدت التضحيات التى قسمت بها نحوها سلفاً إلى انفصالى عنها .

فى حين كان يمكن أن يصير قلبي معيناً لا ينضب بالنسبة إلى طفل آخر
وأنا أحس بذلك ، فبالنسبة إلى هذا الطفل الآخر كان كل شيء
سيصبح منعة بدلاً من أن يكون تضحية . وهذا يأسىدى يقف العقل
والدين وكل شيء فى عاجزاً ضد عواطفى . أهي محطنة تلك المرأة حين
تطمع فى الموت وهى ليست أمّاً أو زوجة مع أنها استطاعت - وذلك لشقاها -
أن تحتص رشفة حب فى مفاتنه غير المتناهية ، وأن تعيش لحظة أمومة
فى مياهاها التى لا حدود لها ؟ ماذا تصبح تلك المرأة ؟ سأقول لك
بنفسى ما سوف تعانيه ! زعدة تهز رأسى : وقلبي : وجسدى مائة
مرة فى النهار ، وشلتها أثناء الليل ، كلما حملت إلى بعض الذكري التى لم
تحسد صور الهناء الذى أراه أكبر مما هو عليه . وتدفع هذه الأوهام
القاسية عواطفى إلى الشحوب . وأقول لنفسى : « ماذا كانت تصير
حياتى لو ... ؟ وغطت وجهها بين يديها وسالت دموعها ثم استعادت
كلامها : « هاك أعماق قلبي طفل منه كان يجعلنى أقبل أشنع النكد !
ولمنا الذى مات عملاً بجميع خطايا الأرض سينفر لى هذه الفكرة
الدنيوية القانية عندى . ولكننى أعرف أن المجتمع حقود . وأقوالى فى نظره
تجديفات . وأنا ألعن قوانينه . آه ! كم وددت أن أقوم بحرب ضد
هذا المجتمع كبراً أحطمه ! ألم يجرح المجتمع كل أفكارى ، وكل وشائعى
وكل عواطفى . وكل رغباتى وآمالى فى المستقبل والحاضر والماضى ؟
فاليوم بالنسبة إلى مشحون بالظلمات ، والفكر فصل حاد ، وقلبي

لنذب عميق ، وطفلي لا شيء ، نعم . عندما تحاطبني « هيلين » أتمنى لها صوتاً غير صوتها ، وعندما تنظر إلى أمتي أن تكون لها عين أخرى لأنها موجودة لكي تؤكد لي كل ما كان ينبغي أن يكون ، وكل ما لا وجود له . إنها لا تحتمل بالنسبة إلى ابنتي أن أبتسم لها وأحاول أن أعوضها العواطف التي تفرقها . إنني أعذب أوه ! يا سيدي ، إنني أعذب عذابي أكبر مما يجب لكي أعيش . وسيعيدني الجميع امرأة فاضلة ! وأنا لم أرتكب خطأ . وسوف يشرفوني ! فقد صارت الحب غير الإرادي الذي لم يكن لي الحق في الاستسلام له . ولكنني إذا كنت قد احتفظت برغباتي الجسدية فهل حافظت على قلبي ؟ إنه لم يكن قط إلا خفوق واحد ..

قالت ذلك وهي تستند يدها اليمنى إلى صدرها ، ثم استمرت : « ولا تكاد ابنتي تحظى بذلك . فهناك نظرات وصوت وحركات أم تعجب بقوة روح الأطفال . وطفلي المسكينة الصغيرة تشعر بذراعي هيران ، ولا بصوتي يرتد أو يعنى تليتان عندما أتألمها وأكلسها وأخذها . فهي تلتقي إلى نظرات اتهام لا أحمل أعباءه ! وأحياناً أرتد لمراي بحكمة في شخصها يحكم على فيها دون الإصغاء لأقوالى .. لتأمر السماء بأن يذهب الحقد فلا يقوم له مقام بيتنا في أحد الأيام . يا الهي العظيم ! افزع في قبري ودعني أفضى في (سان لانج) ! أريد أن أذهب إلى العالم الذي أعثر فيه على روحي الأخرى والذي سأكون فيه أمّاً تماماً ! أوه ! اغفر لي يا سيدي فأنا مجتهدة . هذه الألفاظ كانت

لخففي ، وقد قلها . أه ! أنت أيضاً تبكي ! أنت لا تحترقني . وصاحت في شيء من اليأس حين سمعت ابنتها وهي عائدة من الزهرة « هيلين » ! « هيلين » ! تعالى يا ابنتي ! وجاءت الصغيرة ضاحكة باكية ، فقد جاءت بقراءة أمسكتها ، ولكن عندما رأت أمها تبكي سكنت ، وجلست إلى جوارها . وأعطتها جبينها لتقبلها .

قال القسيس : « ستكون جميلة تماماً » . أجابت الماركةزة وهي تقبل ابنتها بتعبير حار كما لو كانت تسدد ديتاً وتود أن تزيل تأليب الضمير : « إنها تشبه أباهما تماماً » . - أنت محرورة يا ماما .

أجابت الماركةزة : « هيا . دعينا باملاكي » . وانصرفت الطفلة غير نادمة ، ودون أن تنظر إلى والدتها . بل لعلها كانت سعيدة لتجانبها ، وجهها الحزين ، كأنما أدركت سلفاً أن العواطف التي ارتسمت عليه كانت ضارة ، فلا يتسامه هي نصيب الأمومة ولسانها وتسيورها . ولم تكن الماركةزة تستطيع الابتسام . واحمرت خجلاً وهي تنظر إلى القسيس . فقد شاعت أن تبدو أمّاً ولكنها لم تستطع ، كما لم تستطع ابنتها أن تكذب . الواقع أن قبيلات المرأة الخالصة ذات عمل إلى بيت الروح في الملامسة والتربيب أو يخلق ناراً دقيقة تحترق القلب وإذا علت قبيلات من هذه الطلاوة الشبهة ظلت مرة جافة . وأحس القسيس

بهذا الاختلاف ، فقد استطاع أن يستكشف الحياة التي تفصل أمانة
البدن وأمانة القلب . وبعد أن أتى نظرة فاحصة نحو تلك المرأة قال لها :
- « سيدنى .. إنك على حق ، فقد كان الأول بالنسبة إليك
أن تكونى ميتة ... »

آه أثبت تفهم عذابى .. إننى أرى ذلك ، مادمت كشيس
مسيحى قد استطعت أن تستج وأن تؤيد القوارى المنكودة التي أوجت إلى
بها الآلام . نعم ، لقد أدت أن أنتحر . ولكن نقصتى الشجاعة الضرورية
كى أعم خطئى ، وكان جسمى جباناً حين كانت روحى قوية ،
وعندما كفت يدي عن الارتعاد تذبذبت روحى - إننى لا أعرف شيئاً
عن سر هذا الصراع . وهذه الثوبات . إننى لاشك امرأة - مع الأسف
العريق - خالية من الثبات فى رغباتى ، وقادرة على الحب فقط . إننى
أحتقر نفسى ! وفى المساء عندما كان الجميع فى البيت يتامون
- كنت أذهب إلى دورة المياه بشجاعة - وبمجرد وصولى إلى أطرافها
كانت طبيعيتى اهتزة تفرغ من الفناء .. أنا أعترف لك بنواحى ضعفى ،
وبمجرد وجودى فى السرير كنت أخجل من نفسى ، وأعود أشعر
بالشجاعة . وفى إحدى هذه الملاحظات تناولت « اللودنوم » غير أننى
تألمت كثيراً دون أن أموت ، واعتقدت أننى تناولت كل ما كان موجوداً
فى القنينة فى حين كنت قد توقفت عند منتصفها فى الحقيقة .

قال الشيس بصوت جهم تحفته العبرات : « لقد ضعفت يا سيدنى ،

إذا أنك تقدمين إلى الحياة ثم تخونينها ، وتحيين فيها ثم تحترين فيها على
ما تنظرين إليه كتمويض عن شروك ، ثم إنك ستحبلين فى يوم من
الأيام ألم لذلك ... »

صاحت هى : « أنا سوف أذهب لأسلم آخر وأتم ثروات قلبى
إلى أول عشائى يعرف كيف يلعب الملهاة الخاصة بالأهواء ، ثم أفسد
حياتى ، من أجل لحظة لذة غير مؤكدة ؟ لا .. سوف تضى روحى
شعلة نقية . سيدنى ، كل الناس يملكون حواس الجنس عندهم ،
أما من يملك روحه ، ويرضى على هذا النحو كل مقتضيات طبيعيتنا
ذات الانسجام النغمى ، فلا يفعل إطلاقاً إلا تحت ضغط العواطف ،
وهذا لا يلتقى به المرء مرتين فى الحياة . إن مستقبل شتىج .. أنا أعرف
ذلك ، فالمرأة لا تساوى شيئاً بغير الحب ، والجمال لا يساوى شيئاً
بدون اللذة والمتعة . ولكن ألن يعيد المجتمع إثبات سعادتى إذا تقدم إلى مرة
أخرى ؟ إن من واجبي نحو ابنتى أن تكون لها أم شريفة . آه ! لقد
وقعت فى دائرة حديدية لن أخرج منها خالية من عار ، وسوف تضايقنى
واجبات الأسرة المؤداة بلا مشورة ، وسألعن الحياة ، ولكن ابنتى ستحظى
على الأقل بمظهر لائق للأُم . وسأودعها كنوز التفضيلة كى تحل محل
كنوز العاطفة التي حرمتها إياها ، ولا أريد حتى أن أعيش كى أذل وق
المتع التي تبها سعادة الأولاد للأُم . إذ أننى لا أعتقد فى السعادة .
وماذا سيصبح مضير « هيبان » ؟ نفس مضيرى بلاشك . فبأى الوسائل

تضمن الأمهات لبناتها أن يصبح الرجل الذي يستلمن له زوجاً وفقاً لقوانين ؟ إنكم تفصحون المخلوقات المسكنة التي تبع نفسها في مقابل بعض الدراهم لرجل غابر ، فالبخوع والحاجة تحلان هذه العشرة العابرة . هذا في حين يغتر المجتمع ، ويشجع الرغبات الباشرة ، ورغم بشاعتها بين فتاة ساذجة ورجل لم تره أكثر من ثلاثة أشهر فتباع طوبى حياتها . لاشك أن الثمن مرتفع ، إذا كنتم عندما تسمحون لها بالمكافأة على آلامها تقومون بتشريقها . ولكن لا .. إذ أن المجتمع يفترى على أفضل الفاضلات من بيننا 1 ذاك مصيرها في وضوح من كلا وجهيه : الدعارة العامة والخزى والفضيحة ، أو الدعارة الخفية والشقاء . أما البنات المسكينات اللاتي لا يملكن المهر فلنهن يصبحن مجنونات ، ويمتن .. لا شفقة بالنسبة لاهن .. وليس الجمال أو الفضائل قيماً في سوق البشرية ، وأنتم تسمحون مجتمعنا ذلك العرين الخاص بالأنانية . على الأقل حرموا الميراث على المرأة 1 على الأقل أمحو بذلك قانون الطبيعة باختيار رفيقاتكن ، وبالأزواج ممن يفضلن أمنيات القلب .

— سيدى : أحاديثك تثبت لى أن روح الدين وروح المجتمع لم يبلغاك ، وكذلك أنت لا ترددين بين الأناية الاجتماعية التي تشينك ، وأناية المخلوق التي ستدفعك إلى تنفى المنع ..

— هل توجد الأسرة يا سيدى ؟ إننى أنكر الأسرة في المجتمع يقسم الأملاك عند موت الأب أو الأم ، ويرصى كلا بالذهب إلى حيث

يشاء . فالأسرة هيئة وقتية عرضية يحلها الموت بسرعة فائقة ... لقد خدمت قوانيننا البيوت والتركات وخلود الشماذج والتقاليد . لا أرى سوى خراب من حولي .

— سيدى : لن تعودى إلى الله إلا حين تلج عليك يده في الأثقال ؟ وأنعمم أن تجدى الوقت الكافى كي تصلحى ما بينك وبينه . إنك تبحثين عن السلوى لنفسك ، وأنت تخفضين عينيك نحو الأرض بدلا من رفعهما نحو السماء . ولقد أصاب قلبك التماسك والنفخ الشخصى ؛ بل إنك لم تعودى تسمعين صوت الدين على نحو ما يفعل الأطفال الخالون من العقيدة في هذا القرن . ولا تولد لثابت العيش إلا الآلام ؛ وسوف تستبدلن الآلام بالآلام ، وهذا هو كل ما فى الأمر .

قالت وهي تبتسم بحرارة : « سأكذب بيوثك . سأكون مخلصه لذلك الذى مات من أجل » .

أجاب القسيس : « الألم لا يعيش إلا فى الأرواح التي أعدها العقيدة الدينية » .

وخفض عينيه بإجلال كي لا يدع لنفسه فرصة يرى خلالها الشكوك التي ارتسمت في نظره : إذ أحزنه طاقة الشكاوى الصادرة عن الماركيزة وبتعرفه على « الأنا » الإنسانية تحت آلاف الأشكال والصور يشس من أنه يلين هذا القلب الذى كان الشر قد جففه بدلا من أن يرققه ، والذي لم يكن ثمة أمل فى أن تثبت فيه بذرة الباذر السواوى ظلما كان صوبها الناعم قد خنفته فيه ضوءاء الأناية الرهيبة . وبزعم ذلك

فقد بسط أمام عينيه مثابرة الحارين والرسول ، وعاد مستأنفا عدة مرات ، وهو دائم الأمل في أن يدبر تلك الروح النبيلة المزهوة نحو الله ؛ ولكنه فقد الشجاعة يوم أدرك أن الماركيزة لم تكن تحب التحدث إليه إلا لكي تجدد التعلق في الكلام عن ذلك الذي مات ، ولم يكن يجب أن يجعلها تتبلغ من جديد وساملته وهو يقوم بدور الملائط للأهواء ، فكف عن محاوراته ، وعاد شيئا فشيئا نحو قوالب العبارات المعتادة المألوفة ، والأماكن المشتركة في المحادثة .

وجاء الربيع ووجدت الماركيزة بعض العزاء عن حزنها العميق ، وشغلت نفسها بحكم البطالة بأرضها ، وأدخلت على نفسها الشلية بتوزيع الأوامر الخاصة ببعض الأعمال . وفي شهر أكتوبر هجرت قصرها العتيق في « سان لانج » حيث صارت ناضرة جميلة من جديد ، في فراغ الألم الذي كان أول الأمر عنيقا مثل الأسطوانة المقذوفة بشدة ثم صار يخف على صورة اكتئاب على نحو ما تتوقف الأسطوانة بعد ذبذبات أضعف فأضعف تدريجيا . ويألف الاكتئاب من سلسلة من الذبذبات النفسية المتشابهة التي تلمس أولاها اليأس وأخيرها اللذة ؛ في الشباب يكون الاكتئاب فجر الصباح ويكون في الشيخوخة الليل .

وعندما عبرت مركبتها القرية تلقت الماركيزة تحايا القسيس الذي كان عائدًا من الكنيسة نحو بيته ؛ ولكن عندما ردت عليه التحية خففت عينها ، وأدارت رأسها كيلا تراه مرة أخرى ؛ إذ كان القسيس على حق ضد هذه المسكينة « أرتيميز ديفيز »

في سن الثلاثين

كان في حفل السيدة « فيرماني » شاب من الشباب المتألق الذي يتنظر له مستقبل باهر وكان ينتمي إلى أحد البيوت التاريخية ذات الاسم المرتبط ارتباطا وثيقا بمجد فرنسا برغم القوانين نفسها ، وقد أعطته هذه السيدة بعض رسائل تركية إلى صديقتين أو ثلاث من صديقاتها في مدينة « نابلي » بإيطاليا ، وكان السيد « شارلي ديفاندينيس » - وهذا اسم ذاك الشاب - قد حضر لكي يشكرها ذلك ، ويستأذنها في التغيب وبعد أن أدى « ديفاندينيس » جملة مهام باقتدار ، عينوه أخيرا ملحقا مع أحد وزرائنا المفوضين المرسلين إلى مؤتمر « ليباخ » وأراد أن ينتهز فرصة رحلته لكي يدرس بإيطاليا .

كان هذا الاحتفال إذن نوعا من الوداع للمباهج الباريسية ، ولتلك الحياة السريعة ، ولذلك الإحساس من الأفكار والمنبع التي تنجني عليها غالبا ، ولكن كم يحلو الاستسلام لها ؛ وعلى الرغم من أن « شارلي ديفاندينيس » قد اعتاد منذ ثلاث سنوات أن يزور العواصم الأوروبية ، وأن يهجرها بفضل نزوات مضميره الدبلوماسي ، كان يأسف لمغادرة « باريس »

بسبب بعض أشياء قليلة . ولم يعد لتساء تأثير عليه إطلاقاً ؛ إما لأنه نظر إلى العاطفة الصادقة كما لو كانت تحتل مكاناً أكثر مما ينبغي في حياة رجل السياسة ، وإما لأن المشاغل الحقة خلال الغزل النطحي كانت تبدو في نظره أرفع مما ينبغي بالنسبة إلى الروح القوية . ولدينا جميعاً ادعاءات ضخمة فيا يتعلق بقوة الروح . إذ لا يوافق أى رجل في فرنسا - مهما كان مستواه العادى - على أن يعد مجرد روحانى .

وهكذا كان « شارل » يرغم صغر سنه يكاد يكون في الثلاثين من عمره قد تعود سلفاً للفلسفة أعنى الأفكار والنسائج والوسائل في حين كان الرجال في مثل عمره يشغلون بالعواطف والمذاقة والأوهام . فكبح جماح الحرارة وطوس الطبيعيين لدى الشباب ، ودفعهما إلى أعماق روحه التي أسهت عليها الطبيعة الكرم والأريحية . وكان يجهده في أن يكون مديراً رزيناً ، وفي أن يعصب الثروات الأخلاقية التي كانت من نصيبه في أنماط وفي أشكال محبة وفي حيل مغرية ، وهى المهمة الحقيقية للطموحين ، ويجرد دور بائس أو مشغولية بقصد بلوغ ما يطلق عليه اسم : المركز المرموق . وأخذ يلقى نظره الأخيرة على صالونات الرقص . وقبل أن يغادر الحفل ، أراد بلا شك أن يحمل معه صورة ذهنية للمكان ، مثل أحد نظارة الأوبرا الذى لا يخرج من « اللوج » دون أن ينظر إلى اللوحة الأخيرة ولكن بنوع من الخيال المتطرف الذى يمثل قهقهة كان السيد « ديفاندنبس » يدرس الحركة ذات الطابع الفرنسى البحث . والوجه المألقة الضاحكة

في ذلك الاحتفال الباريسى ، مع مقارنتها في الفكر بالسحنات الجديدة والمناظر الرائعة التي تنتظره في (تابلو) حيث عقد العزم على أن يمضى عدة أيام . قبل أن يتسلم عمله . وبدأ كأنه يقارن فرنسا الصغيرة - التي تستغرق دراستها أمداً طويلاً ، بلادلم يكن يعرف عاداتها ومواقفها إلا عن طريق المعلومات السبعية المتناقضة . أو عن طريق كتب معظمها سبى الإعداد . ومرت حينئذ برأسه بعض الأفكار الشاعرية إلى حد ما ، من تلك الأفكار التي أصبحت اليوم عادية جداً ، وأجابت على غير علم منه عن تينات قلبه الخفية الذى كان شديد التقصى أكثر مما كان مدفوعاً بدافع الملل . كما كان خالياً أكثر مما كان ذابلاً .

كان يقول لنفسه : « هالك أكثر السيدات أناقة وغنى ومكانة في (باريس) ها هنا توجد شهورات العصر ، وذائعات الصيت المرموقات وذوات السمعة الأرستقراطية والأدبية . ها هنا فنائون ماهتنا رجال السلطة . ويرغم ذلك لا أرى سوى حيل صغيرة وألمان من الغرام الذى يولد ميئاً ، والابتسامات غير الناطقة ، والزفراء بلا فسوخ ونظرات خالية من القلب ، وفكر ضخم يعثر بلا هدف .. كل هذه الوجوه البيضاء والوردية تبحث عن السرور أقل مما تبحث عن السرى ؛ إذ لا يوجد انفعال واحد صادق . وإذا شئت فقط الريشات الموضوعية وضعاً جيداً والكريشات الشفافة الناضرة . والتزين الجميل . والنساء النخيفة ،

إذا كانت الخبايا في نظرك هي مجرد واجهة سطحية تمس
مساً خفيفاً ، فهناك إذن عالمك . هل ترضى بهذه العبارات الخالية
من المدلول ، وتلك التصنعات الساحرة ، ولا تعنيك عاطفة في القلوب ؟
عن نفسي أشعر بالاشتزاز من كل هذه الخيل النافهة التي تنتهي
بزواج ، ومنصب مساعد محافظ أو مدير محلي للضرائب ، وإذا كان
ثمة حب فعن طريق الترتيبات السرية طالما كانت أمثال هذه العاطفة
مصدر خجل . إنني لا أرى واحداً من هذه الوجوه الضعيفة يكشف عن
روح تحلو إلى فكرة كما تحلو إلى تأنيب الضمير . فالندم والشقاء
يختفيان في خجل وراء المداعب والملمع ؛ ولا أكاد أحفظ واحدة من
تلك النساء اللاتي كنت أحب نزلهن واللأى يسقن المرء إلى هاوية .
وأين يجد المرء هذه الدفعة في باريس ؟ فالتخجر تحفة تعلق فيها على
مسار ذهبي ويزين بخلاف جميل ؛ وكل النساء والأفكار والعواطف
تشابه ، ولم تعد هناك أي ميول ؛ لأن الترديات انخفضت ، وتساوت
كل الرتب والعقول والنروات ، ولبسنا جميعاً الملابس السوداء كأننا نلبس
الحداد على فرنسا الميتة . إننا لا نحب الأقربان . وبين عاشقين من العشاق
لا يد أن تكون ثمة فوارق تزال وأبعاد تغطي ، وسحر الحب ذاك قد اختفى
منذ ١٧٨٩ ! وليس ملتنا وعاداتنا الباهتة إلا نتيجة النظام السياسي . وفي
إيطاليا كل شيء على الأقل مرسوم بشكل قاطع ، والنساء هناك لا تزال
حيوانات مؤذية ، أو غايات خطيرة ، ليس لها من القتل أو المنطق إلا
ما يتصل بأذواقهن ورغباتهن ، وينبغي الحذر منهن كما يحذر المرء من الخمر ..

وجاءت السيدة « فيرماني » تقطع هذه المتاجرة ذات الألف فكرة
من الأفكار المتناقضة المضطربة غير المستوفاة ؛ وكل فضل الأحلام
يركز في عمومها .. أليست الأحلام ضرباً من البخار الذهني ؟
قالت وهي تأخذ بدراعه : « أريد أن أقدمك إلى السيدة التي
ترغب رغبة كبيرة في التعرف عليك ، بعد كل ما سمعته عنك » .

وقادته إلى « صالون » مجاور حيث أشارت بإيماءة وبإسماة ،
ويتنقلة بباريسية مخضبة نحو امرأة جالسة عند ركن المدفأة .

سأل الكونت « ديفاند بيتيس » بقوة : « من هي ؟ »
- هي امرأة من المؤكدة أنك حاولت نفسك بشأنها أكثر من مرة ؛
لكي تثنى عليها ، أو تلعبها .. امرأة تعيش في العزلة .. سر حقيق .

- لو كنت رحيمة مرة واحدة في حياتك عن فضل فأخبريني
باسمها ؟

الماركييزة « ديجليسون » .

- سوف أذهب لأخذ درساً بالقرب منها ، فقد جعلت من
زوج ضئيل القدر رجلاً لا مثيل له في فرنسا . بل جعلت من رجل ناه
كفاية سياسية . ولكن أخيراً .. هل تعتقد أن لورود « جريغيل »
مات من أجلها ، كما زعمت بعض النساء ؟

- من الخنسل ؛ فند تلك المغامرة الصريحة أو غير الصريحة
تغيرت المرأة المسكينة . لم تعد تدخل المجتمعات . لاشك أن هذا حدث
امرأة في الثلاثين

من أحداث باريس أن تبقى فيها أربع سنوات . وإذا كنت تراها هنا .
وتوقفت السيدة « فيرويانى » ثم أضافت في تعبير رقيق .. لاني أنسى أنه
ينبغي على أن أصمت . اذهب وتحدث إليها .

يقى « شارل » لحظة ساكنة ، وقد أسند ظهره إلى إفريز الباب وهو
مشغول تماماً بفحص امرأة صارت مشهورة : دون أن يلم أى شخص
بالدواعى التى بنيت عليها شهرتها . والجميع يقدم عادة الكثير من هذه
النودر الغريبة . ومن المؤكد أن شهرة السيدة « ديجليموي » لم تكن أكثر
غراية من شهرة بعض الرجال العامين دائماً فى عمل مجهول .. فرجال
الإحصاء يقال لأنهم متعشقون فى الإيمان بالحساب الذى يحرصون على
إذاعته . والسياسيون الذين يعيشون على مقال صحيفة .. والمؤلفون
أو الفنانين الذين يظل عملهم دائماً محصوراً فى الأوراق المالية ورجال
علباء مع أولئك الذين لا يعرفون شيئاً فى العلم ، كما كان « اسجانا
ريل » متخصصاً فى اللاتينية مع أولئك الذين لا يفقهون حرفاً فى اللاتينية
ورجال تعزى إليهم قدرات وكفايات متفقه فى نقطة واحدة سواء كانت
هذه النقطة هى إدارة الفنون أو مهنة ذات شأن كبير فهذه العبارة
الرائعة : « ذاك تخصص » يبدو أنها ابتكرت لهذه الأنواع من الحيوانات
عادمة الرأس فى السياسة والأدب .

وبقى « شارل » مدة أطول فى تأمل لم يكن يريده ، ولم يرض عن كونه قد
قد اشغل بالمرأة إلى هذه الحد القوى . لكن حضور هذه المرأة أيضاً

دل على مدى خطأ الأفكار التى كان الدبلوماسى الشباب قد اعتقدها
منذ لحظة سابقة عن مظهر الحفل .

وكانت الماركييزة حينذاك فى سن الثلاثين ، وكانت جنبيلة برغم
نحافة شكلها وبرغم زرقا المنهاية ، وكان أكبر عوامل جاذبيتها يتركز
فى سماء وجهها الذى كان هدوءه يتم عن عمق عجيب فى الروح ، وكانت
عينها مثقلة بالبريق ولكن كأنها محجوبة بفعل فكر دائم ، ففصح عن
حياة محمومة وعن استسلام عريض ، وفادراً ما كانت جفونها ترتفع
بعد أن انخفضت على الدوام ، نحو الأرض فى تعفف .. وإذا كانت
تلقى بعض النظرات حيفاً فقد كانت تؤذيها فى حركة حزينة ، لم
أيتها لقلت إنها تحفظ نار عينها من أجل تأملات غيبية ، كذلك كان
كل رجل . تتميز يشعر بأنه مجنوب جذاباً غريباً نحو هذه المرأة
الريقة الصامتة .

وإذا كان يحاول التفكير أحياناً أن يستطلع أسرار رد الفعل المستمر
الذى كان يحدث بداخلها للحاضر نحو الماضي ، والمجتمع إزاء عزلتها ،
فإن الروح أيضاً لم يكن اهتمامها أقل بالتعرف على أسرار قلب مغرور
بالألمة بشكل ما . وليس فيها فضلاً عن ذلك ما يكذب الأفكار التى
كانت توحى بها فى مبدأ الأمر . وكل النساء تقريباً من ذوات الشعور الطويل
جداً ، كانت شاحبة اللون . كما كانت بيضاء بياضاً فاصعاً . -
وكانت بشرتها ذات النعومة العجيبة تنهى عما لا يدع مجالاً للخطأ عن حساسية

حقيقية تعززها طبيعة ملائحتها التي تميزت بذلك الكمال الرائع الذي يسكنه المصورون الصينيون على أوجههم الزهرية . ولعل رقبته كانت طويلة بعض الشيء . ولكن هذه الأنواع من الأعناق هي الأكثر رقة . وتبني زعموس النساء متشابهات غامضة مع تموجات الثعابين الجلدية . ولو لم توجد علامة واحدة من آلاف العلامات التي تنكشف بها أشد الطباع خفاء على الملاحظ لكان يكفي أن يفحص بانتهاء حركات الرأس والنوائس العنق الشديدة التشويخ والشديدة التعبير معاً لكي يحكم على امرأة .

وكانت ألفة زوى السيدة « ديجليسون » متسجمة مع الفكر المسيطر على شخصها . وكانت ضفائر شعرها المعقوفة تنشق فوق رأسها ناعماً عالياً لا تدخله أي زينة لأنها كانت قد فارت العسر الذي كانت تهتم فيها بدراسة زينة تجميلها وودعته إلى الأبد . كذلك لا يأخذ عليها المرء إطلاقاً تلك التديريبات الصغيرة في التذلل التي تشوه نساء كثيرات . ولكن مهما كان تواضع الصديري الذي كانت تلبسه فلم يكن يعني تماماً رشاقة خصرها . ثم كانت فخفخة « فستانها » الطويل تبدو في تفصيلاته الرفيعة الشأن . ولو كان مباحاً للمرء أن يبحث عن الأفكار في تسقيق القماش لأمكن القول أن الثنايا العديدة البسيطة في رداها كانت تبلغ بها مصافة أعلى النبلاء . وعلى الرغم من ذلك كانت تفتضح ضروب الضعف الثابتة عند المرأة من مدى العناية الدقيقة التي تبذلها

في يدها وقدمها . ولكن إذا كانت تكشف يدها وقدمها في بعض المناسبات فقد كان يصعب على أشد المنافسات دهاء أن تكتشف في حركاتها أثر عناية أكبر مما يلزم حينها بذات عفوية أو كآلة راجعة إلى عادات طفولية . وكانت هذه البلية من الدلال تغتفر مع شيء من التغاضي الرقيق .

ولا يستطيع المرء أن يعبر ماراً بهذه الكومة من الملامح . وهذه المجموعة من الأشياء الصغيرة التي تؤدي إلى جمال المرأة أو قبحها ، وإلى فنتها أو عدم قبولها ، دون أن يأخذ في بيانها ، وبخاصة عندما تكون الروح كما هو الحال عند السيدة « ديجليسون » واسطة العقد بين كل التفاصيل بحيث فرضت عليها وحدة شبيهة . كذلك كانت هيئتها متناسبة تماماً مع طابع وجهها ومع أناقة زيتها . في بعض السن فقط تعرف بعض النساء المتفتحة وحدها كيف تنسق لغتها مع وضعها . فهل الحزن أو الهناء والسرور هو الذي يعبر المرأة في سن الثلاثين — المرأة السعيدة أو الشقية — سر ذلك انحناء القصب « سيظل » ذلك دائماً لغزاً حياً يفسره كل وفقاً لبرغاته أو أمانته أو نظامه . وكان كل شيء — الطريقة التي تحفظ بها مرقبتها مستندين إلى ذراعي مقعدها ، وتصل أطراف أصابعها في كل يد على طريقة اللاعب ، واستدارة رقبته ، وعدم الاعتناء بجسدها الضعيف المرن في وقت معاً الذي كان يبدو مكسوراً برشاقة فوق العقد ، وتخليه ساقها . وعدم المبالاة بوضعها ، مع حركاتها

المليحة بالتعب - كل شيء كان يوحى بامرأة لا تجد أية متعة في الحياة ، ولم تعرف أي للدائه الحب . ولكن عاشتها في الأحلام ، وتتحنى تحت الأثقال التي تجثم بها الذاكرة فوقها .. امرأة يشت منذ وقت طويل في المستقبل ، وفي نفسها .. أو امرأة خالية من المشغوليات تأخذ الفراغ على أنه عدم .

وأعجب « شارل ديغاندينيس » بهذه النوحة الرائعة ، ولكن بوصفها نتاج صنعة أكثر براعة من السيدات العاديات ، وكان يعرف « ديجليميون » . ومن أول نظرة يلقيها على تلك المرأة - التي لم يكن قد رآها من قبل - استطاع الدبلوماسي الشاب حينئذ أن يتعرف على اختلال النسب والتناقضات الشديدة إذا شئت استخدام اللفظ القانوني بين الشخصين ، بحيث صار من المستحيل بالنسبة إلى الماركية أن تحب زوجها . ورغم ذلك تمسكت السيدة « ديجليميون » بسلوك لا لوم عليه ، ولا تريب « بقيت فضيائها مثار تقدير أعلى من كل الأمرار التي يستشعرها فيها من يلاحظها . وبمجرد انقضاء حركة الاندهاش الأولى بحث « ديغاندينيس » عن أفضل طريقة للاقترب من السيدة « ديجليميون » وأراد بحيلة تافهة من حيل الدبلوماسية أن يربكها لكي يعرف كيف تستقبل إحدى الإلهات .

قال وهو يجلس بالقرب منها : سيدي ، لقد علمت عن طريق فضول موفق أنني حصلت - لأأدرى بأي صفة - على حظ التفاتك . إنني أدين

لأنك تشكرني بالقدر الذي يناسب ما لم أحظ به إطلاقاً من الفضل المماثل ؛ ولعلك تحسبن على أيضاً أحد أخطائي . ورغم ذلك فلا أود أن أمكن متراضياً .

قالت وهي تضحك : لاشك أنك محظى ياسيدي إذ يجب أن يترك الغرور لأولئك الذين لا يملكون سواه يضعونه على واجهتهم .

وبدأت محادثة حينئذ بين الماركية والشاب اللذين طريقاً - وفقاً للعرف الجاري - في لحظة واحدة جملة من الموضوعات : التصوير والموسيقى والأدب والسياسة والناس والأحداث والأشياء . ثم أدركا في منحنى غير محسوس الموضوع الأبدي للمحادثات الفرنسية والأجنبية وهو موضوع الحب والتعاطف والنساء .

- إننا عبيد .

- إنك ملكات .

ومن الممكن أن تخلص العبارات اللطيفة المتبادلة بين « شارل » والماركية إلى هذا التعبير البسيط عن كل الأحاديث الخاصة والمستقبلية الجارية على هذا النحو . ألا تعني هاتان الجملةتان دائماً أن تقولا في وقت واحد « اجعلي حيك لي .. سوف أحبك » .

صاح شارل « ديغاندينيس » برفقة : سيدي ، إنك تجعليني أندم لنفسي شديداً لمعادرة باريس ، فن المؤكد أنني لن أجده في إيطاليا ساعات مثل هذه اللطافة التي جرت الآن .

— من احتمال أن تعثر على السعادة بأسبدي ، وهي أفضل بكثير من كل هذه الأفكار الذكوية ، صادقة كانت أو كاذبة ، التي تقال كل ليلة في باريس .

وحصل « شارل » — قبل أن يحیی الماركيزة — على الإذن بزيارتها من أجل تقديم تحيات الوداع ، واعتبر نفسه سعيداً جداً لأنها أعطت رجاءه شكلاً من أشكال الإخلاص عندما راح يغط في نوم في نفس الليلة أو في أثناء النهار في اليوم التالي ، إذ استحال عليه أن يطرد ذكرى تلك المرأة ، فأحياناً كان يتسائل : فم تمييز الماركيزة له ؟ ماذا كانت أغراضها عندما طلبت رؤيته ؟ وبني على ذلك تعليقات لا تفقد وأحياناً كان يعتقد أنه وجد الدوافع إلى هذا الفضيل فيتنشئ عند ذاك بالأمل أو يبرء ، وفقاً للتفسيرات التي كان يفسر لنفسه بها هذا التقي المذهب الشائع في باريس ، وأحياناً كان ذلك هو كل شيء وأحياناً لم يكن ثمة شيء . وفي النهاية أراد أن يقاوم ذلك الميل الذي كان يجلبه نحو السيدة « ديجليمون » ولكنه ذهب إليها ، فإن هناك أفكاراً نطبعها دون أن نعرفها ، فهي توجد فيها دون أن تعلم . ورغم أن تلك الفكرة كان يمكن أن تلبس متنافضة أكثر مما تبدو صحيحة فإن كل شخص ذي إيمان صادق يجد فيها ألف دليل في حياته .

وعندما ذهب إلى بيت الماركيزة رضع « شارل » لإحدى العبارات الثابتة سلفاً ضمن تجربتنا ، وليست غزوات فكرنا في النهاية إلا تطورات

حسية : « فامرأة في سن الثلاثين » تجد ميولاً لا تقاوم نحو شباب ، ولا شيء أكثر طبيعية وأشد نسيجاً وحكمة وأفضل في التعيين سلفاً من الارتباطات العصبية التي تعرض لها زوجها في المجتمع بين امرأة مثل الماركيزة وشباب مثل « ديفاندونيس » . والواقع أن « الفتاة » تكون عادة ذات أوهام جملة وعديمة التجربة أكثر مما ينبغي ، وذات جنس يبالغ في تعالقه مع حبها إلى درجة أن الشاب لا يمكن أن يرضى غروره بسببها في حين تعرف « المرأة » عادة كل مدى التضحيات الضرورية ، فهناك حيث تنقاد « إحداهما » للفضول والإغراءات الغريبة على إغراءات الحب تكون « الثانية » معطية لعاطفة واعية . « فالأولى » تستسلم و« الثانية » تختار أليس هذا الاختيار نفسه سلفاً تملأً ضحماً ؟

وتكون « المرأة » الخيرة فيما يبدو مزودة بمعرفة تكاد تكون دائماً قد دفعت ثمنها غالباً من تعاضدتها ، فتعطى أكثر حين تعطي من نفسها ، في حين لا تستطيع « الفتاة » الجاهلة السريعة التصديق في عدم علمها بشيء أن تقارن وتوازن ، أو أن تقدر شيئاً قدره ، إذا أنها تتقبل الحب وتدرسه . فإحداها تتفقتا وتنصحنا في السن الذي نعيش فيه بأن نرعى أنفسنا لنقياد ، حيث تكون الطاعة نفسها متعة ولذة ، على حين نريد الأخرى أن تتعلم كل شيء ، وتكشف سادتها حبها أظهرت الأولى رقتها . وبينما لا تعطيك تلك فرصة الانتصار غير مرة واحدة ، قرعك هذه على النزول المتصل . والأولى لا تملك سوى الدموع

والمنع . في حين تملك الثانية الشهوات وتأنيب الضمير .

ولكى تصبح فتاةً عشيقاً لابد أن تكون فاسدة إلى حد كبير ، وعندئذ يفارقها المرء مشمئزاً . أما المرأة فتجد ألف وسيلة للاحتفاظ بقدرتها وكرامتها معاً في وقت واحد . وبينما تكون الأولى خاضعة خضوعاً مطلقاً ، وهي تلبس ضفائات الفراحة التعيسة . تتنازل الثانية عن الكثير من أجل ألا تتطلب من الحب آلاف التحولات الخاصة به . فالواحدة تتخلى عن شرفها بمحض إرادتها في حين ترتكب الأخرى جناية قتل أسرة بأسرها لمصلحتك . ولا تملك الفتاة سوى دلالة ، وتعتقد أنها عزيزة عن كل شيء حين تخلع ملابسها ، في حين تملك المرأة العديد من التعبيرات والأقوال وتتخفى وراء آلاف الأنفة . فهي تتحسس وترتبت على كل ألوان الزهو والغرور ، أما المستجدة فلا تملك سوى لون واحد . حسب من هذه الألوان .

ويعيش بانفعالات المرأة في سن الثلاثين تردد ورجب وخوف واضطراب مما لا يلقاه المرء إطلاقاً في حب الفتاة . وعند بلوغ هذه السن تسأل المرأة الشاب أن يرد إليها التقدير الذي ضحكت به من أجله ، إذ أنها لا تحيا إلا من أجله . وتشغل نفسها بمستقبله ، وتريد له حياة جميلة ، وتنظمه له على أزواج صمورة ، وتطيع وترجو وتأمّر ، تضع من نفسها وتعلو بنفسها ، وتعرف كيف تواسي في آلاف المناسبات ، حيث لا تعرف الفتاة سوى التأوّه . وفي النهاية تستطيع المرأة

في سن الثلاثين - بالإضافة إلى كل الخاسن التي يتميز بها وضعها - أن تجعل من نفسها فتاة ، وأن تلعب كل الأدوار ، وأن تتميز بالحياء والخفوة وتتحلّى حتى بالشقاء . فبين كل منها ذلك الاختلاف الذي يصعب قياسه عادة بين ما يكون متوقعاً وما لا يتوقع ، أو بين القوة والضعف . فترضى المرأة في سن الثلاثين كل شيء وليس ضرورياً أن ترضى الفتاة شيئاً ، وإلا انحدرت بكيانها .

وتتميز هذه الأفكار في قلب الشاب ، وتؤلف لديه أقوى العواطف والأهواء ، لأن هذه هي التي توحّد لديه بين العواطف المصطنعة الصادرة عن العرف الأخلاقي وبين عواطف الطبيعة الحقيقية .

ويكون عادة الإجراء الرئيسي الحاسم في حياة النساء على وجه الدقة هو الذي ينظر إليه المرأة دائماً بوصفه غير ذي دلالة ، فإذا تزوجت المرأة لم تعد تنسب إلى أحد ، وإنما تصبح ملكة المسكن البني وعبدته . ولا تنفق قداسة النساء مع واجبات المجتمع وحرياته ، وتحرير النساء إفساد لمن . وعند الموافقة على حق نفاذ غريب إلى محراب الأسرة ، أبس في ذلك خضوع ونزول عند رغباته ، وعندما تجلبه المرأة إلى الداخل ، أليس ذلك خطأ ، أو بتعبير دقيق أليس ذلك ابتداء للخطأ ؟ لابد من قبول هذه النظرية في كل صرامتها أو تبرئة الأهواء .

ولقد عرف المجتمع في فرنسا حتى اليوم كيف تبقى في وسط المسافة ، إذ لا يعبأ أهل فرنسا بالشقاء ، وكأنهم أهل (إسبارطة) الذين كانوا

يعاقبون عدم الخلق كما لو كان هو سبب السرة . ولكن قد يكون هذا النظام حكماً جدياً ، ذلك أن الاحتقار العام ينشأ أشنع العقوبات جميعاً في أنه ينال من المرأة في قلبها . وينبغي أن يتمسك النساء كلهن بأن يكنّ موضع تشريف ؛ لأنهن لا يستطعن العيش بدون الاحترام والتقدير . لأن كذلك يطلبن من الحب أول عاطفة ، فأشد النساء قسداً من يبنهن يشترطن قبل كل شيء عفواً وغفراناً عن الماضي ويتبعن مستقبلهن ويسعين لإفهام العشيق الجديد أنهن يستبدلان التكررات التي يأباهن عليهن الخشوع بالهناء الذي لا يتقادم . وليس بأمرأة تلك التي تستقبل شاباً لديها لأول مرة ، ولا تدرك بعض هذه الأفكار عندما تكون بمفردها معه ، وعلى الخصوص إذا كان ذلك الشاب مثل « شارل ديفاندينيس » تامّ التكوين ولطيفاً . وبالمثل قليل جداً من الشبان تنقصه إقامة بعض آماليه الخفية فوق واحدة من ألف فكرة مما يسرع حبه الفطري للنساء الجحيلات اللطاف السخيات البائسات على نحو ما كانت السيد « ديجليمون » .

كانت الماركيزة مضطربة ، وهي تنتظر الإخطار بوصول السيد « ديفاندينيس » وأوشك ذلك أن يكون غنجلاً برغم التأكيد الذي يكاد يكون نوعاً من العادة لدى الدبلوماسيين ، غير أن الماركيزة لم تلبث أن أعطت نفسها تلك المسحة العاطفية التي تحتوى تحتها النساء ضد تفسيرات الغرور . وتستبعد هذه الهيئة كل فكرة خلقية ، وتجعل

الأمر من نصيب العاطفة ، إن صبح هذا التعبير ، مع تلطيفه بأساليب من الآداب العامة . وتبقى النساء في ذلك الوضع المنهم عندئذ أطول مدة يرغبن فيها مكانهن عند تقاطع الطريق الذي يؤدي إما إلى الاحترام أو إلى عدم المبالاة أو إلى الطوى الشديد .

وفي سن الثلاثين فقط تستطيع المرأة أن تعرف حيل هذا الموقف ، فهي تعرف كيف تضحك فيه ، وكيف تمزج ، وكيف تفرق دون أن تعرض نفسها لأية شبهة . وهي تعلم عندئذ الكياسة اللازمة ، لكي تهجم كل خيوط الحساسية في الرجل ، ولكي تدرس الأصوات التي تستخرجها منها . فصبها على نفس مستوى خطورة أقوالها . ولا تستطيع إطلاقاً إذا كانت في تلك السن أن تعتمد على شخصين أصريحة هي أم زائفة ؟ أهي تسخر آم أنها ذات إيمان صادق في أمانها ؟ فبعد أن تكون الواحدة منهم قد أعطتك حتى النزول أمامها ، تستطيع فجأة بكاسة أو بنظرة أو بإحدى الحركات التي يعرف مدى قوتها ، أن تنهى النزول ، وأن تهجره ، وأن تبقى عشيقته سرى مع احتفاظها بحريتها في أن تضحي بك في دعاية ، وفي أن تشغل بك عتية بضعفها ويقوتك . وبرغم أن الماركيزة احتلت مكانها في أثناء هذه الزيادة الأولى ، فوق تلك الأرض الخائبة ، عرفت كيف تحافظ هنالك على أعلى كرامة للمرأة . فقد كانت آلامها الخفية دائماً فوق مرآها المصطنع كسجاية خفية تحجب الشمس بطريقة ضعيفة وخروج « ديفاندينيس » بعد أن كان قد استعذب خلال تلك الغداة لذات

مجهولة ، ولكنه بقي مقتنعاً بأن الماركيزة كانت من تلك النساء اللاتي يكلف غزوهم غالباً إذا أراد المرء أن يشرح في حينه .

قال بعد خروجه : سوف تكون تلك عاطفة من العواطف الطويلة المدى ، أو تجاوباً يجهد « نائب رئيس » طموح مثلي أو برغم ذلك لوائتي أردت حقاً .. إنه أمر مقدر .

لو أنني أردت حقاً ! قد أطاحت أمثال هذه العواطف دوماً بأصحاب المراج العنيد . وفي فرنسا يؤدي حب الذات إلى اقتراف الشديدي .

وعاد « شارل » مرة أخرى إلى السيادة « ديجليمن » وأدرك أنها تجد متعة في محادثته . وبدلاً من أن يستسلم عندئذ بسذاجة إلى هناء الحب ، أراد أن يلعب دوراً مزدوجاً ، فحاول الظهور بمظهر العاشق ، ثم حاول تحليل سير هذه الحيلة الماكرة ببرود ، أي أن يكون عيباً وديبلوماسياً معاً . ولكنه كان كريماً وشائياً ، وكان لابد أن يسوقه هذا الاختيار إلى حب بغير حدود ، وذلك لأن الماركيزة كانت سواء مصطنعة أم طبيعية أقوى منه دائماً ، وفي كل مرة يخرج « شارل » من بيت السيدة « ديجليمن » كان يصير على حذره ، فيخضع مرافق التقدم التي كانت روحه تمر بها لتحليل صارم يؤدي إلى يتبر انفعالاته الخاصة .

قال لنفسه في الزيارة الثالثة : اليوم أدركت من كلامها أنها كانت شقية جداً ، ووحيدة في الحياة ، ولولم تكن ابنها لورغيت في الموت يثقله شديد . لقد كانت في حالة إذعان كامل . والواقع أنني لست أنا لها

ولا قسم الاعتراف ... فلماذا أسرت إلى بكل أحزنها ؟ إنها تحبني .

وبعد يومين لعن الأخلاق الحديثة وهو في الطريق إليها ، وجعل يحدث نفسه : « يأخذ الحب لون كل قرن ، ففي ١٨٢٢ كان مذهيباً ، وبدلاً من أن يثبت نفسه على نحو الزمن السالف بوقائع ، صار موضع نقاش ، وموضع تعليق ، وموضع خطب المناير ، وخلصت النساء بشأنه إلى ثلاث وسائل : فهن أولاً يحاولن أن يضعن عاطفتنا موضع التساؤل ويرفضن أن يمتحننا القدرة على الحب بقدر ما يجبن ، ذلال ! بل نجد حقاً حملته لي الماركيزة هذه الليلة . ثم لهن يظهرن بمظهر الشديديات العامة كي يترن أروحياتنا الطبيعية أو حينا الذاتي . ألا يدعو إلى ملق الشاب أن يجد نفسه يسرى عن نكبة كبيرة ؟ وفي النهاية هن مصابات بهوس العلوية أو الكارثة ! ولا بد أنها ظنت أنني أنظر إليها على أنها عذراء لم تمس . لاشك أن ثقتي الصادقة تستحق أن تصير نظرية رائعة » .

ول يوم من الأيام بعد أن أجهل أفكاره عن التحدي ساءل : « إذا كانت الماركيزة مخلصه ، كانت كل هذه الآلام في مقدور بشر » فلماذا تظهر بهذا الإذعان ؟ لقد كانت تعيش في عزلة عميقة ، وثقات في صمت أحزائها التي جعلته يستتجها ويدركها بصعوبة ، من لهجة معسوبة في التفتحات .

وبذلك تلك اللحظة أهم « شارل » اهتماماً حاراً بالسيدة « ديجليمن »

وبرغم ذلك وجد «ديفاندينيس» - وهو في طريقه إلى موعد لقاء معناد صار بالنسبة إليهما ضرورياً كأنها ساعة محجوزة بغيرية متبادلة - وجد أن عشيقته لا تزال بارعة أكثر مما هي صديقة : وكانت قوله الأخيرة هي : « هذه المرأة بالتأكيد ماهرة جداً » .

دخل ووجد الماركييزة في وضعها المفضل . وهو وضع «الاستئجاب» ورفعت عينيها نحوه دون أن تدير منها حركة : وألقت إليه واحدة من تلك النظرات المليئة التي تشبه الانتماء ، وعبرت السيدة «ديجليمون» عن ثقة وصداقة حقيقية ، ولكن لم يصدر أى تعبير عن الحب . وجلس «شارل» ولم يستطع أن ينطق بكلمة . فقد كان منفصلاً بأحد تلك الإحساسات التي يعوزها التعبير .

قالت بئرة صوت عطف : «ماذا بك ؟»

- لا شيء . بلى .. أفكر في شيء لم يشغلك إطلاقاً إلى الآن .

- وما هو ؟

- ولكن ... لقد انتهى المؤتمر .

- هيه ... هل يجب إذن أن تذهب إلى المؤتمر ؟

وكانت الإجابة المباشرة أكثر بلاغة وأشد رقة من كل التصريحات ، غير أن «شارل» لم يؤدها . وأبدت هيئة السيدة «ديجليمون» صراحة وصلاحة في صداقتها تحطم كل تدبيرات الغرور ، وكل الآمال في الحب ، وكل التحذيرات الدبلوماسية . وكانت تجهل - أو تظهر بمظهر

من تجهل تماماً - أنها موضوع نجب . وعندما رجع «شارل» إلى نفسه بإرتباك قام اضطر إلى أن يعترف بأنه لم يأت بفعل ، ولم يتبع بقول يسمح لتلك المرأة بأن تفكر في ذلك . ووجد السيدة «ديفاندينيس» الماركييزة في أثناء تلك البهرة كما كانت دائماً : بسيطة ، عطفياً صادقة في ألها ، سعيدة بأن يكون لها صديق ، فخور بأن تلقى روحاً استطاعت أن تصغى بروحها . لم تكن تذهب إلى أبعد مما هو موجود أمامها ، ولم تكن تفترض أن امرأة تستطيع أن تقع في إغراء مرتين . ولكنها عرفت الحب واحفظت به للآن . وهو لا يزال يدسه في قاع قلبها . ولم تكن تتخيل أن السعادة تستطيع أن تحمل إلى امرأة مرتين هذه النشوات ، لأنها لم تكن تعتقد فقط في الفكر ، ولكن في الروح أيضاً . ولم يكن الحب عندها ضرباً من الإغواء ، لأنه كان يطابق كل الإغراءات النبيلة .

وعندئذ عاد «شارل» شاباً وقهره رونق ذلك الطبع العظيم ، وودّ لو يتقدم في معرفة كل هذه الأشرار الخاصة بهذا الوجود الذي أذبلته المضادة أكثر مما أذبلته خطيئة ما . ولم تلق السيدة «ديجليمون» سوى نظرة إلى صديقها وهي تسدعه يستفسر عن تزايد الحزن الذي زوّدها جماعها بكل تناسقات الشقاء ، ولكن كانت هذه النظرة الحقيقة كخاتم يمسح به عتد على .

- لا تسلمني مثل هذه الأسئلة بعد الآن ... منذ ثلاث سنوات ، وفي يوم مثل اليوم ، مات ذلك الذي كان يجنّي .. الرجل الوحيد الذي

كنت أزعج أن أضحي من أجل سعادته وهنائه، ولو كان ذلك على حساب قدرتي وكرامتي ... مات لينفذ سمعي وشرفي . ولقد انتهى ذلك الحب شاباً بريئاً مليئاً بالغرور . لقد جرفني الغواية بما يدفع بنات عديدات إلى الضياع .. برجل ذى أشكال مقبولة ولكنه لا يساوى شيئاً . قبل أن أسلم لعاطفة مشبوبة دفعني إليها قدر فريد . وقد جردني الزواج من آمالي واحداً بعد الآخر . واليوم فقدت السعادة المشروعة ، كما خسرت السعادة التي تنسبها إجرامية، دون أن أعرف ما هي السعادة . ولم يبق لي شيء . وإذا كنت لم أعرف كيف أموت فعلى أن أظل على الأقل غليظة للذكرياتي .

ولم تهك وهي تقول هذه الكلمات ، وخففت عينيها : ولفت أصابعها التي كانت قد شبكتها وفقاً لحركتها المعتادة نقداً خفيفاً ، وقالت ذلك ببساطة ، ولكن لهجة صوته كانت لهجة يأس عميق بالدرجة التي تهدو في عمق حبها ، ولم تدع أي أمل « لشارل » واستهوى « ديفاندينيس » ذلك الوجود الرهيب متجسماً في ثلاث عبارات ، « ومعلقاً عليه في صورة لغة يد ، ثم ذلك الألم القوي في امرأة ضعيفة ، وتلك الغوة السحيقة داخل رأس جديبل ، وأخيراً الكلمات ودموع حداد ثلاث سنوات استهواه ذلك كله ، وبقي صامتاً في تواضع لإزاء تلك المرأة العظيمة النبيلة . ولم يعد يرى أي جمال مادي من ضروب الجمال اللذيذة الكامنة ، ولكنه صار يرى الروح الحساسة على هذا النحو من أعلى

درجات الكمال ولاقي في النهاية ذلك الوجود المثالي الذي طالما حلم به وهماً ، وطالما ناداه بشدة ، كل أولئك الذين يمشون الحياة في العشق ، ويبحثون عنه في حماس ، وشوق ، وغالباً ما يموتون قبل أن يستطيعوا التمتع بكل كنوزها التي حملوها بها .

ووجد « شارل » أن أفكاره كانت ضيقة الأفق وهو يسمع لغة كلامها ، أمام ذائق الجمال الرفيع . وإزاء علم قدرته - حيث كان - على قياس تلك الأقوال بالنسبة إلى سمو ذلك المشهد برغم كل ما فيه من بساطة ورفعة ، أجاب بأفكار مبتذلة حول مصير النساء .

— سيدي . لا بد من معرفة كيفية نسيان الآلام أو حفر مقبرة لصاحبها .

ولكن العقل ضيق دائماً بالقياس إلى العاطفة . فالعقل محدود بطبيعة الحال ككل ما هو وضعي ، في حين أن العاطفة غير نهائية . والتفكير العقلي حجباً وحب الإحساس - من آنخص صفات الأرواح الخالية من الإدراك . وقد بقي « ديفاندينيس » صامتاً ، وظل يتأمل السيدة « ديجليمين » ثم انصرف . وكأنما وقع فريسة أفكار جديدة جعلت تكبر من المرأة ، فصار أشبه ما يكون بالمصور الذي ظل يتعامل مع أنماط عادية كهاذج في مرسده إلى أن لقي فجأة « مينسورين »^(١) أم عرائس المتحف ... أكثر القاميل القديمة جلالاً ، وأقلها من حيث

(١) أم البرانس في الجوان القديمة وأبنة أورانوس وآفة الخلقة .

التقدير . وصار « شارل » مولهاً ولهاً عميقاً . وأحب السيدة « ديجليمون »
 بذلك الإيمان الصادق الذى يتميز به الشباب مع تلك الحمية التى
 تمنح العواطف الأولى مصحاء لا يوصف ، وسلامة نية لا يستعيد بها الرجل
 إلا وهى حطام . عندما يجب مرة أخرى فيما بعد : عواطف الذبلة ،
 وتشبهها بالذلة فى الغالب النساء اللاتى يبتعثنها . لأنهن يستعلنن فى سن
 الثلاثين الجميلة ، وقد بلغت ذروة الشاعرية فى حياتهن . أن يحتضن كل
 خط السير ، وأن يرين أيضاً الماضى كالمستقبل . فتعرف النساء إذن
 كل قدر الحب ، ويستمتعن به خشية فقدانه . عندئذ تكون روحهن
 لاتزال حلوة من الشباب الذى يشرع بهجرهن . وتتقوى عواطفهن
 بالمستقبل الذى يخيفهن .

قال « ديفاند بيتس » هذه المرة وهو يشارك الماركيزة : « إننى أحب »
 وليسوء حظى أفع على امرأة مقيدة بذكرياتها . ويصعب الصراخ إذا
 كان ضد ميت لم يعد موجوداً ولا يستطيع أن تصدر عنه حماقات ،
 فلا يسيء إلى أحد إطلاقاً . ولا نعود نرى منه إلا أنبل الصقات .
 أليس معنى ذلك الرغبة فى الميوط بالكدمال ، أكثر من محاولة قتل
 مفاتيح الذاكرة والآمال التى تظل حية بعد عشيق ضائع ، فجرد أنه لم
 يوقظ على التحديد سوى الرغبات ، وهى أجمل ما فى الحب ، وأشد ما فيه .

فتنة وإغراء ؟

وقد كانت هذه الفكرة الحزينة الناجمة عن التثبيط ، وعن تعرف

القليل ، مما يبدأ به عادة حب صادق ، آخر تدبير لدبلوماسيته المختصرة
 ومنذ ذلك الوقت لم تعد لديه أية فكرة خرافية . وصار لعبة فى يد حبه ،
 وضاع فى تقاهات تلك العادة غير ذات . التفسير التى تغننى من كلمة
 ومن سكوت ومن عشم مبهم . وقد أراد أن يكون حبه « أفلاطونياً »
 وجاء كل يوم يستنشق الهواء الذى تستنشق السيدة « ديجليمون » ،
 متخذاً من بيتها قشرة صدفة ومصاحباً لها فى كل مكان ، مأسوراً
 بطغیان عاطفة شديدة تخرج أنانيته بتفانيه المطلق . فالحب عزيزته ،
 وهو يعرف كيف يجد طريقه إلى القلب كأضعف الحشرات عندما تمشى
 نحو زهرتها بإرادة لا تقاوم ولا تخيفها شئ .

كذلك ألا يكون المصير غير محدد عندما تصدق العاطفة ؟ أليس
 ثمة مسوغ لإلقاء المرأة فى كل مقالات الفزع ، إذا صارت تظن أن
 حياتها تعتمد — على الأكثر أو على الأقل — على حقيقة أو طاقة أو ثبات
 مما يضعه عاشقها فى رغبته ؟ الواقع أنه من المستحيل على المرأة وعلى
 الزوجة أو الأم ، أن تصون نفسها ضد حب أحد الشبان . كل ما فى
 قدرتها أن تمنع عن الاستمرار فى لقائه فى اللحظة التى تستخلص فيها
 سر القلب ، ذاك الذى تحسنه المرأة دائماً . غير أن ذلك الدور يبدو
 حاسماً جداً كى تستطيع امرأة أن تقطع به فى سن يثقل فيه الزواج ،
 ويصير مصدر قلق وميل ، وتصبح فيه العلاقة الزوجية فى مرحلة أكبر
 من مرحلة الفتور ، إذا لم يكن زوجها قد هجرها سلفاً .

إذا كانت النساء قبيحات مرهن وأرضاهن حب يجعلهن
جميلات . وإذا كن شابات جذابات فلا بد أن يكون الإغراء من
نفس مستوى مفائنه ، أى أن يكون الإغراء كبيراً . وإذا كن فاضلات
فإن العاطفة الأرضية السامية الجلييلة تحملهن على أن يجدن أى غفران ،
في عظمة التضحيات نفسها التي يقدمنها إلى عشاقهن . وفي عهد الدخول
في ذلك الصراع الشاق . وفي كل موضع شرك . كذلك مامن ديس
أشد عما ينبغي إذا قيس بمثل هذه الإغراءات القوية . والوقاية الوحيدة
للأخلاق البيتية هي الحبس الذي كان مأخوذاً به قديماً إزاء المرأة في
اليونان وفي الشرق ، وصار شائعاً اليوم في إنجلترا . ولكن تحت سيطرة
هذا النظام تنعدم كل زخارف المجتمع : فلا تصوير المهنعات أو الآداب
أو الأنافة في الأخلاق ممكنة . وعلى الأتم أن تختار .

وعلى ذلك وجدت السيدة « ديفاندينيس » حياتها عقب بعض المشهور
من لقاءها الأول مرتبطة ارتباطاً شديداً بحياة « ديفاندينيس » فتعجبت
بغير حيرة ، بل تكاد تكون بلدة خاصة ، في أن تشاركه أذواقه وأفكاره .
فهل استقت حتى أفكار « ديفاندينيس » أم أن « ديفاندينيس » قد صار
متعصباً لأصغر تروايتها ؟ وكانت تلك المرأة الرائعة التي تملكها تيار
العاطفة سلفاً قد قالت لنفسها بالنية الملية الرائعة عند الخوف : أوه !
سأكون مخلصه لذلك الذي مات من أجله .
وكان « باسكان » قد قال : « إن الشك في الله إيمان بوجوده » .

وعلى نفس الوتيرة لا تدخل المرأة في عزائك مع نفسها إلا حين تكون قد
انشغلت . وظلت الماركيزة في اليوم الذي اعترفت لنفسها فيه بأنها كانت
معشوقة تحفظ بين ألف من العواطف المعارضة . وتكلمت الحرفات
في التجربة بلغتها . هل ستصبح سعيدة ؟ هل يمكنها أن تعبر على السعادة
خارج القوانين التي أقام بها المجتمع أخلاقه بالحق أو بالباطل ؟ حتى
اليوم لم تكن الحياة قد أعطتها سوى المرارة . هل كان ثمة نهاية سعيدة
ممكنة للارتباطات التي توحد بين كائنين منفصلين بحكم اللباقات الاجتماعية
ولكن هل تكلف السعادة ثمناً باهظاً ؟ وهذه السعادة التي يطلبها الناس
في حماس - والتي يعد البحث عنها طبعياً ، قد تصادفها في النهاية !
ومن شأن الفصول أن يدافع دائماً عن قضية العشاق .

ووصل « ديفاندينيس » وهي قائمة وسط هذه المناقشة الصرية .
وأخفى حضورها شيخ العقل « الميتافيزيق » (عقل فلسفة ما وراء
الطبيعة) . وإذا كانت هذه التحولات المثالية التي تقع في سياقها
عاطفة مربعة لدى الشاب أو لدى المرأة في سن الثلاثين على هذا النحو ،
فقد تأتي لحظة تلغي فيها الاستدلالات مع فكرة واحدة أخيرة تختلط بإحدى
الطلبات وتقويتها . وكلما طال أمد المقاومة كان صوت الحب عندئذ
أقوى وأشد . وهنا يتوقف إذن هذا الدرس أو تلك الدراسة حول موضوع
« المسوخ » (أى تقديم حيوانات رفع عنها جلودها للدراسة في الفنون
الجميلة عامة) إذا كان من المسوخ به استعارة أحد هذه التعبيرات

الشائقة من فن التصوير لأن هذه القصة تشرح مخاطر الحب وآلية تطوره أكثر مما تصوره .

غير أنه منذ تلك اللحظة كانت تصبى بعض الألوان على هذا الميكمل العظمى فتكسوه بنعماء الشباب ولطافته ، وتبتعث الحياة في البلى . وثبت الحب والقدرة في حركاته ، وترد إليه اليريق والحصل والإغراءات العاطفية وميول الحياة .

ووجد « شارل » السيادة « ديجليسون » مشغولة الفكر . وبمجرد أن قال لها بهذه النغمة النفاذة التي ملأها فن القلب الرقيقة بقدرة أكبر على الإقناع : « ماذا بك ؟ » تحفظت تماماً في إجابتها ، إذ يروح هذا السؤال الحلو بتفاهم رويحي كامل ، وفهمت الماركة بغيرية المرأة المدهشة أن الشكاوى ، أو التعبير عن الشقاء الشخصى الباطنى ، سيكون بشكل ما ألواناً من ألوان المقدمات . وإذا كان لكل من هذه الأقوال دلالة مفهومة من الطرفين غاية هرة لن تضع فيها قدميها ؟ وقرأت في ذاتها نظرة واضحة مشرقة ثم سكنت وقلدها « ديفاندنيتيس » في سكوتها .

قالت أخيراً وقد ذعرت من مدى الطاقة العالية التي تمثلت في لحظة حلت فيها لغة العين تماماً محل العجز عن الحديث : « أيتها مريضة » . أجاب « شارل » بصوت حنون شديد الانفعالية : « سيلتى » الجسد والروح كلاهما بمسك أحدهما بالآخر . ولو حظيت بالسعادة لصرت شابة ناضرة لماذا ترفضين أن تطالبي من الحب كل ما حرمك

الحب إياه ؟ هل لم تعتقدين أن الحياة قد انتهت في اللحظة التي أوشكت أن تبدأ فيها بالنسبة إليك ؟ ضعى ثقتك في رعاية صديق . فكم يكون حاروا أن يكون المرء محبوباً !

— لقد صرت عجوزاً سلفاً . ولا شيء يغفرلى — إذن — ألا أستمر في الألم مثلما كنت في الماضى . وفضلاً عن ذلك يجب أن يحب المرء ، أليس هذا ما نقوله ؟ هيه ! لا حق لى في الحب ، ولا قدرة لى عليه ولا يعجبني شخص فيها عداك أنت ، بعد أن صارت صداقتك تفيض بالوداعة على حياتي . ولن يستطيع إنسان أن يحبو ذكرى لى . وقد أقبل الصديق ، ولكنى أهرب من العاشق . وهل من انكرم في شيء أن أبادل قلباً ذاوياً بقلب شاب . وأن أتلقى غوايات الحب دون أن أستطيع اقتسامها ، وأن أكون سبباً في معادة لا أعتقد فيها إطلاقاً أو أرتعد إذا فقدتها ؟ قد أقبل تضحيته وإخلاصه بالأناثية وأفضل أحكم العقل عندما يكون هو غارقاً في المشاعر والأحاسيس كما أننى قد أبقى هذا كرتي إلى فورة لذاذه . لا ... كما ترى ... الحب الأول لا يعمل محله حب أبداً . ثم في النهاية أى رجل يقبل قلبي بهذا التمن ؟ وكانت هذه الأقوال التي انطبعت في دلال شديد آخر مجهود حكيم . « فلو تراجع ووهن عزمه فسأظل وحيدة معلقة » . وردت هذه الفكرة على قلب تلك المرأة وكانت بالنسبة إليها بمثابة فرغ الصغاف المشلى في تراخ شديد ، والذي يمسك به من يسبح قبل أن يحمله التيار .

وعند الاستماع إلى هذا القرار أفلتت من «ديفاندينيس» اختلاجه غير إرادة كانت أقوى على قلب الماركييزة من كل ما حدث قبل ذلك من ملاحظاته الماضية فما عسى قلب النساء حسناً تويماً هو ما تلقاه لدى الرجال من رقة لطيفة، ومن مشاعر لذيذة يقدر ما لديهم أنفسهم، لكنهم يعتقدون أن اللطف والرفقة هما علامتا الصدق. وكانت حركة «شارل» تفصح عن حب حقيقى. وعرفت السيدة «ديجليمون» قوة حب «ديفاندينيس» من قوة أُلها. فقال الشاب بهرود: لعلك على حق. فالحب الجديد حزن جديد.

وغير موضوع المحادثة، فأخذ يتبادل الكلام في أشياء بلا غرض، ولكنه كان واضح الانفعال، وينظر إلى السيدة «ديجليمون» بانتباه مركز كأنه يراها لأول مرة. وأخيراً فارقها وهو يقول لها في انفعال:

— وداعاً يا سيدتى.

— إلى اللقاء.

قالت ذلك بتدليل قاعم لا يدرك سره سوى صفوة النساء. ولم يجب وبخرج.

وأحست بألف ندم عندما لم يعد موجوداً وعندما صار مقعده الفارغ يتكلم بلألمته، وأخذت تخصي لنفسها الأخطاء. وتتقدم العاطفة تقدماً ضخماً لدى المرأة حين ترى أنها قد عملت عملاً غير كريم، أو أنها جرحت روحاً نبيلة إذ لا ينبغي إطلاقاً تحدى المشاعر

السينة في الحب، لأنها تكون ملائمة تماماً. ولا تدعن المرأة إلا إذا وقعت تحت طائلة الفضيلة. وقول: «الجحيم معيد بالنيات الطيبة» ليس مجرد مفارقة من أحد الوعاظ.

وظل «ديفاندينيس» لا يحضر عدة أيام. وكانت الماركييزة تنتظره أثناء كل ليلة في ساعة الموعد المتعاد بصبر نافذ مليء بتوبيخ الضمير. والكتابة اعتراف، فضلاً عن أن غريزتها كانت تقول لها إنه سوف يعود. وأخضر الخادم بقدمه في اليوم السادس، ولعلها لم تسمع اسمه قط يمثل هذا السرور. وقد أوعبها أن تفرح إلى هذا الحد.

قالت له: «لقد عاقبتنى عقاباً حسناً!»

ونظر إليها «ديفاندينيس» بتعبير أبله، وقال:

— «عاقبتك؟ ... ولكن علام؟!»

وكان «شارل» يفهم الماركييزة فهماً تاماً، ولكنه شاء أن ينتقم لألامه التي كان فريسة لها منذ اللحظة التي اشتبهت فيها.

سأئنه وهي تبسم: «لماذا لم تأت لزيارتي؟»

— لعلك لم ترى أحداً إذن؟

قال ذلك لكي يتفادى السؤال المباشر.

— لقد بقي السيد «ديرولكيرول» والسيد «مارسيه أوديسيجينيون»

الصغير هما هنا، أحدهما بالأمس، والآخر أثناء هذا الصباح قرابة

ساعتين . ورأيت أيضاً فيها أعتقد السيدة « فيرميان » وأختك السيدة « ديلستومير »

ألم جديد ! ألم غير مفهوم عند أولئك الذي لا يحبون في نوح من الطغيان المكتسح الضار الذي تكون أبسط آثاره غيرة وحشية ورغبة متصلة من أجل اختلاس الكائن المحبوب بعيداً عن كل مؤثر غريب عن الحب .

قال « ديفاندينيس » لنفسه : « ماذا ؟ تستقبل وترى أشخاصاً راضين . وتحدثهم في حين أبقي أنا وحيداً تقيساً ! »

ودفن حزته ، وأبقى قلبه في أعماق صدره كتابت الموتى في البحر . وكانت أفكاره من النوع الذي لا يقال ، ومن النوع السريع الشبيه بالأحماض التي تقتل وهي تتبخر . ورغم ذلك غطت السحب جبينه ، وأطاعت السيدة « ديجليسون » غريزة المرأة ، وهي تشاركه هذا الحزن دون أن تلاحظ ذلك . ولم تكن متواطئة مع ذلك الألم الذي أحدثته ، وأدرك « ديفاندينيس » ذلك .

وتحدث عن موقفه . وعن غريمه ، كما لو كان ذلك اقترافاً مما يسر العشاق مناقشته ، وفهمت الماركية كل شيء وقع ذلك من قلبها موقفاً قوياً بحيث لم تستطع مقاومة دموعها . ووجدت تلك اللحظة نفذاً خاللاً أعتاب فردوس الحب . والجنة والناريسا سوى قصيدتين طويلتين تمثالان صيغ وعبارات التقطتين الوحيدتين اللتين يدور حولهما

وجودنا : السرور والألم . أليست الجنة تستظل دائماً صورة من لانهائية مشاعرنا التي لن تصور إلا خلال تفصيلاتها ظالمًا كانت السعادة واحدة ... ألا تمثل النار تعذيب الآلام غير المتناهي ، التي تستطيع أن تنظمها في عمل شعري ، لدى الاختلافات الكبيرة بين كل منها ؟

وكان العاشقان جالسين في إحدى الليالي أحدهما إلى جوار الآخر صامتين مشغولين بتأمل مسحة من مسحات الساء ... هي مسحة الساء حين تكون صافية تلقى فيها أشعة الشمس الأخيرة أصبغاً ذهبية وأرجوانية خفيفة . وفي تلك اللحظة من اليوم يبدو الخفاض النور ببطء شيئاً فشيئاً كما لو كان يوقف مشاعر رقيقة . فتتذبذب عواطفنا ورغباتنا يترامح ، وتستعذب الاضطرابات ذات الطابع العنيف وبسط السكون الهادئ . ونحن نرى الطبيعة السعادة خلال صور مبهمة فلنأخذنا إلى أن نستمتع بهذه السعادة حين تكون دائية منا ، وتدفقنا إلى التدم من أجلها إذا هربت .

ومن الصعب في تلك التحظات الخفية في تسوأتها تحت مظلة من ذلك الوجه الذي تتحد انسجاماته الرقيقة في إغراءات قلبية . من الصعب عندئذ أن يقاوم المرء رغبات قلبه ذات الفتن العديدة ! وبذلك يتضامل الحزن ويتشبه الفرح ويضم الألم . وأهية الليل هي علامة الرغبات التي تشجعها . وبصبح الصمت أخطر من القول وهو يبلغ العيون بكل قوة

لا نهائية السموات التي تعكسها . فإذا تكلم المرء ضاربت الكلمة ذات قوة لا تقاوم . أليس ثمة نور في الصوت وحيدة في النظرة ؟ وكما لو كانت السماء في باطننا نحن ، أو كما لو لم يكن يبدو في السماء ؟ ورغم ذلك كانت « جيوليت » و « فاندنيس » .. لأنها امتلعت لتسمية نفسها على هذا النحو المألوف على لسان ذلك الذي كان يسرها أن تناديه « شارل » كانا إذن يتكلمان في موضوع بدائي خلال معادتهما ، بعيد كل الجهد عنهما . وإذا لم يعودا يعرفان معنى أقوالهما فلهما كانا يصفيان بالتأذ للأفكار الخفية التي كانت تنطفيها تلك الأقوال .. وبقيت يد الماركيزة في يد « فاندنيس » وتركها له دون أن يكون في اعتقادها أنها كانت متفضلة بذلك عليه .

وانعطفا معاً حتى يريا أحد تلك المناظر المهيبة المايمة بالجليد ، وبأحورم الثلج . وبالظلال الرمادية التي تخضب أضلاع الجبال الغربية . وكانت إحدى هذه الوجوات ملائي بمقابلات مفاجئة بين الذهب الأحمر وبعض اللسات السوداء التي تزين السماء في شاعرية عابرة لا مثيل لها ، وأحزمة رائعة تبدو في وسطها الشمس كالأكفان الجميلة التي تحيط بها وهي تلفظ النفس الأخير .

في تلك اللحظة هفتت شعور « جيوليت » على خلد « فاندنيس » وأحسّت هي بهذا الاحتكاك الخفيف ، وانفضت بقوة بسببه ، وأرضاها ذلك أيضاً ، لأن كلامهما كان قد وصل شيئاً فشيئاً إلى إحدى هذه

الأزمات التي لا تفسر ، حيث يبلغ الهدوء الخواص أمام مشهد رقيق حتى إن أقل صدمة تؤدي إلى قرف الدموع ، وإلى طلع الشقاء ، إذا كان القلب ضائعاً بين هذه الكتابات ، أو يزودها بلذائذ لا توصف ، إذا كان ضائعاً بين دوار الحب . وضغطت « جيوليت » لا إرادياً تقريباً على يد صديقها ، وأعطى هذا الضغط القرى عجل العاشق شجاعة . وانصهرت كل أفراس هذه اللحظة ، وكل آمال المستقبل ، في هذا الانفعال ... انفعال التزيينة أو الملامسة الأولى ، وتلك التهيئة البريئة البسيطة التي تركها السيدة (« ديجليمون ») تقع على خلد ، وكلما كانت الملاحظات حادثة كان الخطر أكبر وأقوى . ولسوء حظهما معاً لم يكن ثمة ادعاء أو تزييف ، لقد كان ذلك نفاهماً بين وحين حاولتين يفصلهما القانون ، ولكن يرعبلهما إغراء الطبيعة . وفي هذا اللحظة دخل المرء « ديجليمون » يقول :
— لقد تغيرت الوزارة ... واشترك علك في مجلس الوزراء الجديد .

وهكذا أمامك فرص كبيرة لتصبح سفيراً يا « فاندنيس » .
ونظرت « جيوليت » و « شارل » كل إلى الآخر في حمرة الحجل . فكان لدى كليهما نفس الفكرة ونفس تأنيب الضمير . رباط غنيق وقوي جداً بين لصين قتل رجلاً ، كما هو تماماً بين عاشقين مدنيين بسبب قيلة . وكان لا بد من رد على الماركيز .

قال شارل « فاندنيس » : لا أريد أن أغادر باريس بعد اليوم .

عاد الماء يقول متكلفاً رقة الرجل الذي يكتشف سرّاً : « نحن نعرف
السبب ، إذ أنك لا تريد أن تهتد عن عمك حتى يهلك وارثاً لإقطاعيته » .
وهربت الماركيّة إلى غرفتها وهي تقول عن زوجها هذه العبارة
الحقيقة : « إنه حقّاً لشديد الغباء ! » .

٤

أصبع الرب

بين « بوابة إيطاليا » وشارع « الصخرة » - وعلى « البولفار » الداخلي
الذي يؤدي إلى حديقة النباتات - متطور جدير بأن يسحر الفنان
أو السافر المتعب من كثرة مياهاج الإبحار - فإذا وصلت إلى بوز
خفيف ينحني « البولفار » المتنزّه الكبير من عنده في رقة الممشى
القائم وسط الأحراش الخضراء الصامتة : ويصبح مظلاً بأشجار كبيرة
مورقة : وجدت أمامك عند قدميك وادياً عميقاً تحشد فيه مصانع تصف
رفية ، تنائر فيها الخضرة - وتسقيها مياه قادمة من نهر (البيقر) أو من
« مصانع » الجوبلان « والسجاد » . وكان يرى فوق السطح المقابل بعض
آلاف من أسطح البيوت المتزاحمة كالزعرور في الزحام ، والتي تأوى
فقراء ضاحية « سان مارسو » وتطل « قبة البائسين » « مقابر العظماء »
والقبة الخزينة الأميانية الخاصة « يقال دى جراس » (مدرسة الطب
العسكرية . ومستشفاهها) في زهو وخيلاء كقدينة بأكملها متدرجة العلو
ذات مراق (مصاطب) مرسومة بشكل غريب في طرق متعرجة .
ومن هناك تهبو النسب بين معالم الأثرين التاريخيين ، هائلة فتسحق

البيوت الحشة وأعلى أشجار « الحور » العالية على الوادى الصغير ،
ويظهر إلى ناحية اليسار « المرصد » خلال التوافد والممرات التى ينفذ
منها الضوء مكوناً خيالات متطرفة لا تفسر لها كأنه شبح أسود هزيل .
وعن بعد كان يرق المصباح الأنيق الخاص « بالأنفاليد » (مقبرة نابليون)
بين كتلة مائلة إلى الزرقة فى حداثى « للكسمبور » والأبراج الرومانية
لكنيسته « سان سوليس » وكانت هذه الخطوط الهندسية ترى من
هناك مختلطة بأوراق الأشجار وبالظلال . وهى تخضع بلا توقف
لتزوات سماء متغيرة الألوان أو الضوء أو المنظر . فعلى بعد منك تؤث
الآنية الفخياء ، ومن حورك تلتوى أشجار متموجة وطرق ضيقة رفيعة
كالتعابين . إما إلى اليمين فيمكنك أن تلمح خلال قطاع كبير من هذا
المنظر الفريد بركة ماء طويلة يضاء على قنات « سان مارتن » ذات
الإطار الحجرى المائل إلى الحمرة والمزين بأشجار « الزيزفون »
والذى تحف به أبنية رومانية حقيقية خاصة بشرفى الوفر . وهناك فى
آخر المسطح تطلت نلال (بلقيس) المليئة بالأشجار والحملة بالبيوت
والطواحين ، تطلت أحياناً بما يجرى فى السحب .

وبرغم ذلك توجد مدينة لا تراها بين صف الأسطح التى تحف
الوادى الصغير وذلك الأفق الذى يشبه فى إنهامه ذكرى الأطفال ...
مدينة ضخمة ضائعة كما لو كانت فى هوة بين أطراف قسم « لايبتييه »
وذروة مداخن « ليست » .. أى بين الألم والموت . وتساعد منها أصوات

هدير أصم شبيه بهدير الخيطة الذى يزجر وراء حضور عالية كما لو كان
يقول : « إني هنا » . وإذا كانت الشمس تلقى أمواج ضوءها على هذا
الوجه من أوجه باريس وتقيه وتذيب خطوطه ، وإذا كانت تضئ فيه
بعض نوافذه . وتغسل حجارته وتشعل الصلبان الذهبية ، وتجعل لون
الحوائط أبيض وتحيل الجو إلى حجاب شفاف من شاش الجراحنة ...
وإذا كانت الشمس تخلق شئى المتقابلات الفنية من الظلال الخيالية ، وإذا
كانت السماء صافية والأرض تصطفق ، وإذا كانت الأجرام تنطلق ،
يمكنك إذن أن ترى من هناك جمال واحدة من هذه الإبداعات الفنية
البلغية المعيرة التى لا يستطيع الخيال أن ينساها إطلاقاً ، والتى ستجعمك
متيحاً محتوناً بها كأنها أحد مناظر « نابولي » أو « أمطيدول » أو « فلورينا »
الرائعة ، إذ لا ينقص هذه المعزوفة أى ضرب من ضروب الانسجام .
فهناك تهندس ضوءاء الناس وهدهو العزلة الشاعرى وصوت ملايين
الكائنات وصوت الله . هناك ترقد عاصمة نائمة تحت أشجار السرو
الدائنة فى مداخن « بيرلاشيز » .

فى صباح أحد أيام الربيع ، وفى لحظة كانت الشمس تسبخ فيها
بريقاً على كل جمالات المنظر . وقفت أناملها مستنداً إلى شجرة
ضخمة من أشجار « الدردار » التى تسلم إلى الرياح زهورها الصفراء ،
ثم فكرت بمرارة أمام مرأى هذه التروات ، وهذه اللوحات الجبلية ،
بشأن الازدراء الذى نديه نحو بلادنا اليوم حتى خلال صفحات كتبنا

ولعلت هؤلاء الأثرياء المساكين الذين أصابهم القرف حيال بلادنا..
فرنسا الجميلة ، فيذهبون لشراء حق مهانة وطنهم بسعر الذهب حين
يرورون خطفاً أو عدواً مواقع إيطاليا التي غدت عادية إلى حد بعيد ،
وحين يفحصونها من خلال نظاراتهم .

وتأملت باريس الحديثة بحب ، وذهبت في أحلامي إلى أن دوتى
قجأة صوت قبة ، فأزعج وحدي ، ودفع بفلسفى إلى الحرب . وفي
المشي المقابل الذى يتوج المتحدر السريع الذى تهذر المياه عند
أسفله ، وعند النظر إلى ما وراء جسر «جوبلان» .. اكتشفت امرأة
بلدت لى كأنها لا تزال شابة ، وفي هندام بسيط من أعلى لون فى الأفاقة .
وكأنما كان حياء وجهها الرقيق يعكس السعادة المرححة التى تتخلل
النظر .

وأزلت شاب وسيم إلى الأرض طفلاً صغيراً من أجمل ما يمكن رؤيته
من الأطفال . بحيث لم أكن أستطيع أن أعرف ما إذا كانت القبة
قد دوت فوق حدة الأم أم فوق حدة الطفل . وكانت تلعب فى عيني الشاب
وحركاته وابتسامته وابتسامة الشابة فكرة واحدة بعينها ، ناعمة حارة
وتشابت أدغهما فى خفة مرحة متزايدة ، وكأننا يقتربان أحدهما من
الأخر بفهم رائع فى الحركة . بحيث انشغلا بنفسهما ، ولم يلحظا
وجودى إطلاقاً. ولكن طفلاً آخر بدا غاضباً ظاهر الانتياء ، وأدار لهم
ظهره بحيث ألقى نظراته نحوي وبها انطباعات تعبير أخاذ . وقد ترك

هذا الطفل أخاه يجرى بمفرده ، فأحياناً ينخلف وأحياناً يستبق والدته
والشاب .. وبدا هذا الطفل فى ملبسة كالأخر فى رقة بالغة . ولكن
الأشكال كانت أكثر حلالة .. وكان صامتاً ساكناً وفى وضع التعيان
الخاقد . لقد كانت هذه فتاة . وكان ثمة ما يشبه آلية الأفعال الغريزية
فى نزعة السيدة الجميلة ورفيقها . وقد سعدا من أجل اللهو بأن
جاءا أرجاء المكان البسيط الذى كان موجوداً بين البحر الصغير وبين
عربة واقفة عند منعطف الطريق . وكأنهما يبدآن من جديد دوماً
أعيام حياتهما . فيتوقفان ويتأمل أحدهما الآخر ضاحكين تحت
تأثير نزوات الحديث الذى كان يتبدل مرة بعد مرة . فيصير ملياً
بالحياة أو سقيماً أو مجنوناً أو وقوراً .

واختفيت وراء شجرة «الدردار» الغليظة أقرب فى إعجاب ذلك
المشهد اللذيذ ، وكنت جديراً بلاشك بأن أشعر باحترام نحو الأبرار
ما لم أكن قد رأيت من وجه البيت الصغيرة الحاملة الصامدة آثار فكر
أعنى كثيراً مما يجرى فى سلوك تلك السن . وعندما استدارت أعها
والشاب ، بعد أن أصبحا بالقرب منها ، أخذت تميل غالباً برأسها
قلى مداراة . وقدفهما كما قدفت أخاها بنظرة متهربة شاذة حقيقة .
ولكن ما كان شئ ، يستطيع أن يعبر عن الرقة التفادفة ، والسذاجة
الحبيبة ، والانتباه الشرس ، الذى كان ينبض فى ذلك الوجه الطفولي
فى العينين الخاطبتين بدائرة زرقاء حين تريت السيدة الجميلة أو رفيقها

على خصالات الولد الصغير الشقراء ، وحين تصغطان برفق على رقبتيه الطرية ، أو على حمولة البيضاء التي كان يلبسها ، وهو يحاول في ذلك الوقت بصبيانية الطفولة أن يحس بجوارحها ، لاشك أنه كان ثمة عاطفة رجل على هيئة الوجه المزبل الذي كانت تتمتع به تلك الفتاة الصغيرة الغريبة . لقد كانت تعانق أو تفكر .

والواقع من ذا يتنبأ بتأكيد أكبر عن موت هذه المخاوف المزهرة ؟
أعن المرض الكامن في الجسد ينجم ذلك ، أم عن الفكر المبكر الذي يلتهم أرواحهم التي لم تكند تنبت ؟ من المحتمل أن تكون الأم على إلمام بذلك . أما أنا فلا أعرف الآن شيئاً أبشع من فكرة شيخ مسن مطبوعة فوق جبهة طفل . ولعل التجديف يكون أقل وحشية أيضاً على شفقي عذراء . ولعل كل شيء .. الموقف الذي يكاد يكون مليئاً بالحمق لتلك الفتاة المفكرة في تلك السن ونادرة حركاتها . كل شيء كان يهمني فيها فأخذت أتأملها بغربة . وجعلت بشيء من الخيال المتطرف الطبيعي عند الملاحظ ، عادة أقارن بينها وبين أخيها مع تعمد أن أواجه العلاقات والاختلافات التي كانت توجد بينهما . فالأول كانت ذات شعر أسمر وعيون سوداء وقوة سابقة على الألوان مما كان ينشئ تعاضداً غريباً مع شعر الرأس الأشقر والعيون الخضراء بلون البحر والضعف المدلل لدى الأصغر وكانت سن الكبرى بين السابعة والثامنة في حين أن الآخر يكاد يكون في السادسة . وكانا يلبسان على نحو واحد ، ورغم ذلك لاحظت - وعندما

تظرت إليهما بإمعان - فوق حراجل قصصتهما اختلافاً طفيفاً ، ولكنه كشف لي فيما بعد رواية طويلة في الماضي ، ومأساة درامية عامة للمستقبل . وقد كان ذلك قليلاً جيداً .

كانت تطر زحملة الفتاة الصغيرة المسمر حاشية ثوب بسيطة في حين ذات تزين حمولة الابن الأصغر تطريزات جميلة تفضح سرّاً قليلاً وهو التفضيل المضمّن الذي يقرؤه الأطفال في أرواح أمهاتهم كما لو كان عقل الله فيهم . وكان الابن الأشقر لامبالياً مرحاً وأشباه ما يكون بيت صغيرة إذ كانت بشرته البيضاء ذات نصارة ، كما كانت حركاته ذات دلال ، وحيته وجهه ذات رقة . في حين كانت الكبرى أشبه ما تكون بغلام سقيم ورغم قوتها وجمال ملامحها ويريق لون وجهها ، ويدت عيناها الحادتان المخردتان من ذلك البخار الرطب الذي يهب نظرات الأطفال قسراً من الجاذبية كما لو كانتا عيني واحد من حاشية الملوك . جففتهما نار باطنة .

وفي النهاية كان لبياضها بعض الفروق الدقيقة في عدم التألق مع الميل إلى اللون الزيتوني ، وهو عرض من أعراض الطابع الشخصي القوي الحازم ، وجاء آخرها الأصغر مرة بعد مرة يقدم إليها في دلال مؤثر ، وفي نظرة جميلة ، وبسحنة معبرة ، كانت تأسر قنناً وكشارليه .
(١٧٩٢ - ١٨٥٥) بوق الصيد الصغير الذي كان ينفخ فيه بعض لحظات ، ولكنها في كل مرة لم تكن تجيبه إلا بنظرة متوحشة على

عبارة : « خذى يا هيلين » .. هل تريدينه ؟ » ينطقها بصوت حنون . وكانت البنت الصغيرة قائمة ومزعجة في سحتها اللامبالية في المطهر ، فلا تلبث أن ترتعد ويخمر وجهها بقوة ملحوظة عندما كان أخوها يقرب . ولكن لم يكن الطفل الأصغر يبدو كمن أدرك المزاج السوداء الذي تميزت به أخته . وعدم اهتمامها بالمزوج بالصلحة ، فأجهز بذلك على معارضة طابع الطقولة الحقيقى بعلم الإنسان الداف على الاهتمام ، والذي كان مسجلاً من قبل على وجه البنت الصغيرة بحيث دفعها إلى التوسل بسحبه القائمة .

صاح الصغير وقد انتهز فرصة جلوس أمه والشاب صامتين على جسر « جوبلان » لكى يشتكى : « ماما .. هيلين لا تريد أن تلعب ، - دغها » يا شارل : أنت تعرف أنها دائماً متلعرة .

واستطاعت هذه الأقوال التى نطقها الأم بالمصادفة . واستدارت بعدها فجأة نحو الرجل الشاب ، أن تنتزع من « هيلين » دموعها ، فابتلعها في سكون ، وقدفت أعذاها بإحدى نظراتها العميقة التى بدت فى غير مفهومة ، ثم تأملت أولاً بذكاء شريد المتحدر من فوق أعنى قمة حيث كان واقفاً ثم نحو ظهر « اليشر » والجسر والمنظر ونحوى أنا . وعشيت أن يلتمحنى الثنائى السعيد الذى لاشك أننى كنت أعكر صفر الحديث بينهما فالسحب يهدوء ، وذهبت آوى خلف صف من « اليلسان » الذى أخفى فروعه المشجرة تماماً عن كل النظرات .

وجلسنا فى اطمئنان عند رأس المتحدر فاضراً في ضمت : ومرة بعد أخرى ، إما إلى مفاتيح الموقع المتغيرة ، وإما إلى البنت الصغيرة المتفرسة التى كان لا يزال فى إمكانى أن ألحظها من خلال التبعجوات الموجودة بين صف « اليلسان » وبين قاعدته حيث استند رأسى فى مستوى « البولفار » تقريباً .

وحينما لم تعد « هيلين » الرانى ظهر عليها القلق ، وظلت تبحث عني بعينها السوداءين على بعد المسمى خلف الأشجار بفصول غير محدد . ماذا صرت إذن بالنسبة إليها ؟ وفى تلك اللحظة دوت ضحكات « شارل » البرينة في السكون كفتاء عصفور . ذلك أن الشاب الوسيم الأشقر مثله جعله يراقص بين ذراعيه وقبله وهو يسبحو عليه بالكلمات الصغيرة غير المسلسلة والحاددة عن معناها الحقيقى مما فوجئته إلى الأطفال في وقت . وابست الأم لهذه الألعاب ، وأخذت تقول من وقت لآخر وبصوت منخفض بلا شك أقوالاً صادرة من القلب . لأن رفيقها كان يتوقف بسعادة تامة وينظر إليه بعين زرقاء مليئة بالضوء والحياء . وامترج ضمهها بصوت الطفل في حنان غريب . وكان ثلاثهم في غاية الروعة .

وأشاع هذا المشهد الجميل وسط ذلك المنظر الرائع في كل ماحوله علوبة لا يمكن تصورها ، امرأة جميلة بيضاء ضحوكة ، وطفل خبيب ، ورجل غلاب شاب وسام صافية . بل كل اتسمجانات الطبيعة كانت متوافقة كى تبعث المتعة في الروح . ووجدت لغنى أبتسم كما لو كانت تلك السعادة ملكي .

وسمع الشاب الجميل الساعة تدق الساعة - وبعد أن قبل رقيقته
بحنان تجهمت وكادت تصبح حزينة ، وعاد هو نحو « عربية مظلة »
كانت تتقدم ببطء ويقودها خادم عجوز . واختلطت بريقه الطفل
العزیز بآخر قبلايت أعطاه الشاب إياها . ثم لم يكبد هذا الشاب بصعد
إلى عربته ، وتصفى المرأة الساكنة إلى صورتها تتحرك متبوعة الأثر الباقي
فوق التراب الضبابي في الممشى الأخضر على « البوقارة » حتى جرى
« شارل » نحو أخته بالقرب من الجسر . وسمعت يقول لها في صوت أشبه
برنين القصة : « لماذا إذن لم تحضري لتودعي صديق الطيب ؟ »

وقدفت « هيلين » أخاها حين رأتها فوق منحني المنحدر بأقصى
نظرة على الإطلاق ظهر بريقها في عيني طفل ، ودفعته بحركة غضب
وانزل « شارل » فوق السطح السريع ، وصادف جنوداً ألقت به بقسوة
فوق الحجارة الحادة التي بنى منها الحائط . ونكسرت جبهته فوقها ،
ثم راح يهوى وهو مغطى بالدماء في مياه النهر المليئة بالطمي ، وتناثرت
الموجة في ألين انجاس مائي غامق اللون تحت رأسه الجميل الأشقر ،
وسعت صراخ الطفل المسكين الحاد . ولكن لم تلبث أن اختفت نغماته
مختوفة في الوحل حيث اختفى هو نفسه محملاً صوتاً ثقيلاً كصوت حجر
غائر ، ولم يكن البرق أسرع مما كانت تلك السقطة .

وفجأة نهضت وهبطت بطريق ضيق ، وصرخت « هيلين » مأخوذة
صرخات لثافة : « ماما ! ماما ! » . وكانت الأم موجودة بالقرب مني ،

فطارت كعصفور ، ولكن لم تستطع عينا الأم أو عينا أن تعرف
على المكان الخلد الذي دفن فيه الطفل . وكانت الفقايع تصاعداً
فوق الماء الأسود في مساحة واسعة ، وفي هذا المكان يوجد في مجرى
نهر « البيفر » عشر أقدام من الطمي ، ولا بد أن الطفل قد لقي حتفه
إذ كانت نجلته مستحيلة . وفي تلك الساعة من يوم الأحد كان كل شيء
ساكناً ، ولم يكن في نهر « البيفر » قارب أو صياد . ولم أر أياً قصبة
أجس بها مدى عمق الماء الآسن أو أي شخص على البعد .

لماذا إذن تكلمت عن هذه الحادثة المشهورة ، أو قلت سر هذه
المصيبة ؟ لعل « هيلين » انتقدت لأبيها ، وكانت غيرها بلاشك سيف
الله . وبرغم ذلك فقد ارتفعت وأنا أتأمل الأم . أي استجواب خفيف
سوف تلقاه من زوجها .. قاضيا الأبدى ؟ وقد جرت معها شاهدة
لا يرشئ . فلطافولة جبين شفاف ولون وجه يتقد منه الضوء ، والكذب
عند الطفولة أشبه ما يكون بالضوء الذي يدفع به إلى الاحمرار من
نظرة . ولم تكن المرأة الشقية تفكر بعد في العذاب الذي ينتظرها بالبيت
فبعد كانت تنظر إلى نهر « البيفر » وكان على مثل تلك الحادثة أن
تؤدي إلى أصداء خفيفة في حياة امرأة وهذا واحد من أكثر أصدائها بشاعة
مما كان يزجج غراميات « جوليت » من وقت لآخر .

بعد سنتين أو ثلاث من ذلك التاريخ وفي إحدى الليالي غيب
العشاء في بيت الماركيز « ديفانيس » الذي كان حينذاك في حداد

على والده ويصدد ميراث يتطلب التنظيم ، كان يوجد أحد محرري العقود ، ولم يكن محرر العقود هذا نفس الرجل القصير ، دبسترن ، بل كان سمياً ضخماً من باريس . وكان أحد الرجال الأجلاء الذين لا يعثرون إلا يقدر ، ويضعون قدمهم بصورة فوق أي سبب مجهول من أسباب الحزن أو الغم ، ويسألون لماذا الشكوى . وإذا علموا بالمصادفة سبب عهتهم القاتل يقولون : « يا إلهي لم أكن أعرف شيئاً » ، على أي حال كان محرر عقود بسيطاً لا يرى في الحياة سوى العقود .

وكانت السيدة « ديجليمون » على مقربة من الدبلوماسي . وكان المراء قد انصرف من هناك أدباً قبل نهاية العشاء ، حتى يصحب طفليده إلى عرض تمثيل على المنزلة الكبير ، البولغار ، في مسرح « الأميجي كوميك » أو مسرح « لاجيتيه » ، وبرغم أن الروايات المؤثرة تبين المشاعر فإنها تجري في باريس لكي تكون في تناول الطفولة وبدون خطر ، لأن الزمعة تنصهر دائماً فيها . ولم ينتظر الوالد تناول الحلو بعد الأكل ، ورجل تحت إلحاح ابنته وابنة الملق من أجل الوصول إلى العرض قبل رفع الستار .

ولم يستطع محرر العقود . ذلك الرجل الرزين . أن يستفسر لماذا أرسلت السيدة « ديجليمون » أولادها وزوجها إلى العرض دون أن تصحبهم إلى هناك ... فبقى منذ العشاء كما لو كان قد ربط إلى مسير لولاي فوق مقعده . وجعلت المناقشة وقت الحلو يمتد طويلاً بحيث

توافق الخدم عن تقديم القهوة . وهذه الأحداث التي كانت تأتهم الوقت التمر بسلامك أمكنها أن تنتزع حركات فراغ الصبر من المرأة الجميلة ، فكان في المستطاع مقارنتها بأحد الخيول الأصيلية حين يكذف ويضرب الأرض بحوافره قبل السباق . ولم يكن محرر العقود يعرف طريقه في ميدان الخيول أو في ميدان النساء ، فاكشفت بطيئة قلب في شخصية الماركية امرأة نشيطة قوية .

وقد انتهت بالتالي من وجوده في رفقة امرأة على أحدث الطرز وربعل من أشهر رجال السياسة فأخذ محرر العقود هذا يتظرف ويروي النكت ، وفهم ابتسامة الماركية الزائفة على أنها رضى وتأييد برغم أنه كان يستنفذ صبرها إلى حد كبير ويتباطأ بتباطؤ كبيراً . وأذن سيد البيت سلفاً بالاتفاق مع رفيقته بأن يلزمها النصت مرات عديدة حينما انتظر محرر العقود رداً من ريدود الثناء والمديح . ولكن حتى أثناء هذه الفترات كان ذلك الرجل الخبيث ينظر إلى الموقف كمن يفتش عن فكاهات وفكك . وبعد ذلك بلغ الدبلوماسي إلى ساعته . وأخيراً كانت السيدة الجميلة قد أعادت وضع قبعها على رأسها تأهباً للخروج دون أن تخرج . ولم يكن محرر العقود يرى أو يسمع . بل كان معجباً بنفسه إعجاباً شديداً ومتأكداً من أنه يتمتع الماركية إلى حد وقفها كأنها مقيدة بمسار هناك ، فقال في نفسه : سوف تكون هذه المرأة بالإنكيد زبونة لي . وقامت الماركية وانفتحة . وليست ففاضات اليد . ثم راحت تدور

في أصابعها . وجعلت تنظر بالتبادل إلى الماركيز « ديفاندينيس » الذي كان يقاسمها نفاذ صبرها أو إلى محرر العقود الذي كان يحكم تكليف كل واحد عن طريق الطوائف والنكت الفكاهية الخاصة به . وعند كل فترة سكون يقف عندها ذلك الرجل « اغترم » كان كلامها يتنفس الصعداء ، وكأنما يقول أحدهما للآخر بالإشارة : « سوف يرحل إذن أخيراً ! » ولكن عينا .

لقد كان أشبه ما يكون بالكايوس النفسي الذي ينتهي بعد إثارة الشخصيتين الممثلتين شخفاً وعاطفة اللذين كان محور العقود يؤثر عليهما حركة بحركة ونأمة بنأمة كما يفعل الثعبان بالطائر بحيث يضطرهما إلى شيء من التعجل . وفي وسط الحكاية تماماً التي كان محور العقود الظريف ذاك يرويها عن الوسائل الحسية التي كان يتبعها « ديتيه » رجل الأعمال الذي كان ذا حظوة خلال تلك الفترة في تكوين ثروته متبعاً فضائحه في تفصيلاتها الدقيقة : سمع الدبلوماسي الساعة الكبيرة تدق التاسعة : ولحظ أن محرر عقوده كان سخيلاً بالتأكيد بحيث لزم ببساطة ثامة صبره ، فأوقفه بإحدى حركاته بإصرار .

فقال محرر العقود وهو يقدم (الماشة) إلى زبونه : لعلك تريد (الماشة) يا سيدى الماركيز ؟

— لا يا سيدى : إنني مضطر إلى أن أصرفك . فالسيدة تريد اللحاق بأولادها ، وسيشرفني أن أرافقها .

قال محرر العقود الذي كان قد انصرف بالكلام منذ ساعة : سرعان ما صارت الساعة التاسعة ! إن الوقت يحضى كالظل في صحبة الناس الظرفاء .

وبحث عن قبضته ، ثم جاء يزرع نفسه أمام المدفأة وهو يقاوم بصعوبة صدور لإحدى قواياه ، وقال لزبونه دون أن يرى النظرات الشبيهة بالصواعق التي كان يقدفها نحو الماركيز :

— فلنختصر الكلام . يا سيدى الماركيز فالأعمال تأتي أولاً . وسوف نبحث غداً إذن إلى السيد أخيك بإعلام قضائي بحيث يكون مكلفاً رسمياً ، ثم نتقدم إلى الجرد وبعد ذلك فيما أرى ..

قد فهم محرر العقود نيات زبونه فهماً سيئاً بحيث أخذ المسألة في الاتجاه العكسي للتعالمات التي أنقأها إليه هذا الأخير منذ قليل . وكانت هذه الحادثة من الحساسية بحيث لم يشأ « ديفاندينيس » تعديل أفكار محرر العقود ذلك : ثقيل الظل والفهم معاً ، بطريقة لا إرادية ، فاندفع الرجل في مناقشة استغرقت وقتاً طويلاً .

قال الدبلوماسي في النهاية بإشارة عن السيدة الشابة : اسمعنى إنك تشدخ رأسى . غداً في الساعة التاسعة مع وكيلى في الدعوى . ولكننى سأشرف بأن أدعوكم يا سيدى الماركيز إلى ملاحظة أننا لسنا متأكدين من مقابلة السيد « ديروش » غداً ، وإذا لم يكن التكليف الرسمي قد أرسل قبل الظهر فإن المهلة تنقضى و ...

في هذه اللحظة دخلت عربة إلى القناء. واستدارت المرأة المسكينة بقوة لكي تحظى الدموع التي ملأت عينيها على أثر الحلية التي أحدثتها. ودق الماركيز الجرس لكي يبلغ عن عدم وجوده بالمنزل. ولكن الأواء كان قد عاد فجأة من مسرح لا جيته. فسبق الخادم وظهر ممسكاً ابنته بإحدى يديه وقد احمرت عيناها. وممسكاً باليد الأخرى ابنة الصغير الذي كان عابس الوجه غاضباً.

سألت المرأة زوجها : ماذا حدث لكم إذن ؟
أجاب الأواء وهو يتجه نحو مخدع مجاور كان بابيه مفتوحاً فلمح فيه بعض الصحف : سأخبرك بذلك فيما بعد .
وألقت الماركيزة بنفسها في يأس فوق إحدى الأرائك تافدة الغصير .

ورأى محرر العقود أنه مضطر إلى أن يكون لطيفاً مع الأطفال . فاتخذ صوتاً ظريفاً في كلامه وهو يقول للولد : هيه يا صغيري . ماذا يعرض مسرح (لا جيته) ؟

أجاب : جوستاف . في تدمر : « وادي السيل » .

قال محرر العقود : أين عقيلة الرجال الشرفاء .. لقد أصبح مؤلفوا اليوم أنصاف مجائين . (وادي السيل) : وماذا لا يكون (سيل الوادي) فمن الجائز أن يكون الوادي بلا سيل . وعندما يقولون (سيل الوادي) ؟ يكونون قد أبلغوا شيئاً واضحاً محدداً ذا طابع وذا مفهوم . ولكن فلندع

ذلك الآن . كيف يمكن العثور على الدراما في السيل وفي الوادي ؟ سوف نجيب أن الميل الرئيسي اليوم في أمثال هذه الأنواع من العرض يكمن في (الديكور) . وهذا العنوان وحده يبين ذلك بطريقة مثلى . فهل استمتعتم يا صغيري الماكر ؟ قال الرجل ذلك وهو يجلس أمام الطفل .

عندما سأل محرر العقود أي مأساة يمكن العثور عليها في قاع السيل استدارت ابنة الماركيزة . ببطء وبكت . واحتفظت الأم بشدة كبيرة حتى لم تلاحظ حركة ابنتها .

أجاب الطفل : أوه ! نعم يا سيدي . لقد استمتعت تماماً ... لقد كان في العقيلة طفل صغير لطيف وحيد في العالم لأن أباه لم يستطع أن يكون والده . وعندما يبلغ مرتقى الجسر فوق السيل يجيء رجل كبير قبيح ذو حية في ملابس سوداء ويقذف به إلى الماء . وعندئذ جعالت « هيلين » تبكي وتشتق شهيقاً عالياً حتى إن كل من في القاعة صرخ في وجهها . وعلى ذلك قادنا والدنا بسرعة إلى الخارج .. وبسرعة خرجنا ...

وبقي السيد « ديفاندينيس » والماركيزة معاً مذهولين . وكأن سحابة مسهماً وجردهما من قوة الفكر والعمل .

صاح الأواء : « جوستاف .. اسكت إذن .. لقد منعك من الكلام عما قد حدث في أثناء العرض وما أنت ذا تنسى كل تعليقاتي .

قال محرر العقود : فلتغفر له جنابكم ياسيدى الماركيز . . . لقد أخطأت بسؤاله ولكننى لم أكن أعرف خطورة ...

قال الأب وهو ينظر إلى ابنه بهرود : « لقد كان عليه ألا يجيب ... » وبدا سب عودة الأولاد وعودة والدهم المفاجئة واضعاً جداً لدى الدبلوماسى والماركيز . ونظرت الأم إلى ابنتها ورأتها تبكى . فنهضت لتذهب نحوها . ولكن فجأة تقطب وجهها بشدة وأظهر علامات سorrow لم يكن يخفيها شيء .

قالت لها : كفى يا « هيلين » هيا اذهبى جفنى دموعك فى الخدع .

قال محرر العقود الذى أراد أن يهدئ كلاماً من غضب الأم وتغيب البنت : ماذا فعلت إذن هذه الصغيرة المسكينة ؟ إنها لمن الجمال بحيث لا بد أن تكون أعقل مخلوقة فى العالم . وإبنى لوائق ياسيدتى أنها لا تتمتع سوى السرور والثناء . أليس كذلك يا صغيرى ؟

ونظرت « هيلين » إلى أمها وهى ترتعد . ومسحت دموعها . وحاولت أن تجعل وجهها ذا تعبير هادئ ثم هربت إلى الخدع .

قال محرر العقود وهو يواصل باستمرار كلامه : « ومن المؤكد يا سيدتى أنك أم طيبة جداً حتى لتجيبين كل أولادك بالتساوى . وأنت على أى حال من الفضيلة بحيث لا يمكن أن يكون عندك تفضيلات تعيسة تتكشف آثارها المشنومة أمامنا نحن محررى العقود . فالتجمع يمر بنا

فترى فيه أيضاً الميول والرغبات فى صورتها البشعة . وأعنى بها المصلحة . فها هنا امرأة تريد حرمان أولاد زوجها من الميراث لصالح الأولاد الذين تفضلهم . فى حين يريد الزوج أحياناً من جهة أن ينجح ثروته للابن الذى حاز كراهية الأم . وعند ذلك تهب المنازعات والمخاوف والمخجج والامتناعيات المضادة للعقود والبيع الشكلى والودائع . ثم فى النهاية بعثرات محزنة .. وشرفى ... محزنة ! فهناك من الآباء من يقضى حياته كلها فى عمليات حرمان ورائة لأبنائهم مع سرقة أموالك وزوجاتهم نعم .. سرقة .. هذه هى اللفظة الصحيحة . نحن نتكلم عن المأساة . آه ! أؤكد لكم أننا لو استطعنا أن نتطرق إلى الأسرار الخاصة ببعض المنح لأمكن مؤلفينا أن يكتبوا عنها فراجع مأساوية « بورجوازية » . ولا أدرى بأى قدرة تستعين النساء كفى بحققن ما يشأن . لأنه برغم كل المظاهر التى تدل على ضعفهن فإنهن يفكر دائماً بذلك . آه ! مثلاً لآمن لا يعرفون فى أنا . إذ أننى أخشى دائماً سبب حب التفضيل ذلك الذى يصفونه فى المجتمع أدياً بأنه لا يقبل التعريف ! غير أن الأزواج لا يهتمونه أبداً . وهذه عدالة يجب أن ترد لهم . قد نجيبنى على ذلك بأنه توجد نعم وأفضال ..

عادت « هيلين » مع والدها من الخدع إلى (الصالون) وأصغت بانتباه إلى كلام محرر العقود . وأدركته جيداً حتى إنها ألقت نظرة تعوف نحو أمها وهى تستشعر بهزيمة سها المبكرة أن هذا الظرف سوف

يضاعف من شراسة تأنيبها ، واضفر وجه الماركيزة وهي تلوح للكونت في حركة قزع نحو زوجها الذي كان يتأمل زهور السجاجيد في تفكير عميق . وفي هذه اللحظة لم بعد الدبلوماسي - برغم كل خبرته بالحياة - يتألك نفسه ، وقذف محرر العقود بنظرة شبيهة بالصاعقة ، وقال له وهو ينجح بقوة نحو الغرفة السابقة على (الصالون) : « تعال من هنا ياسيدى » . وتبعه محرر العقود إلى هناك وهو يرتجف دون أن يكمل عبارته .

قال له الماركيز « ديفاندينيس » في غضب مكرر ، وهو يتفل بقوة باب (الصالون) حيث ترك الزوجة والزوج : « سيدى منذ العشاء لم يصدر عنك إلا سخافات . ولم تفه إلا عبقاقات . بالله عليك انصرف من هنا ، فإنك ستؤذي في النهاية إلى أكبر النكبات ، إذا كنت محرراً ممتازاً للعقد فابق في مكتبك : أما إذا وجدت نفسك بالمصادفة وسط الناس في اجتماع فحاول أن تكون أكثر حذراً . . . »

ثم عاد إلى (الصالون) بعد أن فارق محرر العقود دون أن يجيبه . وبني محرر العقود بعض لحظة مذهباً تماماً ومشلولاً دون أن يدري شيئاً من أمره . وعندما كفت الطلن التي كان يلقى بأذنيه تخيل أنه سمع غويلا وحركة خطوات تروح وتجيء في (الصالون) : حيث أخذت الأجراس ترتد بقوة ، فأحس بالخوف من رؤية الماركيز مرة أخرى ، واستعاد قدرته على استخدام سابقه كخي يفتر ويمنع السلم . ولكن عند أبواب الزدهات كان يعظمهم بالخدم الذين أسرعوا لتلقى أوامر سيدهم .

قال لنفسه في النهاية عندما أصبح في الشارع يبحث عن عربة : هاك حال كل هؤلاء الأسياد الكبار . . . لأنهم يلزمونك بالكلام ، ويدعونك إلى الاستمرار فيه بكل ما يظرونك به . فتظن أنك تسرهم ، وإذا الأمر ليس كذلك بالمرّة ! فيعتدون عليك بوقاحة ، ويعيدونك ثم يلقبون بك إلى الباب دون أي حرج . لقد كنت لطيفاً جداً معهم ولم أقل شيئاً دون أن يكون معقولاً مترناً ملائماً . ثم لأنهم يوصلني بزيادة الحذر برغم أنه لا يتقصى . هيه ! يا للشيطان ! إنني محرر عقود وعضو الغرفة . آه ! إنها لتزوة سفير ، فلا شيء مقدس عند هؤلاء الناس . وغداً سيشرح لي كيف لم أعمل عنده إلا سخافات . وسأسأله الأسباب ، أي أنني سأسأله عن سبب ذلك . وفي الحملة قد أكون مخطئاً . والله لقد كنت طيباً في تكبير رأيي بالحكايات ! ولكن ماذا أجبى ذلك لي ؟

وعاد محرر العقود إلى بيته ووضع لغزّه بين يدي زوجته وهو يروى لها كل أحداث السهرة نقطة بنقطة .

— عزيزى « كروتاه » إن صاحب السعادة على حق تماماً ، وهو يخبرك أنك لم تفعل إلا سخافات ولم تقل إلا سخافات .
— لماذا ؟

— يا عزيزى سأقول لك ، ولكن على ألا يمنعك ذلك من أن تبدأ من جديد ، في مكان آخر غداً . وكل ما أوصيك به أيضاً هو

ألا تتكلم إطلاقاً إلا في الأعمال حين تكون في مجتمع .

— إذا لم تريد أن تخبرني أنت به فسوف أسأل عنه غداً . ..

— يا إلهي ! إن أفضه الناس يتدارسون كيفية إخفاء هذه الأشياء ،

وأنت تعتقد أن صغيراً سيخبرك به ! ولكن يا كروناه ، إنني لم أرك

فقط مجرداً من العقل على هذا النحو ...

— شكراً يا عزيرتي .

٥

اللقاءان

كان قد جاء إلى (فرساي) ضابط ياوران ثنابليون ، تطلق عليه فقط اسم الماركيز أو اللواء ، وصاحب الثروة الضخمة التي كونها في عهد العبودية ، ليقتضى بعض الأيام الحساسة ، فسكن بيتاً ريفياً قائماً بين الكنيسة وسور (مونترني) على الطريق المؤدي إلى شارع (سان كلو) ولم تكن حلمته في البلاط تسمح له بأن يبتعد عن (باريس) . وكان هذا البيت قد بنى قديماً ليكون مأوى للفتيات العابرات من أجل نزوات الحب لأحد الأشراف الكبار ، ولذلك كان هذا البيت القائم وسط بستان يضم ملحقات شاسعة ، وكانت الحدائق التي يقوم في وسطها تباعد بالتساوي إلى يمينه وإلى يساره بيته وبين أوائل منازل (مونترني) والأكواخ المسقوفة بالكين والجبنة بالقرب من السور . وهكذا كان أسياد البيت لا يتعزلون كثيراً فيه ، كما أنهم كانوا يستمتعون على بعد خطوتين من المدينة بكل لذائذ العزلة . ومن نقائصه الغريبة أن واجهة وباب مدخل البيت كانوا يطلان مباشرة على الطريق التي يحتمل أنه كان في الماضي قليل العمار . ويبدو هذا الافتراض

صحيحاً إذا فكرنا أن هذا البيت يقود إلى البيت الجميل الرقيق الطراز الذى بناه «لويس الخامس» من أجل الآمنة «دى رومان» .
وقبل أن تصل إليه كان الفضوليون يتخفون هنا وهناك على أكثر من ماوى (كازينو) يكشف كل مايدخله و(ديكور) زينته عن الخجون والخلاعة اللطيفة عند أسلافنا الذين كانوا يبهتون على الرغم من الشنودة الذى أمهروا به ، عن بعض الظلال والخموض .

وفى إحدى ليالى الشتاء وجد الماركيز وزوجته وأولاده أنفسهم بمفردهم داخل هذا البيت المعزول ، وكان الخدم قد حصلوا على الإذن بالذهاب إلى (قرمى) لحضور احتفال عرس واحد منهم ، وخمنوا أن احتفالات التيجيل فى عيد الميلاد قد اقترنت بهذا الطرف ، فنهجهم ذلك عتراً معقولاً لدى أسبادهم ، ولم يكن يخامرهم أى قلق عندما استغلوا وقتاً أطول قليلاً للاحتفال مما كانت قد أنعت عليهم به الأحكام البيتية ، وبرغم ذلك فإن اللواء كان مغروراً كرجل لا يقصر إطلاقاً فى إنجاز كلمته فى زواجه لا تثنين ، ولذلك لم يعد العاصون للأوامر البيتية يرقصون دون بعض وخز الضمير عندما انقضى الموعد المحدد لعودتهم .

ودقت الساعة الحادية عشرة منذ قليل ، ولم يكن واحد من الخدم قد عاد وكان الصمت العميق الذى يسطر على الريف يسمح بسماع صدى النسمة العابرة خلال أغصان الشجر السوداء من حين لآخر ، وهى تهدر حول البيت . أو وهى تغوص بين الممرات . وكان الصقيع قد نعى

المواء تماماً ويجعد الأرض واعتري ملامح الشوارع بحيث صار لكل شىء ذلك الرنين الجاف الذى نباحتنا دائماً قضايراته ، وكانت خطوات سير أحمد السكارى المتأخرين الثقيلة ، أو ضوضاء مركبة عائلة إلى (باريس) تحدث دويماً أقوى من المعتاد ، وتسمع على مسافة أبعد من المعتاد ، وكانت أوراق الشجر المتتارة تقوم راقصة تحت تأثير بعض الزوابع المفاجئة ، فترتعش وتبليبلب فوق حجارة القناء بشكل يمنح الليل صوتاً كلما أراد أن يكون كالأبكم .

لقد كانت - فى النهاية - إحدى تلك الليالى المرساة التى تنتزع من أنانيتنا شكوى جلداء لصالح الفقير أو المسافر ، وتعيد ركن المدفأة إلى ركن شهورى جديداً . فى هذه اللحظة لم تكن الأسرة المحضمة فى «الصالون» تتلقى فى شىء لغياب الخدم ، أو للقوم الذين لا مأوى لهم أو للشعار التى تتلأأ بها سهرة الشتاء . وبدون فلسفة خارجة عن القصد وثقة فى الرجل العسكري القديم . استسلم الأولاد والنساء لتلعب التى ولدتها الحياة الداخلية طالما لم تجد الإحساسات أى حرج فى الأمر ، وطالما كانت العاطفة والصراحة تهرمان الكلام والنظرات والألعاب .

وكان اللواء جالساً أو على الأصح مدفوناً فى كرسى واسع يصادف عال وقصيح فى ركن يقرب المدفأة ، حيث كانت النار المتتابعة تلمع وتنشر حرارة لاذعة كعلامة على وجود زهريه خارج البيت . وكان هذا الأب الممام مستنداً إلى ظهر الكرسى فى وضع مائل ميلاً

خفيئاً في حين بقي رأسه في وضع يصور تراخيه هندوياً كاملاً وانشراحاً
 حلولاً من المتعة ، وأتم ذلك التعبير عن فكرة السعادة ذراعاه المحدثتين
 نصف تخدير والمثلثتين بقصور خارج الكرسي . وجعل يتأمل أصغر
 أطفاله .. ولد يكاد يبلغ سن الخامسة .. نصف عار ، ويرفض أن يدع
 أمه تخلع ملابسه . وأخذ الطفل يهرب من القديص أو من غطاء الرأس
 الليلي الذي اعتادت الماركيزة أحياناً أن تهدده به . واحتفظ بعمراته
 المطرزة ، وضحك لأمه عندما أخذت تناديه ، وهي تدرك أنها هي
 نفسها تضحك من هذا القرد الطفول . وجعل يلاعب حينذاك أخته
 التي كانت في مثل سذاجته ، ولكن أكثر خبثاً ، وتكلم سلفاً بتميز
 أكبر منه . إذ أنه كان منهم الأقوال مختلط الأفكار بحيث يفهمه أبواه
 بصعوبة شديدة .

« وويونا » الصغيرة كانت تكبره يستتين ، وتثير بدلاها الأنثى
 المبكر ضحكاً لا ينهي ، يصدر مثل الطلقات ، ويبدو غير متعلق
 بسبب . ولكن كانت تكفي رؤيتهما معاً يتدحرجان أمام النار ،
 ويكشفان بلا خجل جسميهما ، الجحليين الممتلئين بشكليهما الأبيضين
 الريقين ، عامدين خلط خصلات شعر رأسهما الأسود بالأشقر متضاربين
 بوجهيهما الورديين حيث كانت القرحة قد عطلت نغرات بسيطة ،
 لكي يفهم الأب وبخاصة الأم بالتأكيد هذه الأرواح الصغيرة التي
 كانت بالنسبة إليهم محادثة الطباع وعاطفية سلفاً ، وكان هذان الملاكان

من شدة ألوان عيونهما المبللة وتخدوذهما المتألقة وبشرتهما البيضاء يظهران
 ألوان زهور الساجيد الكثيرة الناعمة يظهر الباهتة الضعيفة حيث قام
 مسرح طوهما الذي كانا يسقطان عليه ويتقلبان ويتصارعان ويتدحرجان
 فوقه بلا خطر .

وكانت الأم جالسة فوق تخت جلوس شخصين في الزكن الآخر
 بجوار المدفأة وجهاً لوجه أمام زوجها ، وقد تجمعت حولها الملايس المتناثرة
 وظلت وهي ممسكة بخداه أحمر في يدها في موقف مليء بالتقاضى ،
 وماتت قسوتها المرودة في ابتسامة عذبة حفرت فوق شفتيها . وكانت
 في قرابة سن الثلاثين لانزال تحتفظ بحمال مرجعه إلى الكمال النادر
 في خطوط وجهها الذي أغارته الحرارة والضم والسمعة في تلك اللحظة
 بريقاً فوق الطليعي . وغالباً ما كانت تنرقف عن النظر إلى أولادها
 كما تعود بعينها كأنما تربت بهما فوق وجه زوجها الوقور . وعندما
 كانت عينا الزوجين تتلاقيان أحياناً كانتا تتبادلان متعاً صامتة وأفكاراً
 عميقة . وكان للواء وجه أسمر سمرة قوية ، وكانت جبهة العريضة
 الصافية مغطاة ببعض خصلات الشعر التي وخطها الشيب ، وأحدثت
 ومضات الحزم في عينيته الزرقاوين ، والهمة الياضية في تجاعيد خديه
 الذبابين ، تكشف عن أنه قد زال الشريط الأحمر الذي كان يزين
 عروة ملابسه بعد أن بدل من أجله أعمالاً شاقة .

وعندئذ كانت المتع البريئة التي عبر عنها والماء تعكس على هيئة

وجهه الجهم الجماد الذى تخلقه بساطة ساذجة وسلامة فية . لقد عاد هذا الضابط القديم طفلاً من جديد دون عناء كبير . أليس يتوافر للضباط دائماً قليل من الحب للطفولة بعد أن جربوا شقاوت الحياة بما فيه الكفاية وعرفوا بؤس القوة وامتيازات الضعف ؟

وعن بعد كان يجلس صبي صغير فى سن الثالثة عشرة يقب صفحات كتاب كبير فى سرعة أمام منضدة مستديرة تضئها مصابيح على هيئة نجوم . فكأنما تنافس أنوارها القوة . ذلك الوجه المصغر الصادر عن الشروع الموضوعية فوق المدفأة . ولم تكن صرخات أخيه وأخته تلهيه إطلاقاً . كما كان وجهه يفتنى فضول الصغار . وكان يسوع هذه المشغولية العميقة روائع كتاب ألف ليلة وليلة المحبة وبخلة اليسييه أو المدرسة . وبقي بلا حراك فى وضع متأمل يستند كوعاً إلى المنضدة . ويستند رأسه بيده الأخرى ، بحيث كانت أصابعه البيضاء تنظر وسط شعر رأسه الأسود . وكان الضمير يسقط عمودياً على وجهه . وظل يأتى جسمه فى الظلام . فكان يشبه وهو على ذلك النحو اللوحات السوداء التى كان رافائيل يمثل نفسه فيها منتبهاً مائلاً مفكراً فى المستقبل .

وبين هذه المنضدة والمركزية كانت فتاة شابة طويلة تعمل وهي جالسة أمام نول سجاد تميل فوقه رأسها تارة وتارة تباعده على التعاقب ، فصارت شعورها الحالكة السوداء للنساء فى فتن تعكس الضوء . وكانت

« هيلين » وحدها فى حد ذاتها مشهداً من المشاهد . وتميز جمالها بظائع نادر للقوة والأناقة . ويرغم أن شعر رأسها رفع بطريقة تبرز الملامح الباهرة حول الرأس كان كثيفاً إلى حد أنه كان يستعصى على أسنان المشط ويشرح فى التجعد الشديد ابتداء من الرقبة . وكان حاجبها الكتان المنسقات الأطراف يشطران بياض جبهتها الزقية ، وكان لديها على شفتيها العليا بعض علامات الشجاعة التى تمثل تلويحاً خفيفاً كالصدأ تحت أنف يوناني ذى استدارة فى كمال لطيف . أما الأشكال الدايرة الآسرة ، والتعبير البريء الواضح فى الملامح الأخرى ، وشغافية لون بشرتها الرقيق الناعم ، وطراوة الشفاء الشهوانية ، وحدود الشكل البيضى الذى يرسمه الوجه . وبخاصة تلك القداسة فى نظرتها الغدراء . كل ذلك كان يطلع على هذا الجمال الصارم عنوبة الأنوثة مع التواضع الفتان التى تتطلبها فى ملائكة السلام والحب هذه . باستثناء أنه لم يكن ثمة شيء ضعيف فى هذه الفتاة الشابة . ومن المؤكد أن قلبها أيضاً كان رقيقاً . وأن روحها كانت تمتاز بقوة معادلة لنسبها التى كانت رائعة ، ولشكلها الذى كان ساحراً جذاباً . وكانت تقلد أخاها طالب اليسييه فى صمته ، وتبدو فريسة واحدة من تأملات البيت الشابة المحترمة التى يعتبر التقاد لإيها غالباً مهما تكن دقة ملاحظة الأب أو فراسة الأمهات . حتى إنه كان من المستحيل أن تعرف ما إذا كانت الظلال الهوائية المائلة التى كانت تعبر وجهها مثل السحب الضعيفة

في سماء صافية مرجعها إلى تلاعب الضوء ثم إلى آلام خفية .

وكان الزوج والزوجة قد شغلا تماماً في تلك اللحظة عن الولدين الكبيرين . وبرغم ذلك أجادت نظرة المواء - المنسفرة غالباً - بالمشهد الأصم الذي كان يقدم في المرتبة الثانية تحقيقاً لطيفاً للأمال المكتوبة في هذا الشعب الطقولي الظاهر في مقدمة هذه الصور المنزلية : إذ أننا إذا حاولنا تفسير الحياة الإنسانية بدرجات الأشياء العادمة الشعور كانت هذه النماذج تؤلف نوعاً من القصيدة الحية . فترقب القطع الملحفة التي تزين « الصالون » وتنوع أوضاعها وتقابها المعزى إلى اختلاف ألوان الملابس الشديد . والتعارض بين الوجوه من حيث طابع أعمارها المختلفة ومن حيث استدارتها التي تبرزها الأضواء . كانت تشع فوق هذه الصفحات الإنسانية كل الثروات المطوية في النحت ولدى المنصورين والكتابات . وفي النهاية أعار السكون والشتاء والعزلة والليل جلالهم هذا التكوين الرفيع الساذج الأشبه ما يكون بأثر جميل من آثار الطبيعة . والحياة الزوجية ملأى بهذه الساعات المهيبة التي قد يعزى سحرها غير المحدد إلى بعض تذكارات لعالم أفضل . ولاشك في أن أشعة سهاوية تنفجر على مثل هذه المشاهد التي تهدف إلى مجازاة الإنسان عن جزء كبير من أحزانه . وإلى دفعه إلى قبول الوجود ويبدو سكان الكون هنالك أممنا في صورة فنانة ، وكأنه يبسط أفكاره النظامية العظيمة وكأن الحياة الاجتماعية تركى وتطرى قوانينه حين نتحدث عن المستقبل .

وبل الرغم من ذلك ، وبرغم النظرة الحنون التي ألقيها « هيلين » نحو « آبل » و « مونيكا » عندما انفجرا في إحدى مباحثتهما .. وبرغم السعادة المرسومة فوق وجه « هيلين » الواضح عندما تأملت والدها خفية كانت ثمة عاطفة اكتئاب عميقة مطبوعة على حركاتها وفي عزلتها : ولحاضتها في عينيها المحجبتين وراء أجفان طويلة . وكانت يداها .. هاتان اليدان البيضاءان القويتان اللتان كان الضوء يمر فيكسبهما حمرة شفافة تكاد تكون سائلة - هاتان اليدان كانتا ترتعدان .

وفي إحدى المرات فقط تصادمت عيناها وعينا الماركية دون أن تشع إحداها في الكلام مع الأخرى . كانت هاتان المرأتان لفهم كل منهما الأخرى بنظرة حزينة باردة مليئة بالاحترام لدى « هيلين » وبظنرة قائمة مندرة لدى الأم . وتخفست « هيلين » نظرها بسرعة فوق النزل . وجلبت الإبرة في رشاقة وسرعة حركة . وظلت مدة طويلة لا ترفع رأسها الذي بدا لها كأنه حصار أثقل من أن يحمل . هل كانت الأم فاضية على ابنها ؟ وهل كانت تعد هذه التسوية ضرورية ؟ هل كانت تعبر من جمال « هيلين » التي كانت لا تزال قادرة على أن تناقشها ولكن مع بسط كل تأثير أصباغ الوجه (التواليت) وسحرها ؟ أو هل استطاعت الفتاة أن تحصل كأغلب البنات حين يصنحن راشدات بصيرات على بعض الأسرار التي اعتقدت هذه المرأة التي كانت في المظهر شديدة الإخلاص دنيئاً أنها قد دفنتها في قلبها بعمق كما لو كانت قد دفنتها في قبر ؟

كانت « هيلين » قد بلغت السن التي تدفع فيها نقابة الروح وصفاتها إلى تصرفات قاسية تتخطى نطاق الاعتدال المتوسط الذي يجب أن تقي العواطف عنده . وتأخذ الأخطاء في بعض العقول نسباً تعادل نسب الجريمة ، ويرتد فعل الخيال عندئذ إلى الضيق ، وغالباً ما يتألف البنات الشابات في العقوبة بسبب المدى الواسع الذي يعطيه للذنوب . ويدت « هيلين » كأنها لا تعتقد أنها أهل لأحد ؛ فقد كان ثمة سمر سابق قديم . لعله يكون حادثة غير مفهومة في أول الأمر . ثم تطور مع حساسية ذكائها المرهف الذي خضع لتأثير الأفكار الدينية حتى استحوذت منذ وقت قصير إلى شبه ذليلة روائية أو خيالية في عينيها الخاصتين . وقد بدأ هذا التغير في سلوكها منذ اليوم الذي قرأت فيه بين دفتي ترجمة حديثة للمسرحيات الأجنبية مأساة « وليام تل » (جينوم تل) الجميلة التي ألفها « شيلر » قبعد أن ويغت الأم ابتها لأنها تركت الفجاء يسقط منها لاحظت أن التلف الناتج عن هذه القراءة في روح « هيلين » نشأ عن المشهد الذي أقام الشاعر فيه نوعاً من الأخوة بين « وليام تل » الذي أسال دم أحد الرجال من أجل إنقاذ شعب بأكمله وبين « جان لويسيسيد » ولم تعد « هيلين » بعد أن صارت متواضعة ودية متبيلة تسمى الذهاب إلى الحفلات الراقصة . ولم تكن إطلاقاً على مثل هذه الملازمة الناعمة إزاء والدها ، وبخاصة عندما لا تكون الماركيزة موجودة (لشهاد ملاحظاتها كفتاة شابة .

وعلى الرغم من ذلك كان ثمة برود في عاطفة « هيلين » نحو أمها كان يظهر على نحو رقيق ، بحيث لم يكن اللواء يلحظه مهما كانت درجة غيابه على الاتحاد الذي كان يسود أسرته . ولم يكن للرجل العين النفاذة التي يستطيع أن يحس بها أغوار هذين القلبين النسائين : فالأول شاب كريم . والآخر حساس مغرور . الأول كثر من السباحة والثاني على بالوفة والعشق . وإذا كانت الأم تحزن ابنها بغيان المرأة الحاذق فإن أحداً لم يكن يحس به سوى الضحية نفسها . على أي حال الحادثة وحدها هي التي أظهرت هذه التخمينات التي لا حل لها . ولم يكن حتى تلك الليلة قد بدر أي ضوء فاضح بين هاتين الزوجين ولكن كان قد برز فيما بينهما وبين الله بعض السر المشعوم .

صاحت الماركيزة منبهة فرصة تعب أو سكون : هيا يا « أبيل » لكن « مونيكا » بقيت هي وأخوها ساكتين . قالت الماركيزة « هيا ، هلم يا بني » يجب أن تذهب لتنام ... ونظرت إليه نظرة أمرة ثم أخذته بقوة فوق ركبتيها .

قال اللواء : كيف هذا ؟ الساعة العاشرة والنصف ، ولم يعد إلى البيت أي واحد من الخدم ؟ أه ! هؤلاء المختالون .

ثم التفت نحو ابنه وقال : « جوستاف » ، لم أعطك هذا الكتاب إلا على شرط أن تغادرنا الساعة العاشرة ، وكان عليك أن تغفله بيدك امرة في الثلاثين

أنت في الساعة المحددة ، وأن نذهب إلى النوم كما وعدتني . إذا
شئت أن تكون رجلاً ملحوظاً فلا بد أن تجعل من وعظك ديناً ثانياً ،
وأن تتمسك به كما تتمسك بشرفك . وكان « فوكس » أحد كبار الخطباء
في إنجلترا مشهوراً على الخصوص بجمال طبعه ، وكان الإخلاص
نحو الالتزامات المعقودة إحدى صفاته الرئيسية . وقد أعطاه أبوه وهو
إنجليزي من الأشراف القلماء في طفولته - درساً قاسياً حتى يطبع عقل
الطفل الصغير بطابع أبدي . وفي مثل سنك كان « فوكس » يحضر
في أثناء الإجازات في بيت والده الذي كان يملك - ككل الإنجليز
الأثرياء الحديثة ذات شأن حول قصره ، وكان في تلك الحديقة كوخ
قديم يتطلب عمله وتشييده من جديد في مكان متميز بمنظر رائع
ويحب الأطفال كثيراً رؤية مشاهد الهدم . فأراد « فوكس » الصغير
أن يحصل على بعض أيام إجازة أكثر من المعتاد ، كى يشهد سقوط
البيت الريفي ، ولكن والده أصر أن يعود إلى المدرسة في اليوم الموعد
في افتتاح الدراسة . ومن هنا نخاصم الوالد وابنه . وأيدت الأم مثل كل
الأمهات « فوكس » الصغير ، فوجد الأب ابنه عندئذ في مهابة
أنه سينتظر الإجازات القادمة كى يهدم الكوخ ، فعاد « فوكس »
إلى المدرسة ، واعتقد الأب أن صبيّاً صغيراً لاهياً في دراساته سوف
ينسى ذلك الظروف ، قهلم الكوخ وأعاد بناءه في المكان الآخر .
وتركز عناد الصبي في التفكير في ذلك الكوخ ، وعلمنا عاد إلى

بيتا والده كان أول اهتمام له هو الذهاب لرؤية المبنى القديم . ولكنه
عاد محزوناً جداً في ساعة الغداء وقال لوالده : « لقد خدعتني » .
فقال السبل الإنجليزي العجوز في ارتباك مليء بالكرامة : « هذا صحيح
يا ولدى » ولكنني سأصبح غلطتي . لا بد من التمسك بالكلمة أكثر
من التمسك بالثروة . لأن التمسك بالكلمة يؤدي إلى الثراء ، ولا تمحور
أعظم الثروات الغيب الذي يصيب النصير بسبب عدم الوفاء بالكلمة .
فأعاد الأب بناء الكوخ القديم على نحو ما كان . ثم بعد أن تم بناؤه
أمر بأن يهدم أمام ابنه . ولعل هذا « يا جوستاف » يكون لك درساً .

وأقبل « جوستاف » الكتاب في الحال ، بعد أن أصغى بانتباه
إلى والده . وجاءت فترة صمت أخذ اللواء « مويانا » في أثناءها قسراً ،
وقد كانت تغالب التعاس ، ووضعها برقة فوقه ، وتركت الصغيرة
رأسها غير الثابت يتحدر على صدر أبيها ، ونامت عليه تماماً في الحال
مغطاة بخلفات شعر رأسها الجميل الذهبية . وفي تلك اللحظة دقت
أصوات خطوات مسرعة على الطريق فوق الأرض . وفجأة دقت ثلاث
طرقات على الباب أيقظت أصداؤها كل البيت ، وتواصلت هذه
الطرقات في لهجة يسهل فهمها ، كما يسهل فهم صيحة رجل في خطر
الموت ، ونباح كلب الحراسة في صوت خفيف ، وارتعدت « هيلين »
و « جوستاف » واللواء وزوجته . ارتعدوا جميعاً بقوة . ولكن « أبيل »
الذى انتهت أمه من تمهيط شعره ، و « مويانا » لم يستيقظا .

صاح الرجل العسكري وهو يقنع ابنته فوق المقعد المبطن بسادة :
إنه متلف هذا الطارق .

وخرج مندفعاً من « الصالون » دون أن يصغي لرجاء زوجته :
يا صديقي لا تذهب ...

ومر الماركيز بغرفة نومه ، والتقط من هناك مسدسين ، وأحشاء
مضجاً مكتوم الضوء ، واندفع نحو السلم : وهبط بسرعة اليرق ،
فوجد نفسه بسرعة إزاء باب البيت الذي تبعه ابنه إليه بشجاعة .
سأل : من هناك ؟

أجاب بصوت خنوق تقريباً في نفس لاهث : افتح .

— هل أنت صديق ؟

نعم صديق .

— هل أنت بمفردك ؟

— نعم ، افتح لأهم قادمين !

وانزل رجل إلى الرواق بسرعة خيالية أشبه ما تكون بسرعة الظل
بمجرد أن فتح اللواء الباب قليلاً . ودون أن يتمكن من مقاومة ذلك
المجهول الضطره هذا إلى أن يتخل عن الباب دافعاً إياه بضربة قدم عنيفة ،
واستند خلفه بعزم كمن يحول دون فتحه . وفجأة رفع اللواء مسدسه والمصباح
نحو صدر هذا الغريب كمن يفرض عليه الاحترام ، فرأى رجلاً متوسط
الطول يلبس معطفاً ذا بطانة من الفراء ، وولابس كبار السن الواسعة

السراسل التي لا يلبسونها أعدت من أجله . وكان اللاجئ - سواء بدافع
القلعة أم بالمصادفة - يغطي جبهته تماماً بقبعة تنخفض إلى مستوى عينيه .
قال الرجل اللواء : سيدى ، انخفض فوهة مسدسك . لا أرى
أنتى سابقى فى بيتك بغير موافقتك . ولكننى إذا خرجت فالموت ينتظرني
عند السور . وأى موت ! وسوف يسألك الله عنه . أرجوك أن تستضيفني
لمدة ساعتين . فكر في الأمر جيداً ياسيدى . مهما كان قصر عي فلا بد
من أن أطلب حسب ضغط الحاجة . أريد ضيافة « عربية » أى أن
أكون ذا قداسة في نظرك ، وإلا فافتح لي الباب كمن أذهب وأموت
لا بد لي من أمانة السر والمأوى والماء ... وأعاد بصوت محرج : أهو !
الماء !

سأل اللواء وهو مأخوذ بهذا الاشبهاء المحسوم الذي كان يتحدث به
الجهول : من أنت ؟

أجاب الرجل في طبعة جهنمية ساخرة : آه ! من أنا ؟ هه افتح
لي إذن . سوف أؤلى من هنا

وبرغم مهارة الماركيز في المرور بأشعة مصباحه لم يستطع أن
يرى سوى أسفل هذا الوجه ، ولم يكن به شيء يركى هذه الضيافة
المطلوبة بل نحو فريد من نوعه . فقد كان الشكان يرتعدان ، وكان
أوهسا شاحباً ، كما كانت الملامح مقطبة ببشاعة ، وكانت عيناه
لوميان في الظل الذي تسقطه حافة القبعة مثل وجهين يضعف أمامهما

ضوء الشمعة الخافت . وبزغم ذلك كان لايد من إجابة .

قال اللواء : سيدى : إن لفنتك غريبة جداً . وفي مكافئ ...

صاح الغريب فى رنة صوت خفيفة ، وهو يقاطع مضيفه :
إنك تتصرف فى حياتى .

قال الماركيز : ساعتان ؟

أعاد الرجل : ساعتان .

وفجأة رد فبعته إلى الوراء فى حركة يأمل . وكشف عن جيبته .
وأرسل نظرة ذات وضوح قوى فقلت إلى روح اللواء كما لو كان
يريد أن يقوم بمحاولة أخيرة . وأشبعت هذه الرغبة من الكآبة والإرادة
ومضد برق ، وكانت ساحقة مثل الصاعقة ، إذ توجد لحظات يكون
الرجال فيها مزودين بقدر غير قابلة للتفسير .

قال رب البيت بنجحهم وقد اعتقد أنه أطاع واحدة من تلك الحركات
الغريزية التى لا يستطيع الإنسان دائماً أن يفسرها : هلم . مهما
تكن فتسكون فى أمان تحت سقف بيتى .

استطرد المجهول وقد أفلت منه تدهميق : فليكافئك الله على ذلك .

سأله اللواء : هل معك سلاح ؟

وللإجابة عن ذلك أعطى الغريب اللواء وقتاً لا يكاد يكتفى لإلقاء
نظرة على معطفه وملفحته ثم أعاد طيه بخلق . ولم يكن معه سلاح ظاهر
وكان يلبس بدلة شاب عائد من حفل راقص . ومهما كان مقدار

سرعة الفحص الذى قام به الرجل العسكرى المشكك فقد كان ما رآه
كافياً لأن يصيح : بحق الشيطان أين استطعت أن تذهب فى هذا
البرد القارس لتلطخ نفسك بالطين ؟

— أجابه فى تعبير متعال : وأسئلة ثانية !

وفى هذه اللحظة رقى الماركيز ابنه . وتذكر الدرس الذى تلقته
لإياه منذ قليل عن التنفيذ الصارم للأمر المأخوذ ، فأحس بكدر قوى
فى هذا الظرف ، بحيث قال له فى نغمة غضب :

— كيف يا أيها الصغير العجيب ، تكون هنا بدلاً من أن تكون
فى سرورك ؟

أجاب « جوستاف » : لأننى اعتقدت أننى أستطيع أن أنفعل
فى الخطر .

أجاب الوالد بشكل أرق تحت تأثير رد ابنه عليه : هيا . اصعد
إلى غرفتك .

وقال وهو يواحه المجهول : وأنت اتبعنى .

وصارا صامتين كلاعبين يخبر أحدهما الآخر . وبدأ اللواء يحس
مشاعر مشعوبة ، وصار المجهول يختم سلفاً فوق قلبه مثل الكابوس .
ولكنه قاده وقد سيطر عليه التسليم بالعهد خلال الدهاليز وسلام البيت
لأن أن أدخله فى حجرة كبيرة فى الطابق الثانى فوق الصالون على وجه
التحديد . وكانت هذه الحجرة غير المأهولة تستخدم كمستراح للملابس

شتاء ، ولم تكن توصل إلى أى مكان فى السكن - ولم يكن بها من الديكور فوق حوائطها الأربعة سوى مرآة قطة مهجورة فوق المدفأة منذ وجود صاحب البيت القديم ، و مرآة كبيرة لم تكن مستخدمة فى أثناء نقل متاع الماركيز ، فوضعت فى واجهة المدفأة مؤقتاً ، ولم تكن أرضية تلك الغرفة الموجودة تحت السطح مباشرة قد نظفت عن طريق الكنس إطلاقاً ، كما كان الهواء فيها بارداً كالتلج ، فضلاً عن كرسيتين قديمين نزع عنهما القش وهما كل اثاث الغرفة .

وبعد أن وضع اللواء مصباحه فوق مسند المدفأة قال للمجهول :
استلزم أمانك أن تكون هذه الغرفة تحت سطح البيت ملجأك .
ولا كنت قد وعدتك بحفظ السر فتعدينى بأن تحفظ بايها مقتلاً عليك .

وتخفص الرجل رأسه كعلامة على الموافقة ، وأضاف : لم أطلب سوى الملاذ والسر والماء .

أجاب الماركيز الذى أغلق الباب بعناية وهبط متحسناً طريقه إلى الصالون ، كى يبحث عن مصباح ليحضر بنفسه دورق ماء من المطبخ : سوف أحضره إليك .

سألت الماركيزة زوجها بقوة : هيه ! ياسيدى ماذا هناك ؟

أجاب بتعبير بارد : لا شئ يا عزيزى .

ولكننا استمعنا برغم ذلك ، فقد صحبت شخصاً ما إلى أعلى البيت

قال اللواء وهو ينظر إلى ابنته وقد رفعت رأسها نحوه : هيلين افهمى أن شرف أبيك متوقف على كتابك للسر ، وينبغي ألا تكونى قد سمعت شيئاً .

وأجاب الفتاة بحركة رأس معبرة . وبقيت الماركيزة محرومة من كل شئ ، ومغلفة فى قلبها من الطريقة التى اتبعها زوجها كى يفرض عليها الكتمان . وذهب اللواء بأخذ دورق ماء وكوباً وصعد إلى الغرفة التى كان فيها السجين ، فوجده واقفاً مستنداً إلى الحائط بالقرب من المدفأة ورأسه عار ، فقد ألقي بقبضته فوق أحد الكرسيتين ، ولم يتوقع الغريب بلا شك أن يلقى عليه اللوز بقوة ، فقد تغضض جبينه ، وبصار وجهه قلقاً عندما البقت عيناه ببعض اللواء التافدين . ولكنه صار رقيق الحاشية وأخذ هيئة لطيفة وهو يشكر حاميه . وعندما وضع هذا الأخير الكوب والدورق فوق مسند المدفأة قطع المجهول الصمت ، بعد أن قذفه أيضاً بنظرة مشتتة . قال بصوت رقيق لم تعد فيه أى تقلصات حلقية كما كان من قبل ، ولكنه كان لا يزال يفضح عن ارتعاد داخلى : سيدى سوف أبدو لك غريباً . ولكن اغفر هذه النزوات الزمنية الضرورية ، إذا بقيت هنا فإنى أرجوك ألا تنظر إلى عندما أقرب . فاستدار اللواء فجأة متكدراً عن أن يطيع دائماً رجلاً يستقيحه . وانزع الغريب من جيبه منديلاً أبيض لفة حول يده اليمنى - ثم أمسك الدورق وشرب ماحواه من الماء دفعة واحدة ، وبغير أن يفكر الماركيز

في أن ينكث عهده الضمى نظر آلياً في المرأة ، وعندئذ سمح تناظر
المرايين لأن يحيط المجهول بنظره تماماً ، ورأى المتبدل يحمر فجأة بتلاصق
يديه المتلتصين دماً .

صاح الرجل عندما انتهى من الشرب ولبس المعطف وقحص
اللواء بنظرات شك : آه ! لقد رأيته . . . لقد ضعت لإنهم قادهون .
ها هم أولاء .

قال الماركيز : أنا لا أسمع شيئاً .

— أنت لا يهملك شيء بقدر ما يهمني للاستماع في الفضاء .

«لقد تشاجرت إذن في مبارزة حتى تصبح مغطى بالدم على هذا النحو؟»

قال اللواء هذا وهو منغل على حد ما عند مشاهدته بوضوح لون

البقع الكبيرة التي بلبت ملبس ضيقه .

نعم . مبارزة كما تقول .

وجعل الغريب يردد هذا وقد ترك ابتسامة مزيفة تجول بشفتيه .

في هذه اللحظة دوى صوت خيول عديدة تعدو في أقصى سرعتها

عن بعد ، لكن هذه الضوضاء كانت ضعيفة كأول أضواء الصباح .

وتعرفت آذان اللواء ذات المرات الطويل على خطوات خيول مدربة

في نظام السوارى ، وقال : إنهم عسكري « البوليس » .

وألقى على سجينه نظرة تنزع نحو تهديد الشكوك التي ساورتها بسبب

كثافته غير الإرادية ، وحمل المصباح وعاد إلى « الصالون » .

لم يكده يضع مفتاح الغرفة العالية فوق المدفأة حتى زادت الضوضاء
التي أحدثها الثريمان وأخذت تقترب من البيت الرقيق بسرعة جعلت
بدنه يقشعر . وفجأة توقفت الخيول أمام باب البيت : وهبط أحد
الثريمان من فوق حصانه . وأخذ يتبادل بعض العبارات مع زملائه . ثم دق
الباب بشدة ، وأجبر اللواء على الذهاب لفتح الباب . ولم يتألك اللواء
اتصاله الخفى أمام مرأى ستة جنود من جنود الدرك ذوي القبعات المطرزة
بالقبضة اللامعة تحت ضوء القمر .

قال له أحد الأوباشية : بإسيادة الشريف : ألم تسمع منذ قليل

رجلاً يعدو نحو السور ؟

نحو السور ؟ لا .

— ألم تفتح بابك لأحد ؟

— وهل لي العادة في أن أفتح أنا بنفسى الباب ؟ . . .

— ولكن مع الاعتذار ياسيدى اللواء في هذه اللحظة يبدو لي

أن . . .

صاح الماركيز بلهجة الغضب : آه ! يا للأمر ! هل تحاول أن

تداعبنى ؟ هل لك الحق . . .

عاد الأوباشي يقول بركة : لا . لا . يا سيادة الشريف .

لأنك أنك تغفر اجتهادنا في البحث . نحن نعرف جيداً أن أحد الأمراء

الفرنسيين لن يعرض نفسه لاستقبال قتال في هذه الساعة من الليل ،

غير أن رغبتنا في الحصول على بعض المعلومات ..

صاح اللواء : قاتل ! ومن كان إذن ...

قال العسكري : السيد البارون دى موق قتل منذ لحظة بضربة فأس ، غير أن القتال قد أصبحت خطواته تحت متابعة دقيقة ، ونحن متأكلون من أنه في هذه الأماكن القريبة . وسوف نمسك به . اغفر لنا ياسيدى اللواء .

قال العسكري ذلك وهو يفتز فوق فرسه حتى إنه لم يتمكن لحسن الحظ أن يشهد وجه اللواء . وقد اعتاد « الأوتباشي » أن يفترض كل شيء ولعله كان يستطيع أن يلمح الشكوك في مرمى هذا الوجه المكشوف حيث كانت تموج بإخلاص شديد كل حركات الروح .

سأل اللواء : هل تعرف اسم القاتل ؟

أجاب الفارس : لا .. لقد غادر المكتب مملوءاً بالذهب وبالأوراق المالية دون أن ينسها .

قال الماركيز : إنه أخذ بالثأر .

— هو ! من رجل عجوز ؟ ... لا ... لا . لم يتمكن ذلك السفيه من أن يقوم بمهمته .

ولحق الشرطي برفاقه الذين كانوا يعدون على مبعلة . وبقى اللواء لحظة فريسة حيرة من السهل فهمها . وسرعان ما سمع صوت خدعه

الذين كانوا عائلين وهم يتناقشون في حرارة مما جعل أصواتهم تدوي عند قاصية (مونترني) .

وعندما وصلوا صب غضبه التي كان لابد لها من مسوغ كي تظهر بهذه الحدة عليهم مثل وقع الصاعقة ، وأرعد صوته مرفق الأصداء بالبيت ، ثم خفض صوته فجأة عندما اعتذر أكثرهم جرأة ومهارة . وهو يخاطبه الخاص ، عن تأخيرهم بإبلاغه أن الشرطة ورجال البوليس قد استوقفوهم عند مدخل (مونترني) للتحقيق بشأن قاتل . وفجأة صمت اللواء . ثم تذكر بهذه الكلمة وضعه القريد ، فأمر هؤلاء الخدم جسيماً بلهجة جافة أن يذهبوا ليناموا في الحال ، وهم مستعربون بسهولة تصديقه أكذوبة الخادم .

ولكن عندما كانت هذه الأحداث تمر بالفناء وقعت حادثة خفيفة إل حد ما من حيث المظهر بدلت من موقف الشخصيات الأخرى المثلة في هذه القصة . فلم يكن الماركيز يخرج حتى قالت زوجته : — بعد أن ألقت نظرات متبادلة بين مفتاح غرفة تحت السطح وبين « هيلين » — قالت بصوت منخفض وهي تميل نحو ابنها : « هيلين » لقد ترك والدك المفتاح فوق المدفأة .

فذهبت الفتاة الشابة ، ورفعت رأسها ، ونظرت في خجل نحو أمها التي كانت عيناها محتدبتين فضولا .

أجاب بصوت مضطرب : هيه يا ماما ؟

لاني أريد أن أعرف ما يدور في أعلى البيت ... إذا كان
ثمة شخص فلاشك أنه لم يمض بعد ، اذهبي إذن إلى هناك ..
قالت الفتاة بشيء من الفزع : أنا ؟
هل تخافين ؟

لا ياسيدتي ، ولكنني أعتقد أنني تبينت خطوات رجل .
قالت الأم بتغمة الاحترام البارد : لو كنت أستطيع أن أذهب
بنفسي لأرجوئك أن تصعدى يا « هيلين » إذا عاد والدك ولم يجدني فمن
المحتمل أن يبحث عني ، في حين أنه لن يفتك إلى غيابك .
أجاب « هيلين » : سيدتي ، إذا كنت توصيني بذلك فسأقوم به ،
ولكنني سأفقد تقدير والدي ...

قالت المازكية بلهجة ساخرة : كيف ؟ ولكن مادمت تأخذين
مأخذ الجحد ما لم يكن سوى دعاية ، فالآن أمرك بأن تذهبي لترى
ما يجري في الطابق الأعلى . هاك المفتاح بابتي ! إذا كان والدك قد
أوصاك بالتزام الصمت فيما يتعلق بما يدور الآن ببيتك فإنه لم يحرم
عليك أن تصعدى إلى تلك الغرفة . هيا اذهبي واعرفي أنه لا ينبغي
إطلاقاً أن تكون الأم موضع سوء ظن من ابنتها ...

وبعد أن نطقت المازكية هذه الأقوال الأخيرة بقسوة الأم المهانة
إهانة كاملة ، أخذت المفتاح وأودعته يد « هيلين » التي هبت دون أن
تنطق بكلمة وغادرت « الصالون » .

« أمي تعرف دائماً كيف تحصل على عقودي ، ولكنني سأفقد مكانتي
لدي ، فهل تريد أن تعرفي من الخزان الذي يحفظه لي ، وأن تطردني
من البيت ؟ » أخذت هذه الأفكار تختمر في خيالها فجأة أثناء سيرها
بغير ضوء على طول الرواق الذي كان باب الغرفة المرسية في نهايته .
وعندما وصلت عندها كان اضطراب أفكارها ذا طابع مخوم ، وأدى
هذا النوع من التأمل المضطرب إلى فلاح آلاف المشاعر التي كانت
حتى ذلك الوقت كامنة في قلبها . ولعلها لم تعد تتوقع سلفاً مستقبلاً
سعيداً ، فصارت الآن في هذه اللحظة الرهيبة مكتملة اليأس من الحياة .
وارتعدت بتشنج وهي تدنو بالمفتاح من القفل . وصار انفعالها من
القوة بحيث وقفت لحظة لتضع يدها على قلبها كأنها تستطيع بذلك أن
تهبئ من خرباته العجيبة الرنانة .

وفي النهاية فتحت الباب . وعبثاً بلغ صرير المفتاح في القفل آذان
القاتل ، إذ برغم أن سمعه كان « دهنياً » جداً بقي ملتصقاً بالحقائق تقريباً
بلا حراك كما لو كان ضائعاً مع أفكاره . واستطاعت دائرة الضوء التي
أسقطها المصباح أن تبرز بعض الشيء . فكان يشبه في منطقة الوسط
بين الضوء والظلمة تلك التماثيل المعنونة الخاصة بالآشراف القدماء الواقعة
دائماً عند زاوية بعض المقابر السوداء في الكنائس القوطية الصغيرة ،
وكانت بعض قطرات من العرق البارد تخطط بجهته العريضة الصفراء ،
وكانت تلمع فوق هذا الوجه الشديد التقطيب جرأة لا يتصورها العقل ،

وكانت عيناه محنتين ثابتتين جافتين تبدوان كأنه يتأمل صراعاً في قلب الظلام المائل أمامه . ومرت فوق وجهه أفكار عاصفة بسرعة ، وكان تعبير وجهه الثالث المحدد يشير إلى روح عالية . أما بدنه ووضعه والأبعاد المتمثلة فيه فكانت ملائعة لعبقريته غير الآدمية . إذ كان هذا الرجل قوة محضة ، وقدرة محضة . وكان يواجه الظلمات كصورة مرئية لمستقبله .

ولما كان اللواء قد اعتاد رؤية المادج النشطة من العملاقة التي كانت تمجّل الخطو حول « نابليون » وكان مشغول الذهن آنذا ببعض الفضول الأدبي ، فإنه لم يعط صفات هذا الرجل الشاذ الجسمية القريبة أي انقباض . ولكن حين خضعت « هيلين » ككل النساء للانطباعات الخارجية أخذت بهذا الخليط من الضوء والظل ومن العظمة والنعاطفة وبهذا الصماء الشعري الذي أظهر الرجل المجهول في مظهر « لوسيفر » أو الشيطان حين هب من سقلمته .

وفجأة هبّلت السورة المرسومة على وجهه كما لو كان ذلك ينقل السحر ، وانتشرت السطورة غير المحددة التي كان ذلك الغريب على غير علمه مبدأها وتنتجها في آن معاً ، في كل ما حوله بسرعة تقدم الطوفان ، وصدر سيل من الأفكار عن جهته عندما عادت ملائحته تأخذ أشكائها الطبيعية .

وكأنما أسرت الفتاة ، سواء بغاية هذه المواجهة أم بالسحر الذي نفذت

إليه ، فأمكنها عندئذ أن تعجب بهيبة وجه رفيعة مليئة بالخير . وبقيت بعض الوقت في صمت ساحر ، وفريسة لاضطرابات لم تعدها وروحها الشابة حتى ذلك الوقت . ولكن سرعان ما حدث أن « هيلين » إما أن تكون قد أصدرت صيحة استغراب وقامت بحركة ، أو أن يكون القائل : « وقد عاد من دنيا المثال إلى دنيا الواقع قد سمع صوت تنفس غير تنفسه فالتفت برأسه نحو بنت مضيقه : ولمح بغير وضوح وجهها الجليل ، والأشكال المهيبة ، مخلوقة كان يمكن أن يحسبها ملاكاً بمجرد رؤيتها ساكنة ومبهمة مثل (الرؤية العلوية) .

قالت في صوت خافت : « سيدى » .

وارتعد القائل .

صاح بركة : امرأة ؟ هل هذا ممكن . ابتعدى

وعاد يقول : أنا لا أعطي أحداً الحق في أن أشكو إليه وأن يحكم لي أو علي . يجب أن أعيش وحيداً . اذهبي يا عفتي . ثم أضاف بحركة من حركات العظماء : سوف أكون خائناً للخدمة التي أداها لي رب هذا البيت إذا تركت شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يسكنون هنا يشاركني في تنفس نفس الهواء . لا بد أن أخضع نفسي لقوانين الخشوع .

نطق بهذه العبارة الأخيرة في صوت متخفّف ، وبعد أن انتهى بحلّسه العميق من الإلزام بالنقاء الذي توحى به هذه الفكرة الحزينة

أتى نظرة ثعبان نحو « هيلين » وأهاج في خاطر هذه الثابة الفريدة عالماً من الأفكار التي كانت لا تزال نائمة لديها ، لقد كان ذلك شبيهاً بالصوم الذي أثار لها آفاقاً كانت لا تزال مجهولة ، وغلبت روحها وقهرت دون أن تجد القوة للدفاع عن نفسها ضد هذه القوة المغناطيسية في تلك النظرة ، على الرغم من أنه لم يلحقها عن عمد . وخرجت في حنجبل وارتداد ، وعادت إلى « الصالون » قبل عودة والدها يلحظة حتى إنها لم تذكر تملك أن تقول شيئاً لوالدتها .

وأخذ اللواء يتشقى مشغولاً يهدده « وذراعاه متشابكتان ذاهباً آيماً في خطوات موحدة الحية بين التوافد المطل على الشارع والتوافد المطل على البستان . وكانت زوجته تحتفظ « بأبيل » وهو نائم . ونامت « موبنا » غير ميالة فوق المقعد المظلم كعصفور في عشه . وأمسكت الأخت الكبرى بكرة من الحرير في إحدى يديها ويلاعبة في اليد الأخرى وأخذت تتأمل النار . ولم يكن يقطع الصمت العميق السائد في « الصالون » وفي الخارج وفي بقية أنحاء البيت سوى خطوات الخدم الزاحفة وهم في طريقهم إلى النوم ، واحداً بعد الآخر وكذلك بعض ضحكاتهم المكتومة كصلى أخير لمرحهم وللإختفان بالزواج ثم أيضاً أبواب غرفهم ، كلا بمفرده ، عندما كانوا يفتحونها أو يغلونها ، وهم لا يزالون يتبادلون الحديث ، كذلك كانت تتصاعد بعض الجلبة الصماء . من الأسرة ، وسقط كرسي ، وودى نعال سائق غريبة يضعف ثم خبا الصوت .

ولكن لم تلبث الظلمة الرهبة التي فاضت على الطليعة الناعسة في منتصف الليل أن سيطرت على كل شيء وظلت النجوم وحدها تتألق وأمسك البرد بالأرض ، ولم يكن أحد يتكلم أو يتحرك ، النار فقط كانت تحس حسيباً مستمراً كأنما تريد أن تكشف مدى عمق الصمت . ودقت ساعة (مونتريري) الواحدة .

في هذه اللحظة دوى صوت خطوات خفيفة جداً دويّاً ضعيفاً في الطابق الأعلى ؛ وكان الماركيز وابنته متأكدين من إغلاق باب قاتل السيد « دي موفى » فغزوا هذه الحركة إلى إحدى النساء . ولم يستغربا سماع صوت فتح الأبواب الخاصة بالفترة السابقة على (الصالون) وفجأة ظهر القاتل وسطهم . وسبحت له الدهشة الكبيرة التي غرق فيها الماركيز وفضول الأم الشديد واستغرب الابنة بأن يتقدم حتى كاد يصبح في وسط (الصالون) ويأن يقول للواء في صوت منغم هادئ فريد : سيادة الشريف ، ستنبئ الساعتان عما قليل .

صاح اللواء أنت هنا ؟ . . . بأى قبوة ؟ !

وبنظرة مفترقة سأل الرجل العسكري زوجته وأولاده ، وصارت « هيلين » في حمرة النار . وعاد يقول بنقمة نفاذة : أنت ؟ أنت في وسطنا هنا ؟ قاتل مغشى بالدم هنا ؟ إنك توسخ المنظر ! وأضاف يلهجة حاتقة : اخرج ! اخرج !

أمام لفظة قاتل أصدرت الماركيزة صرخة . أما « هيلين » فقد بدت

هذه اللقطة كما لو كانت تقرر كل شيء في حياتها . فلم يفصح وجهها عن أقل استغراب . إذ بدت كما لو كانت قد انظرت هذا الرجل . وكان لأفكارها الممتدة إلى ذلك الحد معنى . فقد أشرفت العقوبة التي احتفظت لها بها الدماء على ما اقترفته من أخطاء . وبلا كانت تعتقد أنها هي الأخرى صاحبة جريمة على نحو ما كان ذلك الرجل . فقد نظرت إليه الفتاة بعين بشوش .. لقد كانت رفيقه وأخته . وفي نظرها تكتشف وصية من وصايا الله في هذا الظرف . وكان العقل قادراً على أن يبرز هذه الوخزات بعد ذلك بسنوات . أما في تلك اللحظة فقد جعلها عديمة الإحساس .

بقي الغريب بارداً بلا حراك . وعات ملامحه وشفتيه المحراوين الكبيرتين ابتسامة استخفاف .

— إنك تجازيني مجازاة سيئة على نيل إجرائي حيالك .

قال بطلاً : لم أشأ أن أُلْس بيدي الكوب الذي أعطيني فيه الماء من غلة عطشي ، بل لم أفكر في أن أغسل يدي للمطختين بالدم تحت سقف بيتك ، وأخرج منه دون أن أدع فيه من جريمتي (انضغطت شفتاه عند النطق بهذه اللقطة) سوى الفكرة عندما أحاول العبور هنا دون أن أترك آثاراً . وأخيراً لم أسمع لا بيتك قط أن ...

صاح اللواء وهو ينظر إلى « هيلين » نظرة رعب : ابنتي ! آه ! يا لمصيبتك ! أخرج وإلا تقتلك .

— لم تنقض أساعتان بعد ، ولن تستطيع أن تقتلني أو أن تسلمني دون أن تفقد تقديرك الخاص . وكذلك تقديري .

وقد دخل الرجل العسكري لسماع هذه الكلمة الأخيرة ، فحاول أن يتفهم في صاحب الجريمة . ولكنه اضطرب إلى خفض نظراته ، لأنه أحس بأنه غير قادر على أن يقاوم يريق نظراته الذي لا يحتمل ، والذي استطاع للمرة الثانية أن يشيع الاضطراب في روجه ، وحتى أن تضعف قواه أيضاً عندما يعترف بأن إرادته قد وهنت سلفاً .

— تقتل شيخاً مسناً ؟ ! لم يكن لديك إذن أسرة أبداً ؟

قال ذلك وهو يشير بحركة أيوية نحو زوجته وأولاده .

وأعاد التجهول قوله الذي تقطع بسببه جيبته تقطيعاً خفيفاً : نعم .

شيخ مسن .

صاح اللواء دون أن يجرؤ على النظر إلى ضيفه : اهرب ... لقد نقض العهد بيننا . ولن أقتلك . لا ! فلن أجعل من نفسي إطلاقاً مديراً لقوانين المقصلة . ولكن أخرج .. إنك تفرغنا .

أجاب صاحب الجريمة باستغفاء : أنا أعرف ذلك .. لا يوجد مكان في فرنسا أستطيع أن أضع فيه قدمي في أمان . ولكن لو عرفت العدالة مثل الله الحكم على الخصوصيات ... أو تنازلت بأن تحقق من الوحش ؟ أهو القاتل أم الضحية ؟ ... ليقبض باعتزاز واقتضار بين الرجال . ألا تحتملون أن الرجل المقتول بالفأس منذ قليل كان هو نفسه

ذا جرائم سابقة ؟ لقد جعلت من نفسى الحكم والجلاذ معاً ، وحلت محل العدالة الإنسانية العاجزة المشاولة . هاك جريمتى . وداعاً ياسيدى وبرغم كل المرارة التى جعلتها تشوب ضيافتك سأحتفظ بذكرها ، وستبقى فى روحي مشاعر اعتراف لإزاء رجل فى العلم . وهذا الرجل هو أنت .. ولكن كم وددت أن تكون أكرم من ذلك .
واتجه نحو الباب . وفى هذه اللحظة مالت الفتاة على أمها وقالت لها كلمة فى أذنها .

- آه ! ...

أفأنت هذه الصبيحة من زوجة اللواء حتى جعلته هو نفسه يخطئ كما لو كان قد شهد « مويتا » مية . وكانت « هيلين » واقفة : واستتار القاتل غريزياً مبدئياً نوعاً من القلق على وجهه نحو هذه الأسرة ...
سأل الماركيز : ماذا بك .. يا عزيزى ؟

- « هيلين » تريد أن تتبعه .

وأحمر وجه القاتل .

قالت « هيلين » بصوت منخفض : مادامت أى فزجيم على هذا النحو السجى تعجباً لا إرادياً تقريباً فسوف أحقق أمنياتها .
وبعد أن ألقت نظرة زهر وحشى تقريباً حزيناً أخفضت الفتاة عينها وظلت فى وضع راقع من التواضع .

قال اللواء : « هيلين » .. « لقد صنعتك إلى أعلى البيت فى الغرفة التى استيقيت ..

- نعم يا أبى .

- فليس طبعياً إذنا أن تهبطى إلى ...

إذا لم يكن طبعياً فهو على الأقل صحيح يا والدى .

قالت الماركيزة بصوت منخفض ولكن بحيث يسمعها زوجها :
آه ! يا بنتى ؟ .. « هيلين » ؟ أنت تفترين على كل مبادئ الشرف والتواضع والمضيعة التى حاولت تسببها فى قلبك . إذا لم تكفى سوى أكاديمية حتى هذه الساعة المقدورة فإنه لا يؤسف عليك إطلاقاً . هل الكمال الأخلاقى لدى هذا المجهول هو الذى يغريك ؟ وهل هذا هو نوع القدرة الضرورية لدى الناس الذين يرتكبون جريمة ؟ ... إننى أقدرك تقديراً أكبر من أن أقترض ...

أجابته « هيلين » بنغمة باردة : أوه ! افترضى بكل شئ يا سيقى .

ولكن برغم قوة الطباع التى أثبتتها فى تلك اللحظة جفف احتدام عينيها بصعوبة الدموع التى ترققت فيها . وحين الغريب لمة الأم من بكاء الشابة : وألقى نظرة (نسر) نحو الماركيزة التى اضطرت بقوة لانقحام أن تنظر نحو هذا الغاوى الرجيم . والواقع أنه عندما تقابلت عينا تلك المرأة بعينى هذا الرجل الصافيتين المضيئتين أحست فى روحها برعشة

شبيهة بالخياج الذي يصيبنا عند مرائي الحبة أو عندما نلمس زجاجة من
الخمر المعتق !

صاحت هي نحو زوجها : يا زوجي ... إنه الشيطان ! فهو يستني
بكل شيء ...

وهب اللواء كهي يمسك بحبل الجرس .

قالت « هيلين » للقاتل : سوف يهلكك .

فابتسم المجهول . وتقدم خطوة ، ووقف ذراع الماركيز ، وأرغمه
على أن يتحمل نظرة ملأته بالذهول ونزعت منه قوته .

قال : سوف أدفع لك ثمن ضيافتك وبهذا نصبح برئى الذمة .
وسوف أوفر عليك العار فأقوم بتسليم نفسي . إذ ما الذي سوف أعمله

الآن في الحياة بعد كل ذلك ؟

أجابت « هيلين » وهي توجه إليه أحد الآمال التي لا تلمع إلا في
عيني فتاة : تستطيع أن تندم .

قال القاتل في صوت جهوري ، وهو يرفع رأسه في خيلاء : لن أندم
على الإخلاق .

قال الوالد لا ينته : إن يديه ملطختان بالدم .

أجابت : سوف أجففهن .

عاد اللواء إلى كلامه دون أن يجسر على الإشارة إلى المجهول :
ولكن . . . هل تعرفين فقط ما إذا كان هو بريئك ؟

فتقدم القاتل نحو « هيلين » التي بدا جمالها برغم براءته وتبويته
كما لو كان يضيء بتور داخل استطاعت أشعته أن تطلي وأن تبرز
أصغر ملامحها وأرق خطوطها إن صح هذا التعبير . ويعد أن ألقى على هذه
الخلقة الساحرة نظرة عذبة لا يزال شررها عتيقاً . قال وهو يحاول أن يخفي
انفعالا حاراً : أليس في حبي لك ، من أجبك أنت ذاتك ، وفي تبرئة ذاتي
من ساعتي الحياة اللتين باعهما لي والدك رفض لتضحياتك وإخلاصك ؟
صاحت « هيلين » في لحظة مرقت القلوب : وأنت أيضاً ترفضني ؟
وداعاً إذن للجميع سوف أذهب لأموث .

قال الأب والأم معاً : ماعني ذلك ؟

فبقيت صامتة ، وخففت عينيها بعد أن استجوبت الماركيزه بنظرة
عين بليغة . منذ اللحظة التي حاول اللواء وزوجته فيها الصراع بالأقوال
وبالأفعال ضد الانتياز الغريب الذي انتحله المجهول بالبقاء وسطهم
والتي حاول هذا الأخير ابتداء منها أن يقذف بالقصوى الذي يسبب اللوار
التابع من عينيها ، بقى اللواء وزوجته خاضعين لفتور لا تفسر له ، وعاونهما
عقلهما المسترخي معاونة غير مجدية لقهر القدرة العلوية التي وقعا تحتها .
وصار الهواء ثقيل بالنسبة إليهما . وأخذوا يتنفسان بصعوبة دون
أن يستطيعا إبداء أي اتهام نحو ذلك الذي طغى عليهما بهذه الطريقة ،
برغم أن صوتهما داخلهما جعلهما يدركان أن ذلك الرجل السحري هو مصدر
عجزهما . وفي وسط هذا الاحتضار المنعرج نهن اللواء أن جهوده يجب

أن تهبط إلى التأثير على عقل ابنته المزعزع ، فأمسك بها من وسطها ،
ونقلها إلى شباك بعيد عن القاتل .

وقال لها بصوت منخفض : ابنتي العزيزة ، إذا كان قد ظهر حب
غريب فجأة في قلبك فإن حياتك المليئة بالبرادة وروحك النقية النقية .
قد أعطيتني أدلة عديدة على طبعك كيلا أقترض أنك بحاجة إلى طاقة
من أجل التغلب على الحركة جنونية . وإلا فإن ساركك يخفى سرّاً إذن
وعلى كل حال فإن قلبي مليء بالثنا ، وتستطيعين أن تعترقي لي بكل
شيء ، ولو مؤقت قلبي فسأعرف يا ابنتي إسكات الآلام والاحتفاظ لاعتراك
بصمت مخلص . هيا . هل أنت تغيرين من عاطفتنا نحو إخوتك أو نحو
أختك الصغيرة ؟ هل يوجد في روحك حزن غرامي ؟ نكلمني . اشرحي
لي الأسباب التي تدفعك إلى هجر أسرتك واعتزالها وحرمانها من أكبر
مقائنها ومفارقة أمك وإخوتك وأختك الصغيرة .

أجابت : يا أبتي ، إنني لست غيوراً من أحد ، ولا عاشقة أحداً
ولا حتى صديقك الدبلوماسي السيد « ديفاندنيس » .
واصغر وجه الماركيزة وتوقفت أينما وهي تتأملها .
— أليس من واجبي إن عاجلاً أو آجلاً أن أذهب لأعيش في حماية رجل ؟
— هذا صحيح .

وهل نستطيع أبداً أن نعرف بأى إنسان نربط مصيرنا ؟
إنني أعتقد في هذا الرجل .

قال اللواء وهو يرفع صوته : يا طفلة ؛ ألا تفكرين في كل المصاعب
والآلام التي سوف تلاحقك .

— إنني أفكر في مصاعب وآلامه ...

قال الأب : أي حياة !

أجابت الابنة وهي تتمتم : حياة امرأة .

صاحت الماركيزة وقد استردت الكلام : إنك لاشك عالمة .

سيدتي . إن الأسئلة تمل على الأجوبة . ولكن إذا شئت فسأتكلم
بوضوح أكبر .

قول كل شيء يا ابنتي . فأنا أم .

هنا نظرت البنت إلى الأم ، وأدت هذه النظرة إلى سكوت الماركيزة
بعض الوقت .

— « هيلين » سأتحمل انتقاداتك ومؤاخذاتك إذا كان لديك
شيء منها نحوي ، على أن أراك تبعين رجلاً يتحاشاه الجميع
فرعاً .

— (ها أنت ذى) تترين يا سيدتي أنه يدون سيكون وحيداً .

قال اللواء : كفى يا سيدتي فلم يعد لدينا سوى ابنة واحدة !

ولفطر إلى « مريتا » التي كانت نائمة باستمرار ، ثم أضاف وهو
يلتفت نحو « هيلين » وسوف أحبك في : أحد الأديرة .

أجاب يهود موبس : ليكن يا أبى ... وسأمرت فيه . لست مسئولا عن حياتى أو عن روحها إلا أمام الله .

وتبع هذه الأحوال فجأة صمت عميق . ولم يجزؤ شهود هذا المشهد الذى كان كل شيء فيه يحس الإنحساسات العادية فى الحياة الاجتماعية على أن ينظر أحدهم إلى الآخر . وفجأة لمح الماركيز مسلساته ، فأمسك بواحد منها وعمره بخفة ووجهه نحو الغرب ، وعند سماع الرجل الصوت الصادر عن الفرقة استدار ، وألقى نظره الهادئة النفاذة نحو اللواء الذى استريح ذراعه بمطرافه لا تمهر ، وسقط فى ثقل بحيث تلحرج المسلس فوق السجادة ..

قال الأب مخذولا عندئذ فى هذا الصراع الخفيف : ابنتى أنت حرة . قبلى أملك إذا كانت تريد أن تغللك ، أما أنا فلا أريد أن أراك أو أن أسمعك ..

قالت الأم إلى ابنتها : « هيلين » : إذن فكرى أنك ستعيشين فى شقاء ، وخرجت زفرة أو قواقة من صدر القاتل العريض جذبت إليه الأنظار ، وكان وجهه مضطربا بتعبير ازدراء .

صاح اللواء ناهضا : ها هى ذى ضيافتى لك تكلفنى تمنا باهظا ! لقد قتلت منذ قليل شيئا مستأ ، وها هنا تعتدى بالقتل على أسرة بأكلها . مهما يحدث فسيكون ثمة شقاء بهذا البيت .

سأل القاتل وهو ينظر إلى الرجل العسكرى بثبات : وإذا كانت ابنتك سعيدة ؟

أجاب الأب بمجهود مذهل : إذا كانت سعيدة معك ، فلن أندم عليها .

وهبط « هيلين » على ركبتها فى حياء أمام أبيها ، وقالت له بصوت عطوف : أى أبنت ، إننى أحبك وأحترمك سواء بذلت لى كنوز طبيبتك أو جفاوت حرمانك لى من حظوتك ورضاك . ولكننى أتوسل إليك ألا تكون آخر أقوالك لى أقوال غضب .

ولم يجزؤ اللواء على أن يتأمل ابنته . فى هذه اللحظة تقدم الغربى ملقيا نحو « هيلين » ابتسامة محملة بشيء من الجحيم وبشيء من الفردوس معاً ، وقال :

— أنت يا من لا تحبلى قاتل ... يا ممالك الرحمة . هلمى . تعالى ما تمت مصرة على أن تكلى لى عقليد مصيرك .

صاح الأب : شيء لا يتصور .
وأثقت الماركيزة نحو ابنتها نظرة غريبة ، وفنحت لها ذراعها ، فهرعت إليها ، هيلين « باكية .

— وداعاً . وداعاً يا أماء !
وأعطت « هيلين » الغربى إشارة بجساره أطربته ، وبعد أن قبلت

بد والدها وقبلت ، موبتاه ، أبيل ، الصغير بسرعة ، ولكن بغير متعة ،
ولت الأديار مع القاتل .

صاح اللواء وهو يصغي لخطوات الخاريين : من أي جهة يذهبون ؟
وعاد يقول وهو يوجه الكلام إلى زوجته : سيدتي ، أعتقد أنني في
حلم : تخفي هذه المغامرة عني سرّاً ما ، لا بد أنك تعرفينه .
وارتجفت الماركيبة ، وأجابت :

— لقد صارت ابتك .. منذ بعض الوقت ذات خيال زواقي
غريب وبتهوس هوساً فريداً . وبرغم اهتماماتي بالقضاء على تلك التزعة في
خصامها ...

— ليس هذا واضحاً ...

ولكن خيل إليه أنه سمع في الحديقة خطوات ابنته والرجل الغريب
فقطع اللواء كلامه كى يفتح الشباك بسرعة ، وصاح : « هيلين » ،
وضاح هذا الصوت في الليل الهمم كنومهم غير عجيبة . وعند تفتحه
بهذا الاسم الذي لم يعد يعادله شيء في الوجود ، أفاق اللواء كما لو كان
يفعل رقية سحر من الانتان الذي جعلته قدرة رجيسة أسيراً له . وكما
لو كان قد تخلل وجهه ضرب من الإغام الإلهي . فرأى المشهد الذي
جرى منذ هنيهة في وضوح ، ولعن ضعفه الذي لم يفهمه ، وضعدت
قشعريرة حارة من قلبه إلى رأسه وإلى قدميه . وعاد هو نفسه خجلاً
متعطشاً إلى الانتقام وصاح صيحة مريفة : النجدة ! النجدة !

وبخى نحو جبال الأجرام وشدها كما لو كان يريد أن يحطمها
بعد أن جعلها ترق رنيناً عجبياً . وهب كل الخدم قفزاً من نومهم :
أما هو فظل دائم الصباح ، وفتح نوافذ الطريق ، ونادى الشرطة ،
وأحضر مسدساته وأطلقها كى يتعجل سير « السواري » واستيقاظ خدمه
ومجري جيرانه . وتعرف الكلاب على صوت سيدهم عندئذ ونبحت ،
كما أخذت الخيول تصهل وتنكت الأرض بأقدامها . وتحول المشهد
إلى زوبعة ضارية وسط تلك الليلة الخادئة ، ورأى اللواء وهو يبهط السلام
علواً وراء ابنته خدمه مذعورين وقد تجمعوا من كل صوب .

— ابنتي ؟ « هيلين » اختطفت . اذهبوا إلى الحديقة ! راقبوا
الشارع ! افتحوا للشرطة ! يا لقاتل !

وفي الحال حطم السلسلة التي تعوق كلاب الصيد الكبير بقوة الغضب .

— « هيلين » ! « هيلين » !

ووثب الكلب وثبة أسند ، وتبع مسعوراً ، واندفع في الحديقة بسرعة
حتى لم يعد اللواء يستطيع أن يتبعه . ودوت في هذه اللحظة أصوات
عدو الخيول في الشارع ، وذهب اللواء مهرولاً يفتح الباب بنفسه .

يا « أوباشي » . اذهب اقطع طريق انسحاب قاتل السيد « دي
موف » . لقد ولي مخترقاً بساتيتي . بسرعة حاصروا الطريق إلى (تل
بيكاردى) وسوف أقوم بحملة مطاردة في كل الأراضي والحدائق واليوت.
أما أنتم — قال للخدم — فامسكوا بمراقبة الطريق وحاصروا المسافة من عند

السور حتى (قرساي) إلى الأمام جنيناً !

ولم يمكس إلا ببندقية أحضرها له خادمه . واندفع في البساتين وهو يتنادى الكلب : « ابحث ! » فكان الكلب يرد عليه بنباح مريع عن بعد ، ولقجه في الاتجاه الذي بدا له أن شقيق الكلب كان يأتي منه . وفي الساعة صباحاً لم تكن أبحاث الشرطة أو اللواء أو خدومه أوجيزاته ذات جدوى . ولم يعد الكلب . وأعياء اللواء التفت . وقد شاخ سلفاً بفعل الحزن ، فعاد إلى (الصالون) منفرداً إلى نفسه برغم وجود أولاده فيه . قال وهو ينظر إلى زوجته : لقد كان لديك برود لزاماً ابنتك... هالك ما تبقى لنا منها ! وأضاف وهو يشير إلى النول حيث رأى وردة مشغولة مهذوبة : لقد كانت هذا منذ هتية . والآن ضاعت . ضاعت ! وصار يحب وهو يخفي رأسه بين يديه ، وبقي صامتاً لحظة دون أن يعرف على تأمل (الصالون) الذي كان فيها مضى بمنحه أعذب لوحة في السعادة البيتية . وأخذ شروق القجر يصارع المصابيح الذائبة ، وحرقت الشموع نقوشها المزهرة من الورق . وكان كل شيء يتلاطم مع بأس الوالد . قال بعد لحظة صمت وهو يشير إلى النول : لا يد من تحميم ذلك ... لن أستطيع أن أرى شيئاً لما بذكرنا بها . . .

كانت ليلة عيد الميلاد اليشعة التي أصيب الماركيز وزوجته فيها بفقد أبشهما الكبير ، دون أن يقويا على معارضة السيطرة الغريبة التي



أفندنا فيهم الرجل الذي أغواها. عن غير قصد ، بمثابة إعلان بحث
إذ أدى إفلاس أحد وكلاء النقد إلى خراب الماركيز . فمرح عقار كل
أملاك زوجته لكي يحاول القيام بمضاربة تؤدي قوائدها إلى إعادة ثروة
أسرته الأولى إليها . ولكن أتى هذا المشروع على كل شيء ، والنهي بإفلاسه
واندفع الذواء بدافع بأسه إلى محاولة كل شيء ، فتغرب ومجر وطنه .
ومضى على رحيله ست سنوات . وهرغم أن أسرته نادراً ما تلقت أخباره
أعلن إليها عودته قبل اعتراف أسبانيا باستقلال الجمهوريات الأمريكية
بأيام قلائل .

وفي صباح أحد الأيام الجميلة وجد بعض البحارة الفرنسيين
الذين فقد صبرهم من أجل العودة إلى وطنهم محصلين يثروات حصلوا
عليها مقابل الأعمال الطويلة ، والقيام برحلات خطيرة سواء إلى (المكسيك)
أو إلى (كولومبيا) ، وجد هؤلاء البحارة أنفسهم فوق مركب أسباني
شرعى ذى صاريين على بعد بعض فراسخ من (بورده) .
وكان ثمة رجل ، عجوز من جراء المناعب ، أو يدافع الحزن ، أكثر مما
كان عجوزاً بمقتضى سنوات عمره ، يستند إلى (منصة) المركب ،
ويظهر غير واع مشهد المسافرين الجحمة فوق السطح .

وكانوا قد أفنوا من أخطار الملاحة . واحتفلوا بحبال اليوم ، فصعلوا
جميعاً فوق الجسر كما لو كانوا يؤدون التحية لأرض موطنهم . وشاء
أغلبهم بإصرار أن يروا عن بُعد المنارات وعمار (الجاسكرفي) ويرج

هضبة (الكوزدوان) ممزوجة باختلاقات الخيال المتطرف عن بعض
السحب البيضاء المرتفعة عند الأفق . ولولا الشراشيب البيضاء المنقصة
التي كانت تتلاعب في مقدمة المركب ، ولولا الخط الطويل الذي كان
سرعان ما يختفي من ورأها ، لاعتقد المسافرون أنها كانت بلا حراك وسط
البحر من شدة تكوين البحر هنالك . وكانت السماء ذات صفاء
ساحر . وكانت صبغة أركانها الداكنة تصل بدرجات هائلة غير
محسوسة إلى حد اختلاطها بلون المياه المائل إلى الزرقة مع تخطيط
نقطة التقائها بخط كان ضوءه يتلألأ بشدة على نحو ما تتلألأ الكواكب .
وكانت الشمس تدفع بخلايين الوجوهات إلى النمعان على امتداد البحر
المائل . بحيث كانت سطوح الماء الشاسعة تبدو أكثر يربقاً تقريباً
من حقول قبة السماء .

وكانت أشعة المركب كلها منتفخة برياح ذات رقة عجيبة . وكانت
ملاحتها بيضاء ناصعة كالجديد . كما كانت خيامها الصفراء ترفرف
وتوسم مناهات حبالها بدقة صارمة فوق أرضية لامعة من الهواء والسماء
والبحر دون أن تتفيل أي صبغات أخرى سوى صبغات الظلال التي
تسقطها تلك الأشعة الندية . يوم جميل .. ريح رطبة .. رؤية الوطن ..
بحر هادئ .. خفيف أسبان .. مركب شرعى بصاريين ... يمضي وحيداً أو
يزلزل فوق المحيط كامرأة تطير نحو موعد لقاء .. لقد كان ذلك لوحة
ملية بالانسجام والتناسب .. مشهد تحيط فيه الروح الإنسانية بفضاءات

لا تتغير ابتداء من نقطة كان كل شيء فيها حركة . كان ثمة تعارض مدحش بين الوحدة والحياة ... بين السكون والوضوء ... دون أن تمكن معرفة أين كانت الضوضاء والحياة أو العدم والصلب . كذلك لم يكن يقطع حبل ذلك البحر السماوي صوت إنسانى واحد .

وبقى القبطان الأسبانى وبجاريته وجميع الفرنسيين جالسين أو واقفين وقد استغرقوا جميعاً فى وجد دينى ملىء بالذكريات . وكان هناك بعض التكامل فى الهواء . وكشفت الوجوه المزهرة عن نسيان تام للمساوى المنقضية . وأخذ هؤلاء الرجال يتأيلون فوق هذه السفينة الحلوة كما لو كانوا فى حلم ذهبي .

وبرغم ذلك كان المسافر العجوز المستند إلى (مترسة) السفينة ينظر من حين لآخر فى نوع من القلق . كان ثمة تحد للصغير المزوج بكل ملامح وجهه فى وضوح . وكان يبدو كأنه متخوف من ألا يلبس بسرعة إلى حد ما أرض فرنسا . وكان ذلك الرجل هو الماركيز ؛ إذ لم يكن الخط أصم أمام صرخاته وجهده التابعة من رأسه . وبعد خمسين سنوات من المحاولات والأشغال الشاقة رأى نفسه مالمالكاً ثروة ذات شأن وكان مشوقاً شوقاً شديداً لرؤية بلده . وليحصل الخط إلى أسرته ، فتمسح على منوال بعض التجار الفرنسيين من (هافانا) فى إبحارهم فوق ظهر سفينة أسبانية ذات شحنة فى اتجاه (بوردهو) .

وبرغم ذلك أنهكه توقع الشر حتى صار خياله يرسم له أحلى الصور

الذهبية عن سعادته الماضية . وعندما شهد عن بعد الخط الأسمر الذى ترسمه حافة الساحل الأرضى اعتقد أنه يرى زوجته وأولاده ، وصار فى بيته وفى مسكنه . وأحسن هنالك بأنه فى رحمة وتلاطم وتربيت . وتخيّل « مويثا » جميلة كبيرة موقرة كفتاة شابة . وعندما صارت هذه اللوحة الخيالية قريبة من الحقيقة انكبث الدموع من عينيه . وعندئذ - كأنه حتى اضطرابه - نظر إلى الأفق الرطب المقابل للخط الضبابى الذى أشار إلى الأرض .

قال : إنه هو إنه يتبعنا .

صاح القبطان الأسبانى : ما هذا ؟

عاد الراء يقول بصوت خفيض : مركب

أجاب القبطان « جوميز » : لقد شاهده بالأمس سلفاً . ثم نظر إلى الفرنسي كأنه يريد أن يستجوبه وقال عندئذ فى أذن اللواء : لقد طاردنا دائماً ولا أدري لماذا لم يلتحق بنا أبداً .

عاد الرجل العسكرى العجوز يقول : مع أنه ذو فلول أفضل من قلوب سفيتكم اتعية (سان فيردينان) .

- سوف يصاب بعطب .. ثمة ثقب فى السفينة .

صاح الفرنسي : إنه يلتحق بنا .

قال له القبطان فى أذنه : إنه أحد الغراصنة (الكولومبيين) نحن لا نزال على بعد ستة فراسخ من الساحل . وقد هدأت الريح .

— إنه لا يسير . إنه يطير كأنه يعرف أن فيرسته ستقات منه في غضون ساعتين . صاح القبطان : هو ! آه ! إنه لا يسير (عطيل) عبقاً ، لقد أغرق أخيراً مركباً حربياً إسبانياً وليس مزوداً برغم ذلك إلا بثلاثين مدفعاً ، ولم أكن أخشى سواء ، لأنني كنت أجهل أنه كان يباشر فرصته في جزائر (الأنتيل) ... آه ! آه !

وعاد يقول بعد فترة سكون نظر في أثناءها إلى قلوب سفينته :
الريح تشتط . سوف تصل . لا بد من تلك (فالباريسي) لا يرحم .

أجاب الماركيز : هو أيضاً يصل .

لم يعد (عطيل) أبعد من ثلاثة فراسخ . وبرغم أن (علقم) البحارة لم يسمع بحادثة الماركيز والقبطان « جوميز » فقد دفع ظهر تلك السفينة الشراعية أغلب البحارة والمسافرين إلى المكان الذي كان فيه المتخاطبان ، ولكن جميعهم كانوا يرونه مسرعاً عن اهتمام . علمه أن المركب الشراعي ذي الصاريين سفينة تجارية ، وصاح فجأة أحد الملاحين في لغة قوية :

— باسم « سان جاك » لقد اشتعلنا .. هاك القبطان (الباريسي) .

وبذكر هذا الاسم الخفيف انتشر الرعب في السفينة الشراعية ذات الصاريين ، وساد هرج يعجز التعبير عن وصفه ، وبث القبطان الأسباني بأقواله طاقة وقتية في مجارته ، وحاول . وهو في هذا الخطر تحت تأثير رغبته في بلوغ الساحل بأى ثمن كان — أن يضع بسرعة قذوعه الإضافية

العالية والسفلى وقذوع الميسنة وقذوع الميسرة حتى يعطى الرياح أكبر مسطح من الأشعة التي يزود بها عوارض الصاريين ، ولكن هذه المناورات لم تتم إلا بعد صعوبات شديدة ، إذ كان يقصها بطيعة الحال هذا التناسق الجمعي الرائع الذي يبهير النظر إلى حد كبير في المراكب الحربية .

ورغم أن (عطيل) كانت تطير كطائر (السنور) بفضل توجيه قذوعها ، فلما لم تقطع كثيراً من المسافة في مظهرها ، حتى إن الفرنسيين التعماء جعلوا يتوهمون بعض الوهم الرقيق . وفجأة وفي اللحظة التي أخذت فيها (سان فيدينان) انطلاقاً جديداً بعد جهود لا يصدقها العقل ، وبفضل مناورات بديرة ساعد فيها « جوميز » نفسه بالعمل والحركة وبالصوت ، حدثت حركة خاطئة في الدفة ، مقصودة بلا أدنى شك . أفنذها مدبر الدفة ، فجعل المركب . يسير عرضاً . وأضربت القذوع بضربات الرياح الجانبية ، فصارت فجأة مكشوفة أمام الرياح بدلا من أن تتلقاها بوسعها . وتكسرت الأطراف الخارجية حتى صارت السفينة بأكلها تامة التوقف .

وتملك القبطان غضب لا يمكن التعبير عنه جعله أشد بياضاً من قذوعه . وفي لحظة واحدة ففز فوق مدبر الدفة فأدركه بخنجره وهو في أشد الغضب . ولكنه أقبلت من الخنجر قذفعه بسرعة إلى البحر ، ثم أسلك هو نفسه بالدفة وحاول أن يعالج الاضطراب الخفيف الذي أثار

سقيته الجسور الشجاعة . وتدحرجت دموع اليأس من عينيه ، لأننا نحس بالحزن من الحياة التي تزيف النتائج التي تحققها مواهبنا أكثر مما ينشأ عن الموت المتوقع . ولكن كلما أقسم القبطان أكثر كان العمل يتم بدرجة أقل . وصحب بنفسه مدفع الإنذار على أمل أن يهبط مسرعاً على الشاطئ . في هذه اللحظة أجاب القرصان الذي كان في طريقه إلى الوصول في سرعة مؤثرة بضربة مدفع سقطت قذيفته على بعد ستين قدماً من (سان فيردنان) .

صاح اللواء : صاعقة للتصويب ! إنهم يتكئون مدافع مصبوبة صنعت خصيصاً .

أجاب أحد البحارة : أه ! هذا الرجل كما ترى .. عندما يتكلم لا بد من السكوت .. (فالباريسي) لي يخاف مركباً إنجليزياً ...
صاح القبطان في لهجة يأس بعد أن صوب منظاره ولم يستطع أن يميز شيئاً من ناحية الساحل ... انتهى كل شيء ... إننا لانزال أبعد من فرنسا أكثر مما كنت أعتقد .

عاد اللواء يقول : ولماذا تكذب نفسك ؟ إن ركابك جميعاً من الفرنسيين . وقد استأجروا مركبك . وهذا القرصان (باريسي) كما تقولون . فارع العلم الأبيض و ...

أجاب القبطان : ثم يحرق مركبنا أنيس ذلك هو كل ما يجب أن يكون وفقاً للظروف عندما يريد أن يضع يده على فريسة ثمينة ؟

- أه ! إذا كان قرصاناً !

قال للملاح بتعبير نافر : قرصان ! أه ! إنه يسوى أموره دائماً حسب الأصول أو يعرف كيف يكون كذلك .

صاح اللواء وهو يرفع عينيه إلى السماء : على أي حال فلنسلم . وكانت لا تزال لديه القوة ليحبس دموعه . وعندما انتهى من هذه الكلمات حصلت ضربة مدفع ثانية قذيفة مصبوبة تصويهاً أدق إلى جدران السفينة (سان فيردنان) فأحترقها .

قال القبطان وهو في حالة حزن : أوقف كل حركة .

وعاون الملاح الذي دافع عن أمانه (الباريسي) بذلك بالغ في هذه المناورة اليائسة : وانتظر التوبة خلال نصف ساعة فائتة فريسة لارتياح عميق . كانت (سان فيردنان) تحمل أربعة ملايين من القروطن التي تؤلف ثروة خفية مسافرين ، وثروة اللواء التي تبلغ أحد عشر ألفاً من الفرنكات .

وأخيراً عندما وجدت السفينة (عطيل) نفسها على بعد عشر مرات من مري البندقية أشهرت بوضوح فوهات الاثني عشر مدفعاً المباشرة والخطر والمستعدة لإطلاق النار . وكأنها حمامها ربيع تصحها الشبهان خصيصاً من أجلها . ولكن عين الملاح الماهر كانت تفتن بسهولة إلى سر هذه السرعة . وكان يكفي تأمل وثوب السفينة ذات الصواري وشكلها المسحوب بالطول ، وضيق عرضها ، وارتفاع مجموع صواريها ،

وتفصيل أشرعتها ، وتحتة جهازها الرائع ، والسهولة التي كان يتصرف بها مجتمع ملاحها المتبحرين كرجل واحد من أجل تمام توجيه صفتحتها البيضاء المثلثة في القلوع - كل شيء كان يتم عن ضمانات القدرة في هذه المخلوقة الخشبية المشوقة القلدة التي كانت في سرعة وذكاء فرس حربي أو بعض الطيور الجارحة .

وكان طاقم نوتية القرصان صامتين ، وعلى أهبة الاستعداد في حالات المقاومة لأن ياتهموا المركب التجاري المسكين الذي بقي لحسن حظهم مطرقاً كتلميذ مخفي أمام أستاذة .

صاح اللواء وهو يضغط على يد القبطان الأسباني : توجد مدافع عتمة !

فألقى هذا الأخير نظرة مليئة بالشجاعة واليأس معاً نحو الرجل العسكري القديم وهو يقول له : ورجال !

ونظر اللواء إلى بحارة (سان فيردينان) ثم أجفل ، وكان التجار الأربعة مصفري الوجوه كما كانوا يرتعدون ، في حين كان الملاحون قد تجسعوا حول واحد منهم كما لو كانوا يتسبون أنفسهم ليقفوا في صف (عطليل) : فأخذوا ينظرون إلى القرصان باستغراب شجع . وظل رئيس العمل والقبطان والماركيتر يتبادلون وحدهم أفكاراً شديدة السخاء . وهم يفحصون أنفسهم بالنظر .

- آه ! يا قبطان « جيوميز » لقد ودعت منذ زمن بعيد وطني وأسرقي ،

وكان القلب ميتاً من الحسرة واللوعة . فهل على أن أفارقهما ثانياً في اللحظة التي أجلب فيها الفرح والسعادة إلى أولادي ؟ واستدار اللواء كي يقذف إلى البحر بدمعة غضب وكند ، ولحظ مدبر الذقة وهو يسبح فيه نحو القرصان .

أجاب القبطان : في هذه المرة لاشك أنك ستقول له وداعاً إلى الأبد . وأفرغ الفرنسي الأسباني بالنظرة البلهاء التي وجهها إليه ، وفي هذه اللحظة كانت السفينتان تقريباً بجذاء بعضهما البعض . وآمن اللواء من عراى طاقم ملاحى العدو بتروعة « جيوميز » الخنوية .

كان ثلاثة رجال واقفين حول كل مدفع . وبمجرد رؤية حالتهم العضلية القوية وملائمتهم المقررة وأذرعهم العارية العصبية كان يمكن اعتبارهم قنايل من البرنز ، بل لو حانت ساعة موتهم لقتلوا دون أن ي طرحهم المارت . وبقى الملاحون المدمجون بالسلاح ، وقد ظهر عليهم النشاط والسرعة والشدة بغير حراك ، وكانت كل هذه الوجوه القوية قد سمرتها الشمس سيرة شديدة وجمعتها الأشغال ، وكانت عيونهم تلمع على نحو ما تبدو ذرات النار وتشير إلى مدى ذكائهم الحيوي ومتعهم البهيمية .

وساد صمت عميق فوق ظهر السفينة ، وكأنما صار لوفد أسود من أزدحام الرجال والقبعات . وهذا يكشف عن النظام الذي لا يحد والذي يمثل إرادة صلبة استطاعت أن تحيى هامات هؤلاء الأبالسة

الآتين . وكان الرئيس واقفاً عند أسفل الصاري الكبير . بدراعين متشابكتين وبلون سلاح . ولكن كانت توجد فأس عند قدميه فقط . وكان على رأسه قبعة من اللباد ذات أطراف كبيرة كي تقيه الشمس . فكان ظلها يحجب وجهه . وكان رجال المدفعية والجنود والملاحون أشبه ما يكونون بالكلاب الراقدة أمام أسبادهما . وبذيرين أعينهم على قبطانهم وعلى السفينة التجارية . وعندما تلامست السفينتان . جذبت اهزة القرضان من أحلامه . وقال كلمتين في أذن ضابط شاب كان واقفاً على بعد خطوتين منه .

صاح الملازم : كلاب المهاجمة !

واشبتك السفينة (عطيل) بالسفينة (سان فيردنان) في سرعة خارقة . ووفقاً للأوامر التي لفها القرضان في صوت خفيض وأعادها الملازم . ذهب الرجال المختصون بكل فرع من فروع الخدمة كرهبان الدبر في سرهم نحو الصلاة إلى السطح . حيث شرعوا في تقييد أيادي الملاحين والركاب ووضعوا الأيدي على الكنوز . وفي لحظة كانت الأكلان مليئة بالقروش والمؤن الغذائية كما كان بخارجة (سان فيردنان) منقولين فوق جسر (عطيل) .

واعتقد اللواء نفسه تحت تأثير حلم عندما وجد يديه موقوفتين . ووجد نفسه ملقى فوق بائة صغيرة كما لو كان هونقسه ساعة . وحصل اجتماع بين القرضان والملازم وأحد الملاحين الذي ظهر أنه يشغل خليفة رئيس

العمل . وعندما انتهت المناقشة التي لم تدم طويلاً صفر الملازم إلى رجاله . وبكلمة الأمر الذي أملاه عليهم قفزوا جميعاً فوق ظهر (سان فيردنان) وزحفوا داخل الحبال . وأخذوا يتزعمون غوارض الصواري والأشرعة والعتاد من السفينة في مهارة شبيهة بمهارة الجندي الذي يتلح في ميدان القتال ملايس زميل له استشهد وصارت أحليته وكأؤه موضع ملهه .

قال القبطان الأسباني بيرود إلى الملازم : « لقد ضعننا » .

وكان القبطان قد راقب بالعين حركات الرؤساء الثلاثة في أثناء التداول وأثناء حركات البحارة الذين قاموا بإجراءات التهب المنتظم لمركبه .

سأل اللواء بيرود : كيف ؟

أجاب الأسباني : ماذا تريد أن يفعل بنا ؟.. لقد اكتشفوا بلا شك أنهم سوف يبيعون (سان فيردنان) بصعوبة في موانئ قرنبا وأسيانيا . وسوف يتخربقونها كي لا يشغلوا أنفسهم بها . أما عن أنفسنا فهل تعتقد أنهم يستطيعون أن يتحلبوا غداً وهم لا يعرفون في أي ميناء نطلقوننا ؟

ولم يكذب يتهن القبطان من كلامه حتى منع اللواء صياحاً مروعاً تبعه أضجيج أصم نتيجة سقوط أجسام عديدة هابطة في الماء . فاستدار ولم يعد يرى النجار الأربعة . وكان ثمانية من رجال المدفعية ذوي الوجوه المتوحشة لا يزالون بأذرعهم مرفوعة في الهواء في اللحظة التي كان الرجل العسكري ينظر إليهم في رعب .

قال له القبطان الأسباني بيروود : حينما كنت أقيها لك .

وبعض الماركيز فجأة . كان البحر قد امتعاد سطحه الهادئ سلفاً ، ولم يتمكن من رؤية المكان الذي ابتلع منه هنية رفاقه النساء ، وكانوا في تلك اللحظة يتدهورون بأقدامهم . وقبضات أيديهم مشبودة الوثاق تحت الأمواج الملم تكن الأسماك قد سارعت إلى التهامهم . وعلى بعد خطوات منه كان يوجد مدير الدقة وملاح (سان فيردينان) اللذان كانا يمتدحان سابقاً قدرة القبطان (الباريسي) . وقد أخذوا يصادقان القراصنة ويتآخيان معهم . فيرشدانهم بالأصبع إلى أولئك الذين كانوا يملكونهم جنيرين من بينهم بالانضمام إلى طاقم (عطيل) أما الآخرون فقد كانت أقدام كل منهم مقيدة بطحلبتين برغم أيمنهم المفلتة .

وانتهت عملية الانثناء ، فوضع المدفعيون اثنتان أيديهم على الحكوم عليهم ، وقتلوا بهم دون أى شعائر إلى البحر . وجعل القراصنة يتأملون بفضل خبيث الأساليب المذوعة التي كان الرجال يتساقطون بها وطرائقهم في تغضن الأوجه ، وكذلك آخر أوضاع عذابهم ، ولكن وجههم لم تكن تظهر أى سخرية أو الدهاش أو شفقة . لقد كان ذلك بالنسبة إليهم مجرد حدث بسيط جداً يبدو أنهم تعودوه . أما كبار السن فكانوا يفضلون تأمل الأطلتان المليئة بالقروش الموضوعة عند أسفل الصاري الكبير بإتسامة حزينة مقتضبة .

وأخذ اللواء والقبطان « جوميز » يشاوران في صمت بنظرة كد وهما جالسان فوق إحدى البالات . وسرعان ما وجدا أنهما الوحيدان اللذان بقيا أحياء من طاقم (سان فيردينان) وتحول الملاخون السبعة الذين اختارهم الجاسوس من بين البحارة الإسبانيين تحولوا ظاهراً المرح والسرور إلى قوم من (بيرو) .

وفجأة صاح اللواء الذي أسكت السخط الوثق الكريم عنده كلاماً من الألم والنظر في العواقب : يا للأذلال القساة !

أجاب « جوميز » في برود : للضرورة أحكام ، وهم يطيعون الضرورة ... إذا عثرت مرة أخرى على واحد من هؤلاء الرجال أفلا تدفع بسيفك خلال بطنه ؟

قال الملازم وهو يلتفت نحو الأسباني : يا قبطان ، لقد سمع (الباريسي) عنك ، فأنت كما يقول الرجل الأوحى الذي يعرف جيداً كل المضائق في جزر (الأنثيل) وسواحل (البرازيل) ، فهل تحب . . . فقاطع القبطان الملازم الشاب يتعجب الاحترار وأجابه : سوف أموت كبحار وكأسباني مخلص وكسيحي . هل تسمع ؟

صاح الشاب : إلى البحر .

وبمجرد صدور هذا الأمر أمسك اثنان من المدفعيين « جوميز » صاح اللواء وهو يوقف القراصنين : إنكم جبناء .

قال له الملازم : يا سيخي ... لا تتعامل كثيراً . إذا كان شربطك

الأحمر يؤثر على قبضاتنا فإنتى لا أعبأ به شخصياً ... وسوف يكون لنا أيضاً بعد هزيمة طرف قصير من محادثة ...

وفي تلك اللحظة أدرك اللواء عند سماعه ضوضاء صاه لم تتخرج بأى شكوى أن الشجاع ، جوميز « قد مات كبجوار » وصاح فى فوية غضب خفيف : ثروقى أو الموت !

أجاب القراصن وهو يضحك متكبهاً : آه ! إنك معقول فالآن ... أنت واثق من أن تنال منا شيئاً ...

ثم بإشارة من الملازم اندفع اثنان من الملاحين يقيدون قدمى الرجل الفرنسى . ولكن هذا الأخير ضربهما فى جراحة غير متوقعة ، وسحب بحركة لم يكن يتظرها أحد ، سيفاً متديلاً إلى جانب الملازم ، وبدأ يلعب به برشاقة كالأه قديم من الفرسان يعرف مهنته .

— آه ! يا قاطع الطريق . لمن تلقوا إلى الماء ثمارياً قديماً من رفاق « تايلون » كما تلقون بالخارج .

وانطلقت رصاصات مسدس أو شكت أن تلامس الرجل الفرنسى أثناء مقاومته ، فأسرعت هذه الطلقات انتباه (الباريسى) الذى كان حينذاك مشغولاً بمراقبة نقل العتاد وأدوات السفن التى كان قد أمر بالاستيلاء عليها من سفينة (سان فيردينان) .

وبدون انفصال جاء وأمسك من الخلف بتلابيب اللواء الشجاع ، ووقعه بسرعة وسحبته نحو الحافة ، وتحفز لإلقائه إلى الماء كتصبة حقيرة ، وفي هذه

اللحظة التفت نظرات اللواء بعين الرجل الذى أغوى ابنته التى تشبه عين الوحش : وفي لحظة تعرف الأب ونسبه ، فضغط القبطان دفعتة بحركة مضادة لتلك التى كان قد أتمها من قبل ، كما لو كان الماركيز منعدم الوزن ، وبدلاً من أن يجعل به إلى البحر وضعه واقفاً تحت الصارى الكبير ، وتعالى الهمسات فوق سطح السفينة ، وعندئذ ألقى القراصن بنظرة إلى رجاله ، فساد أعمق الصمت فجأة .

قال القبطان بصوت ثابت واضح : إنه والد « هيلين » . . . والويل لمن لا يؤدى له الاحترام .

قدمى هيلين المتأففات الملىء بالفرح فوق سطح السفينة ، وتصادعت فى السماء كصلاة فى الكنيسة وكأول نداء فى قدام « إلهك » . وأخذت الطحالب ترافق فوق الخيال ، وألقى الملاحون طاقياتهم فى الهواء ، وجعل المدفوعين يذبذبون بأقدامهم ، وظل كل شخص يتحرك ويصرخ ويصفى ويقسم بألفاظ الأيمان . وأدى هذا التعبير المتعصب فى هذه البهجة إلى أن اللواء صار قلقاً كتبها : وعزا هذه العاطفة إلى سر مفرح . فلم يكذب يستعيد الكلام حتى صاح صيحته الأولى : ابنتى ! لكن أين هى ؟

فألقى القراصن إحدى نظراته العميقة نحو اللواء ، وهى نظرة لم تملك أحد استنتاج تفسير لتأثيرها الذى يؤدى دائماً إلى انقلاب فى أشد الأرواح إقداماً . وبأساً ، فأسكتته مثبراً بذلك رضى كبيراً لدى الملاحين وسعادة

جمعة بين الجميع ، حين رأوا قوة رئيسهم تطبق على كل الناس . وقاده أمام باب إحدى القمريات ، ودفعه بقوة وهو يقول : ها هي ذى .

ثم اختفى تاركاً الرجل العسكرى القديم غارقاً في نوع من الذهول أمام مرأى اللوحة التى ظهرت أمام عينيه . وعند سماع « هيلين » باب الغرفة وهو يفتح فى تعجل هبت واقفة من رقاعها فوق الأريكة الوثيرة ، ولكنها رأت الماركيز ، وصرخت فى دهشة ، كانت قد تغيرت تغيراً كبيراً حتى إنه كان يلزمها عينا ولد كى يتعرفا عليها . كانت شمس المناطق الاستوائية قد زادت وجهها الأبيض جبلاً بصفحة سمراء علت بشرتها وتلوين رائع أضفى عليها تعبيراً شعرياً . واشتم في المكان جو العظيمة وثبات الخلالة . واستروح شعوراً عميقاً تنهر منه أشد الأرواح غلظة . وكان شعر رأسها الطويل الكثيف المتهدل في حلقات فوق عنقها الملء بالنبل يضئ بصورة من القوة أيضاً على زهو هذا الوجه وخيالاته . وأتاحت « هيلين » في ثباب وضعها وحركتها الفرصة لوجعها لكي يرمض بالمقدرة التى كانت تمتلكها . وكان انضى بالانتصار يملأ برفق خياشيمها الوردية . وكانت سعادتُها المهادنة بادية في كل تطورات جمالها . فقد كانت تجمع في شكلها بين عدوية العذراء وذلك الذين من الغرور الخالص بالجليلات . وكأنما أرادت كجارية وحاكمة في آن معاً أن تطلع ، لأنها كانت قادرة على أن تحكم . وكانت تلبس ملابس رائعة مليئة بالحاذية والأناقة . وكانت زينتها لا تكلف

سوى الحرير الهندى . أما أزيائها ووسائلها فكانت من الحرير الكاشمير . وذهبت أرتسية (القمرية) الواسعة بساط عجسى : ولكن أظفائها الأريغية كانوا يلعبون عند قدميها مستغرقين في بناء قصور عجيبة يفقد من التلؤلؤ ومن الجواهر الثمينة . والأشياء النادرة الغالية . وكانت بعض الزهريات المصنوعة من الخزف (السيرفر) المطلى بزيشة السيدة « جاكوتيه » تحتوى على زهور نادرة تعبق المكان بشذاها . زهور الياسمين المكسيكى وزهور (الكاميليا) . وترفرف بينها عصافير أمريكية صغيرة مسناسة ، ولعلها كانت من أنواع الياقوت والسفير والذهب الحى . وكان مثنياً في هذا (الصالين) « بيانو » كما كان على الحائط خشب معطى بالمفارش الحريرية الصفراء ، وبعض المرحات ذات المقاييس الصغيرة هنا وهناك من تصوير كبار الفنانين : غروب الشمس للمصور « جيدان » كانت تجاور لوحة من تصوير « نيربور » وعذراء من تصوير « رافائيل » تناقص في شاعريتها لتخطيطاً للمصور « جيوذيه » ولوحة « لجراردو » تطلعى على لوحة « لدرولينج » . وكان فوق مائدة من خشب (اللاكه) الصبغ طبق من الذهب الملء بالفاكهة الشبيهة على أى حال كانت « هيلين » شبيهة بملكة في إمبراطورية ضخمة وسط مدح جمع لها فيه عشيقها المتزوج أرفع وأنفس الأشياء الموجودة فوق الأرض .

وزكر الأولاد نظراتهم بحيرة فاذة على جدهم ، وكانوا قد

تعدوا الحياة وسط الصراع ، والأعاصير والزوايع ، فصاروا يشبهون أولئك
الرومانيين الصغار المطلعين نحو الحرب والدم على نحو ما صورهما
« دافيد » في لوحته عن « بروتس »

صاحت « هيلين » وهي تمسك بوالدها كما لو كانت تحاول أن
تؤكد من صحة الرؤية : كيف يمكن هذا ؟

— هيلين !

— والدى !

وقع كل منهما بين ذراعي الآخر . لم يكن هناك الأب العجوز
أشد قوة أو عاطفة من عناق ابنته .

— هل كنت فوق ذلك المركب ؟

أجاب بتعبير حزين ، وهو يجلس فوق الأريكة ، ويتأمل الأولاد
الذين تجمعوا حوله ، وصاروا يشخصونه بانتباه ساذج : نعم ... أوشكت
على الهلاك لولا .. قالت وهي تقاطعه : لولا زوجي ... أظن ..

صاح اللاء : آه لماذا كان مقدراً أن ألقاك هكذا « يا هيلنتي »
أنت يا من بكيت مراراً . كان على إذن أن أتى من أجل مصيرك .

سألت وهي تبسم : لماذا ؟ أكن تكره إذن سعيداً لو عرفت أنني
أسعد زوجة بين كل الزوجات .

صاح وهو يفتقر من الدهشة : سعيدة ؟

— نعم يا والدى .

واصلت كلامها وهي تمسك بيديه وتقبلهما ، وتضبط عليهما
بصدرها الخلفي ، بحيث أضافت إلى هذا التلاطف جو احتفال الحفاوة ،
وأصبحت عليه بتألق عينها من الانبساط والسرور دلالة أكبر .

سأل وهو مليء بالفصول لمعرفة حياة ابنته ناسياً كل شيء أمام
طلعتها الساطعة : وكيف هذا ؟

أجابت هي : اصغ يا أبى ... إن عشقي وزوجي - وعبدى وسيدى
رجل ذو روح أكبر اتساعاً من هذا البحر الذى لا حدود له ،
وأشبه بالماء فى خصوصية رفته .. إنه إله فى النهاية ! منذ سبع سنوات
لم تبد منه قط عبارة أو شعور أو حركة يمكن أن تتنافر مع الانسجام
القدسى فى أحاديثه وعلاماته وحيه . لقد نظر إلى دائماً وعلى شفوية
إتسامة التصديق ، وفى العيتين شعاع من الفرح . ويسيطر صوته
الشبه بالرعد هناك فوق السقفة على زئير العواصف أو زوايع العارك
أما هنا فصوته رقيق منغم مثل موسيقى « روسيني » التى تصل أعماله
الغنية إلى هنا . إننى أحصل على كل ما يمكن أن تبده لزوجات امرأة .
بل إن رغباتي تستوفى أحياناً بأكثر من المطلوب . إننى ملكة البحر
وطاعتي واجبة هنا كما لو كنت الحاكمة - أوه ! سعيدة .. ! واصلت
كلامها وكأنها تقاطع نفسها : سعيدة ليست الكلمة التى تستطيع أن تعبر
عن سعادتى . إننى نصيب كل النساء ! الإحساس بالحب ! والتفانى
الكبير من أجل المحبوب : والالتقاء فى قلبه .. الخالص به .. بشعور

لا نهائى تضيق فيه روح المرأة وعلى ... الدوام، قل لى ... هل هذه هى السعادة ؟ لقد التهمت ألف وجود حشوت بها وجودى أنا وحدى .
ها أنا ذا وحلى الآمرة . ولم تطلأ مخلوقة آمن جنسى قدمها قط فوق هذه السفينة النبيلة حيث يوجد « فيكتور » دائماً على بعد خطوات منى إنه لا يستطيع أن يبعد عنى إلا بمقدار ما يذهب من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها ... ثم واصلت بتعبير دقيق خبيث : سبع سنوات ! حب يقاوم طول هذه السنوات السبع . هذه المنعة المتصلة . وهذه التجربة المستمرة فى كل اللحظات .. هل هذا هو الحب ؟ لا ! أوه ! لا .
إنه أفضل من كل ما أعرفه فى الحياة ... ويتقص لغة الناس القدرة على التعبير عن سعادة علوية من السماء .

وأقلت سيل من الدموع من عينيها المختمتين . فألقى الأطفال الأربعة عندئذ صيحة شكرى . وجرروا نحوها مثل جري الكناكيت صوب أمهم ، وأدهش الأكبر اللواء بنظرته إليه فى تهديد .

قالت : « أبيل » ... يا ملائكى إني أبكى من الابهاج .
وأخذته فوق ركبتيها فربت الطفل عليها بألفة . وهو يمر بذراعيه حول رقبة « هيدى » ذات الخلال كالأشبل الذى يريد اللعب مع أمه .
صاح اللواء وقد أذهلته لإجابة ابنته الحماسية : ألا تملين ؟
أجابت : بلى . على الأرض حين نذهب إليها ، وحتى هناك لا أفارق زوجى على الإطلاق .

- ولكنك كنت مشغوفة بالحفلات والأعياد والموسيقى ؟

الموسيقى هى صوته . أحيادى هى الحلى التى أبدع وضعها أمامه .
وعندما تعجبه زينتى ، أليس هذا كما لو كانت الأرض بأكلتها تعجب
بإذالك فقط هو السر الذى يسيه لا أرغب فى وداع كل هذه الماسات
والعقود والنيجان والأحجار الكريمة والتراوت والزهور وروائع الفن التى
يجزل لى عطاءها وهو يقول : « هيلين » مادمت لا تذهبين إلى الميخعات
فإني أريد أن تأتى الميخعات إليك .

- ولكن فوق هذه الضفة يوجد رجال ... رجال شديدي الوقاحة
مفزعون لهم شهرات ...

قالت وهى تهتسم : إني أفهمك يا آيت ... اطمئن . فلم تكن إمبراطورة
محايدة برعاية وإكرام مثلما يبدل لى ، فهؤلاء الناس يتطربون « ينشاعون »
وبرهون القدر ، ويعتقدون أنني الروح الحامية لهذه السفينة ولشروعائهم
ولنجاحهم . أما هو فرأهم . وفى إحدى المرات حدث يوماً أن واحداً من
الملاحين لم يوف لى الاحترام ... قولاً - أضاعته ضاحكة - وقيل أن
يبلغ « فيكتور » ذلك ألقى رجال الطاقم الرجل فى البحر برغم العفو الذى
منحه لإياد . لأنهم يحبوننى مثل ملائكتهم الطيب ، إذ ألقى أروعهم عند
المريض . وكان لى حظ إنقاذ بعضهم من الموت بالسحر عليهم فى ثبات
المرأة ومواظبتها . فهؤلاء الرجال المساكين عمالقة وأطفال فى آن معاً .

- وعندما تقع المعارك ؟

— لقد تعودتها ولم أرتعد إلا خلال الحركة الأولى . . أما الآن فقد ألفت روجي هذا الخطر بل حتى ... إنني ابتك ... وإنني أحبه .

— وإذا هلك ؟

— سأهلك .

وأولادك ؟

— إنهم أولاد اغريط والخطر ، ويقاسمون والديهم حياتهم ... وجودنا وجود واحد ولا ينقسم . إننا نعيش جميعاً نفس المعيشة : والجميع مسجلون على نفس الصفحة ، ومحمولون على نفس الزورق ... نحن نعرف ذلك . — أنجيته إذن إلى هذا الحد حتى تفضليته على كل شيء ؟

قالت في تكرار : على كل شيء ولكن ليس علينا أن نستطيع مدي هذا السر . على فكرة ! هذا الطفل العزيز .. بشكل ما هو أيضاً ، هو ! ثم ضغطت على « أبييل » بقوة غريبة . واهالت تطيع قبلات تلهم بها تخليه وشعره ...

صاح اللواء : ولكن ... لن أعرف كيف أنسى أنه قدف منذ قليل بتسعة أشخاص إلى البحر .

— كان لابد من ذلك بغريبتك ... لأنه ذو دوافع إنسانية وتكريم إنه يسيل أقل دم ممكن لكي يحافظ على مصالح عامة الناس الذين يحسبهم وعلى القضية المقدسة التي يدافع عنها . حادثه عما تراء سبباً وسوف ترى أنه سيعرف كيف يجعلك تغير من وجهة نظرك .

قال اللواء كما لو كان يتحدث إلى نفسه : وسجنته ؟

أجابت هي في اعتزاز بارد : ولكن ... إذا كانت هذه فضيلة ؟ إذا لم يستطع العبد الإنساني أن ينتقم له ؟

صاح اللواء : ينتقم لنفسه ؟

سألته : وما هي جهنم إذا لم تكن انتقاماً أبدياً من أجل بعض الأخطاء في يوم من الأيام !

— آه ! لقد ضمت . لقد رفاك بقية سحرية . لقد بلبل أفكارك إنك تهدين .

— ابق هنا يوماً يا والدي ، وإذا شئت أن تصغي إليه وأن تتأمله فسوف تحبه .

قال اللواء بنجهم : « هيلين » إننا على بعد فراسخ من فرنسا . وجفلت ، ونظرت من كثوة الحجرة ، وأشارت إلى البحر وهو يسط خبيلاً هائلاً من الماء الأخضر .

أجابت وهي تطرق السجاد بشرف قدمها : هالك بلادى .

— ولكن أكن تأتي لترى أمك وأخذك وأخوتك ؟

قالت والدموع في حلقها : أوه ! نعم ! إذا أراد هو ، وإذا كان في استطاعته أن يرافقتي .

واصل الرجل العسكري : لم يعد لك شيء « يا هيلين » لا وطن ولا أسرة ... ؟

أجاب في حالة من الزهو: ويلهجة ملبية بالنيل: إنني زوجته...
هالك منذ سبع سنوات أول سعادة لا تأتي مني منه. وأضافت وهي تمسك
يد والدها وتقبلها: وهالك أول مؤاخذه أسمعاها .
— وضربك ؟

— ضميرى ! إنه هو ضميرى .

ثم ارتعدت بشدة في هذه اللحظة، وقالت: ها هو ذا .. حتى في
وقت المعارك أتعرف على خطوته من بين كل الخطوات فوق السطح .
وضجاء جعلت الحمرة خديها أرجوانيين . وجعلت ملامحها ساطعة
وعينها لامعتين . وصارت بشرتها بيضاء بياضاً مطلقاً .. كان ثمة
سعادة وجب في عضلاتها . وفي عروقها الزرقاء . وفي رعدتها غير
الإرادية كأي إنسان . وقد انقلع اللواء إزاء هذه الحركة المشحونة
بالخساسة .

وفعلا بعد لحظة دخل القرصان، وجاء يجلس فوق مقعد كبير .
وأمسك بابه الأكبر وأخذ يلعب معه . وساد الصمت لحظة : إذ أخذ
اللواء يتأمل بعض الوقت هذه القمرة الأنيقة الشبيهة بعش العصافير
الأسطورية ، وهو مستغرق في أحلام مثل الشعور المبهم في خيالات
التعاس . ففي هذه القمرة تتوجت هذه الأسرة فوق سطح المحيط
منذ سبع سنوات بين المياوات والأمواج : معلقة بليمان رجل واحد ،
ومسوقة خلال أعطار الحرب والعواصف كما يكرن أحد البيرت العالمية

مسلياً قياده في الحياة لرب في قلب الشتاء الاجتماعي... ونظروا إعجاباً إلى
ايته .. الصورة الوهمية لإلهة البحرية .. عذبة الجمال .. غنية بالسعادة...
ويبدو كل ما حولها من كنوز باهتة إلى جانب كنوز روحها ومضات
عينها والشاعرية التي لا توصف والتي تعبر عنها في شخصها وفي حيطها.
وأعطاه هذا الموقف غربة أذهلته ، وعملاً وسوراً في العاطفة، وفي
الاستدلال . عملاً بالأفكار العادية البسيطة . وكانت الروابط
الاجتماعية الباردة المغلودة الأقم تموت إزاء هذه اللوحة . وأحس الرجل
العسكري العجوز بكل هذه الأشياء . وقوم كذلك أن ابنته لن تهجر
إطلاقاً مثل هذه الحياة الفسيحة الخصبة في تقابلاتها، المليئة بحب صيادق
إلى هذا الحد . ثم إنها إذا كانت قد تذوقت مرة خطراً دون أن تهايه
فلن تستطيع العودة إلى المشاهد البسيطة في مجتمع مبدل محدود .

سأل القرصان قاطعاً الضمت ونظراً إلى زوجته : هل أضايكما ؟
أجابته اللواء : لا لقد روت لي « هيلين » كل شيء وأرى أنها ضاعت
من أجلنا ...

قال القرصان بقوة: لا- بعد بضع سنوات بحكم حق الاكتساب بمضى
الوقت سيؤذن لي بالعودة إلى فرنسا: عندما يكون الضمير نقياً ويتحول
قوانينكم الاجتماعية التي أطاعها رجل ...
ثم سكت مستذكراً أن يأخذ في تبرير مسلكه .
قال اللواء مقاطعاً إياه : وكيف تستطيع ... كيف تستطيع ألا تشعر

بوتزات الضمير لئلا تخميات القتل الجديدة التي ارتكبت أمام عيني ؟ »

أجاب القرصان بهدوء : « ليس لدينا مؤن للغذاء » .

— ولكن إذا نزل هؤلاء الرجال على الشاطئ ...

— سوف يقطعون علينا خط الرجعة ببعض المراكب ، ولن ننسكن

من الوصول إلى (شيل) .

قال اللواء مقاطعاً : « قبل أن نخطروا في فرنسا وأميرالية البحر الأسبانية » .

— بل إن فرنسا تستطيع أن تشاء من رجل لا يزال خاضعاً لحكام

الجنایات فيها ، ويسمح لنفسه بوضع اليد على مركب شرابي ذی

ضاريين مجهز بطاقم من أبناء « بوردو » . وعلاوة على ذلك ألم تطلق

بعض الأحيان طلقات عديدة من المدافع أكثر مما يلزم في ميدان

المعركة ؟

وسكت اللواء ، وقد أخجلته نظرة القرصان . ونظرت إليه ابنته

بشكل يعبر عن الانقصار أكثر مما يعبر عن الحزن ...

قال القرصان بصوت متخفّف : « واللواء : لقد شرعت لنفسی قانوناً

بعدم تثبيت الأسلاب على الإحلاق ، ولكن مما لاشك فيه أن قصي

سوف يكون أكبر شأنًا مما كانت ثروتك ، فاسمح لي بأن أعيدها

في عملات أخرى ..

ونسحب من درج البيانو كتلة من الأوراق المالية ، دون أن يعد

كل حزمة . وقد تمّ ملئها إلى الماركيز . تم واصل كلامه :

« فأنت تعرف أنه لا يمكنني أن أتسلّى بمشاهدة العابرين في طريق (بوردو)

والواقع أنه إذا لم تكن قد استهوتك أخطار حياتنا اليهودية ، ومشاهد

أواسط أمريكا ، وإيلينا الاستوائية ، ومعاركتنا ، ومنعة تحقيق النصير

لرؤية أمة صغيرة أو اسم « سيمون بوليفار » فعليك أن تفارقنا ... يوجد زورق

طويل ورجال مخلصون في انتظارك ، وأنعمش لقاء ثالثاً تكون السعادة

فيه تامة ..

قالت « هيلين » في نغمة مستاءة : « فيكتور ، أود رؤية أي لحظة

أخرى » .

— عشر دقائق أكثر أو عشر دقائق أقل قد توقعنا وجهاً لوجه

أمام مركب حربي ، ليكن ! سوف نسل قليلاً ، فرجالنا في ملل .

صاحت زوجة البحار : « أوه ! ارحل يا أتي . واحمل إلى أختي وإخوتي

وإلى ... أي . هذه التأكيدات والوعود مما أخطفه من ذكرياتي » .

وأخذت قبضة من الأحجار الكريمة والعقود والجواهر ولفتها في بعض

الحرير الكاشمير وقدمتها إلى والدها في حياء .

سألتها وهو يبدو مذهولاً من تردد ابنته الملحوظ عندما نظقت

بكلمة « الأم » : « وماذا أقول لهم من قبلك ؟ » .

— أوه ! هل نستطيع أن تشك في روجي وشاعري ، إنني

أدعو كل يوم من أجل سعادتهم .

واصل العجوز كلامه ناظراً بانتهاء : « هيلين » ، أليس أراك بعد اليوم ؟

ألم أعرف أبداً لأنى دافع إذن يرجع هريك ؟ .

قالت بتغمة متجهمة : « إننى لا أملك هذا السر .. كان يحق لى أن أبلغك إياه . لكنى حتى آنذاك قد لا أبلغك إياه . لقد عانيت اثنا عشر سنوات من شرور لا تضلنى ... »

ولم تكمل بل مدت يدها إلى أنبيا بالهندايا التى شاءت أن تبعث بها إلى أمستها . وكان اللواء قد اعتاد فى أثناء أحداث الحرب أفكاراً واسعة الأفق فيما يتعلق بالأملاك ، فقبل الهدايا المقدمة من ابنته ، وأرضاه أن يفكر أن القبطان الباريسى ظل رجلاً شريفاً فى خربه ضد الأسبان ، تحت تأثير إلهام روح على هذا القدر من النقاء والتربية مثل روح « هيلين » . وغلبته مشاعر حماسة للشجعان ، وظن أنه سيكون محل سخرة إذا تصرف كرجل شديد التعق ، فضغط بشدة على يد القرضان ، وقيل حبيبته « هيلين » ابنته الفريدة فى رقة خاصة بالجنود ، وسقطت دمية على وجهه ذى الغرور . وابتنم لما تعبيره الحازم أكثر من مرة . وانفعل البحار بقوة فأعطاه أولاده لئباركهم . وفى النهاية قال الجميع كل للآخر وداعاً للمرة الأخيرة . خلال نظرة طويلة لم تخل من حنان .

صاح الجلد وهو يتدفع بنفسه إلى السطح : « كونا دائماً سعداء » . وكان ثمة مشهد فريد فى انتظار اللواء ، فقد أودعت « سان فيردينان » النار فاشتعلت كنار ضخمة هبت فى مقدار من قش . وشعلت الملاحين عليه

حرق السفينة الأسبانية ، ولاحتوا فى أثناء ذلك أنها كانت تحمل فوق ظهرها حمولة من « الروم » « اليكير » (الخمور القوية) التى كانت متوافرة فوق « عطيل » ، ووجدوا أنه قد يكون ممكناً أن يشعلوا طاسة كبيرة من المزيج الكحول وسط البحر ، وكانت هذه تلية مقبولة إلى حد ما بالنسبة إلى قوم يجعلهم راية البحر الظاهرة . ينهزون كل القرص من أجل بعث الحياة فى معاشهم . وعند نزول اللواء من المركب إلى الزورق الذى يتنمى إلى (سان فيردينان) ، والذى يشغله ستة من الملاحين الأقوياء ، وجد نفسه لا إرادياً يقسم اثنيابه بين حريق (سان فيردينان) وابنته المعسدة على القرضان . فكلاهما يقف فى مؤخرة مركبه .

وإزاء كل هذا القدر من الذكريات نسي اللواء وهو يرى قستان « هيلين » الأبيض يرفرف خفيفاً مثل شراع إضافى . ويميز هذا الشكل الجميل الطويل فوق المحيط برهية التى تفرض نفسها ، وتسيطر على كل شيء حتى البحر . نسي اللواء أمام هذا كله بفعل لامبالاة الرجل العسكرى أنه كان يتموج فوق مقبرة الرجل الشجاع « جوفيز » . وامتد فوقه عمود ضخم من السحاب الداكن الذى كانت تتخلله وتتفد فيه أشعة الشمس هنا وهناك فتكسبه وهجاً شاعرياً . كان ذلك أشبه بسماء ثانية . قبة قائمة تلالاً تحبها أنواع من الرياح . وتخلق فوقها زرفة السماء التى لا تتغير ، والتى بدت أجمل ألف مرة بفعل هذا التقابل العارض . وكانت الأصباغ العجيبة فى هذا الدخان الذى بدا أحياناً مائلاً إلى

الاصفرار ، وأحياناً ذهبياً ، وثالثة أحمر اللون أو أسود ، قد ظهرت كأنها مصهورة في شكل أغرة تغطي المركب الذي ظل يلح ويقرقع ويطن طنباً أشبه بالصراخ . وعلا صقر الشعلة ، وهي تعثر الجبال وجرت داخل المركب مثلما تطير ثورة شعبية في طرقات المدينة . وكانت تصدر عن شراب (الروم) ناز ذات طب أوزق يرتفع كما لو كانت جنية البحار قد حركت هذا « الليكير » (الخمر القوي) الغاضب . وكأنما حركت أيضاً يد طالب من طلاب العلوم ذلك اللهب بمزيج من الكحول والسكر في أثناء احتفال من احتفالات إله الخمر . ولكن الشمس كانت أقوى ضوءاً وكانت تحس بغيرة من ذلك الومج الوقح ، فلم تعد تظهر خلال أشعتها إلا قدراً ضئيلاً لا يكاد يذكر من ألوان الحريق ، وأصبحت كقفض أو كوشاح يخفق وسط سيل من ثيرانه .

وتعلقت (عطيل) بالرياح القليلة التي استطاعت أن تلتقطها في ذلك الاتجاه الجديد كيما تلوذ بالهرب . وكانت تميل مرة على جانب ، ومرة على الجانب الآخر كطيارة تتأرجح في الهواء . وكان هذا المركب الشرابي ذو الصواري وذو الشكل الجميل يلوذ بالفرار نحو الجنوب . وكان أحياناً ، يخفي عن أنظار اللواء وراء العمود المستقيم الذي كان ظله يستقط بطريقة وهمية فوق المياه . وكان أحياناً أخرى يظهر وهو يرتفع في خفة وانفلات .

وفي كل مرة كانت « هيلين » تستطيع أن ترمق أباهما : كانت تأخذ في

تحريك منديلها لتحيته . وسرعان ما غرقت « سان فيردنان » مخدئة غلباناً لم يلبث أن أزال المحيط أثره . ولم يبق من كل هذا المشهد بعد ذلك سوى سحابة متأرجحة بفعل الرياح . وصارت (عطيل) بعيدة واقتراب الزورق من السجل ، واعتصمت السحابة بين هذا الزورق الطش والمركب الشرابي ، وكانت آخر مرة رأى فيها اللواء ابنته خلال شق بين هذا اللبخان المموج ، رؤية أشبه برؤى الأنبياء ! وكف المنديل الأبيض والفستان وحدهما عن أن تقع عليهما العين فوق هذه الأرضية التي لها لون الصدا ، ولم يعد المركب الشرابي موثقاً بين الماء الأخضر والسماء الزرقاء ، ولم تعد « هيلين » سوى نقطة لا ترى أو مجرد خطر متطلق رقيق ، أو ملاك من ملائكة السماء ... مجرد فكرة ... أو ذكرى .

بعد أن نعى الماركيز ثروته مات متوكمًا من الإجهاد . وبعد وفاته يقضه أشهر في سنة ١٨٣٣ اضطرت الماركيزة إلى أن تصحب « مونيكا » إلى مياه (البيرينه) وتزادت الطفلة الهوائية المزاج أن ترى روائع الجبال . وعادت إلى المياه ، وعند عودتها حدث مشهد مروع . وهذا مؤذاه .

قالت « مونيكا » : يا لأخي لقد أسأنا يا أبي بعدم المكوث أياماً أطول في الجبال ! لقد كنا هناك في حال أفضل من هنا بكثير ، هل استمعت إلى الأذن المواصل الذي يصدره هذا الطفل الكريه ، وثرثرة هذه المرأة الشقية التي تتحدث بدون شك في لغة إقليمية ، لأنني لم أفهم أبداً في الثلاثين

كلمة واحدة من على ما قالته ؟ أى نوع من الناس هذا الذى صار جاراً لنا ! لقد كانت هذه الليلة أبشع ليلة قضيتها فى حياتى .

أجابته الماركيزة : « إننى لم أسمع شيئاً .. ولكن يا حلفتى العزيرة سوف أبحث عن المضيقة ، وأطلب منها الغرفة المجاورة ، وسكون بمفردينا فى الجناح . ولن تحدث قوضاء بعد الآن . كيف حال صحتك هذا الصباح ؟ هل أنت مجعدة ؟ »

وعندما قالت الماركيزة هذه العبارات الأخيرة نهضت لتغرب من سرير « مونيكا » ، وقالت لها وهى تبحث عن يدها : « أرىنى » .

أجابته « مونيكا » : « أوه ! دعينى يا أختى مجردة » .

عند قول الفتاة الشابة هذه الكلمات تدرجرت تحت وسادتها بحركة تقليب . ولكن فى نظرف . بحيث كان من الصعب على أم أن تستاء منها . وفى هذه اللحظة صدرت شكوى بالهجة ناعمة طويلة تكاد تخرق قلب المرأة وتدوى فى الغرفة المجاورة .

— ولكن هل استمعت طيلة الليلة لهذا ؟ ولماذا لم توقظينى ؟

« كنا استمعنا » .

وإذا أنين أشد عمقاً من كل ما سبق يقاطع كلام الماركيزة التى صاحبت : « هنا شخص يختصر ! » وتخرجت بقوة .

صاحبت « مونيكا » : « أرسلى « بولين » إلى هنا ! سوف ألبس ملابسى » . وهبطت الماركيزة مسرعة . وقابلت المضيقة فى الفناء وسط أشخاص

الكلاب يصغون إليها كما يندو ويانتباه .

— سيدتى . لقد وضعت فى الغرفة المجاورة شخصاً يبدو أنه مريض مرضاً شديداً ..

صاحبت سيدة القنلى : « آه ! لا تعذبينى عن تلك المرأة ، لقد أرسلت من يحضر فى العدة . تصورى أنها امرأة شقية تعيسة وصلت بالأمس مساء هنا على قدميها . إنها قادمة من (أسبانيا) بغير جواز سفر وبغير نقود . لقد حملت فوق ظهرها طفلاً يختصر . ولم أستطع أن أعتذر لها عن استقبالها هنا . وفى هذا الصباح ذهبت بدسى لأراها ، لأنها حين هبطت هنا بالأمس ألبرت فى قصى الأبرار مؤثلاً . مسكينة هذه المرأة الصغيرة ! لقد كانت ناعمة مع طفلها وكلاهما فى نزاع مع الموت . قالت لى وهى تخرج « دة ! دعيني من إصبعها » : « سيدتى ، لم أعد أملك سوى هذه . خذها ثمتاً شيننا عندك . وسيكون ذلك كافياً فلن تكون إقامتى طويلة » . بالنسبة للصغيرة ! لقد قالت وهى تنظر إلى طفلها : « سوف تموت معاً » . فأخذت وبشياء وسألها من هى ؟ ولكنها لم تشأ إطلاقاً أن تبوح باسمها . فأرسلت أطلب الطبيب والسيد العدة .

قالت الماركيزة : « ولكن أعطيها كل النجدة التى تازنها . يا لخي الأبرار ! نمة وقت لإفقاذاها ! سوف أدفع لك كل المبالغ التى تنفقها ... » — آه ! يا سيدتى . يظهر أنها شديدة الزهو والكبرياء . ولا أدري

ما إذا كانت توافق على ذلك ...
— سأذهب لأراها ...

وفي الحال صعدت الماركيزة إلى غرفة المجهولة دون أن تفكر في الأم الذي قد تحدث رؤيتها لدى هذه المرأة في اللحظة التي يقال عنها أنها ما لها مختصر. وامتنع لون الماركيزة لمراى المختصرة. فبالرغم من كل الآلام المفزعة التي غيرت من طلعة «هيلين» الجميلة تعرفت الماركيزة على ابنتها الكبرى. وعند مرأى المرأة التي تلبس الثياب السوداء اعتدلت «هيلين» في جلوسها، وصريحت صرخة فزع، وسقطت ببطء فوق سريرها. إذ تحققت أن تلك المرأة كانت أمها.

قالت السيدة «ديجليمون»: ابنتي! ماذا يازملك؟ «بولين»... «مونيكا»... أجابت «هيلين» بصوت ضعيف: «لم أعد في حاجة إلى شيء كنت أتعلم رؤية أبي، ولكن حداثك يريني...» ولم تكمل. وضعت طفلها إلى قلبها كما تدفعه، وقبلته فوق جبهته وتطلعت إلى أمها نظرة يقرأ فيها العتاب مخففاً بالعفو. ولم نشأ الماركيزة أن تفهم هذا العتاب، ونسيت أن «هيلين» كانت فيما مضى طفلة شحيحة بالدموع واليأس... طفلة الواجب... طفلة كانت سيئاً في كل ما نزل بها من الشقاء الكبير. وتقدمت بركة نحو ابنتها الكبرى: وهي تتذكر فقط أن «هيلين» كانت أول من عرفها مع الأمومة. وكانت عينا الأم مليئين بالدموع.. وعندما قبلت ابنتها صاحبت: «هيلين»! ابنتي..

واحتضنت «هيلين» بالضميت، واستشقت آخر تهاد صدر عن آخر أطفالها.

في تلك اللحظة دخلت «مونيكا» و «بولين» خادماتها والمضيقة والطبيب. وأمسكت الماركيزة بين يديها بيد ابنتها الباردة كالثلج، وتاملتها في يأس حقيقى. لقد أحق الشقاء أرواح البحار التي استطاعت أن تنجو من الغرق دون أن تنفذ من كل أسرتها الجميلة سوى طفل واحد. وقالت لأمها بصوت مخزع: «كل هذا من إقناجك! لو استطعت أن تكوّن في ما...»

صاحت السيدة «ديجليمون» وهي تحقى صوت «هيلين» بوقع صوتها: «مونيكا»! اخرجي. اخرجوا جميعاً! واستطردت الأم: بالله يا ابنتي دعينا دون أن نخند في هذه اللحظة ذلك الصراع الخزين...

أجابت «هيلين» وهي تقوم بمجهود غير عادي: سوف أسكت لقد صرت أمّاً وأعرف أنه يجب بالنسبة إلى «مونيكا» ألا... أين طفلي؟ وعاودت «مونيكا» الدخول مدفوعة بالقضول: وقالت تلك الطفلة المدللة: يا أختي هالك الطبيب...

واصلت «هيلين»: كل شيء غير مجد.. آه لماذا لم أمت في سن السادسة عشرة عندما كنت أريد أن أنتحر! إن السعادة لا يمكن أن تعيد عن قوانينها... «مونيكا»... أمت...

وماتت « هيلين » وهي تميل برأسها نحو رأس طفلها الذي ضمته

بتشجيع .

قالت السيدة « ديجليمون » عندما عادت إلى غرفتها حيث صهرتها
للمسوح : لقد أرادت أختك بلا شك أن تقول لك يا « دويتا » إن السعادة
لا توجد أبداً بالنسبة إلى الفتاة . في الحياة الخيالية الروائية المقترطة وبعيداً
عن الأفكار المقبولة وبخاصة بعيداً عن أمها .



عن بعض الزوات ، وعن أنه بعض النساء الشابات لا يردن استطاع
الحيل ، أو أن أحد الدبلوماسيين المستين لا يجد محلاً لأداء بعض الشريكات
في هذه اللحظة . . . نخدم وسادة . . . الكل ينام أو الكل يستقظ .

وكانت السيدة المبكرة جداً هي الماركيزة ديجليسون ، والدة السيدة
« دى سانت هيرين » التي تملك هذا القصر الجميل ، فقد حومت الماركيزة
نفسها من هذا القصر لصالح ابنتها التي وهبتها كل ثروتها دون أن تحتفظ
لنفسها بغير معاش مدنى الحياة ، وكانت « الكونتيسة مونيلا دى سانت
هيرين » آتية من رزقت به السيدة ديجليسون « من الأطفال ، ولكي تصبح
قريئة وريث بيت من ألمع البيوت الفرنسية ضحت الماركيزة بكل شيء .

ولا شيء أكثر طبيعية من ذلك : فقد خسرت ولدين على التوالي :
أحدهما « جوستاف ماركيز ديجليسون » الذى مات بالكوليرا ، والثاني
« أبيل » الذى زل عند (قسطنطين) . وقد أخلف « جوستاف »
أرملة وأطفالاً . ولكن عاطفة السيدة « ديجليسون » الفاترة نحو ولديها
كانت أكثر ضعفاً أيضاً حينما انتقلت إلى أحفادها الصغار ، وكان
سلوكها مهذباً حيال السيدة ديجليسون الصغرى ، ولكنها تمسكت بعاطفة
سطحية مما يقرض عليها الذوق السليم والأياقات أن تظهره حيال أقربائها .

ولا كانت ثروة أولادها الذين ماتوا قد تمّت نمويتها فقد احتفظت
لعزيتها « مونيلا » بكل مدخراتها وأملأها الخاصة . وكانت « مونيلا »
منذ طفولتها جميلة جداً ، فصارت باستمرار بالنسبة إلى السيدة

شيخوخة أم مدنية

أثناء يوم من أوائل شهر يونيو سنة ١٨٤٤ كانت سيدة فى حوالى
الخمسين من عمرها - وإن كانت تبدو أكبر ممّا من عمرها الحقيقى -
تستزه فى الشمس ساعة الظهر على طول ممّا حديقته قصر كبير فى
شارع « بلديه » بباريس . وبعد أن دارت دورتين أو ثلاثاً فى الطريق
الضيق المتعرج ، حيث بقيت حتى لا تغيب عنها رؤية تشابيك الجنابع
التي يبدو أنّها كانت تجذب كل انتباهها ، جاءت تجلس على أحد
المقاعد نصف الرفيعة التي كانت تصنع من أغصان أشجار صغيرة مزودة
بقشورها . ومن المكان الذى كان فيه ذلك المقعد الأنيق كانت السيدة
تستطيع أن تخلق إلى أسوار الفضاء والمتنزهات الداخلية التي وضعت فى
وسطها قبة « الأنفاليد » الذهبية الرائعة التي ترتفع بين أعلى آلاف
أشجار (الدردار) وإلى المنظر الجميل ومظهر الحديقة الأقل عظمة
التي تنتهى عند واجهة رمادية لأروع قصور ضاحية (سان جيرمان) .
وهناك صمّت مطبق ، والحدائق الجاورة والمتنزهات و (الأنفاليد) مقبرة
نابليون ، لأن هذا الحى العريق لا يبدأ فيه النهار إلا ظهراً . وبغض النظر

« ديجليمون » موضع إيثار أشبه ما يكون بتلك الإشارات القطرية أو اللاإرادية لدى أمهات الأسر . . . تعاطفات محتومة تلبو بغير تفسير أو لعل الملاحظين يعرفون تفسيرها أكثر مما يخطر على البال . وكان كل شيء في « مويانا » . . . وجهها الجذاب . . . ودية ضوت هذه الإبنة اللدلة . . . خطريتها . . . خطوبها . . . هيئة سحبتها . . . حركاتها . . . كل شيء كان يوقظ لدى الماركيزة أشد الانفعالات عبقاً وأكثرها قدرة على الإحياء أو يحث الاضطراب أو أسر قلب الأم . لقد كان مبدأ حياتها الحاضرة وحياتها المستقبلية . وحياتها الماضية . مبثوثاً في قلب هذه المرأة الشابة حيث ألقت بكل كتوزها .

ومن حسن الحظ أن « مويانا » عاشت بعد وفاة أربعة أطفال كلهم أكبر منها . وقد فقدت السيدة « ديجليمون » في الواقع على أتمس نحو ممكن . كما يقول أهل المجتمع : بنتاً ساحرة الفتنة كان مضيرها مجهولاً تقريباً . وصبيّاً صغيراً مات في سن الخامسة في ذكبة مروعة . ولاشك أن الماركيزة عاشت إشارة من إشارات السماء في الاحترام الذي يلبو أن المضير قد احتفظ به لابنة قلبها ، وفي الذكريات الضعيفة التي أبقاها عن أولادها الذين سقطوا سلفاً وفقاً لأهواء الموت . فقللوا داخل أحراق روحها كقابر مقام في أرض معركة أوشكت أن تخفيها زهور البساتين . وكان في مقدور المجتمع أن يطلب من الماركيزة بياناً قاسياً عن هذه اللامبالاة ، وعن ذلك الإيثار والتفضيل . غير أن مجتمع باريس مجذوب

في غضبون نسيل من الأحداث والأزياء والأفكار الجديدة ، حتى إن كل حياة السيدة « ديجليمون » قد خضعت فيها بشكل ما لزماماً لتسيان ، فلم يفكر أحداً في أن يتسبب إليها جريمة البرود أو النسيان التي لم تكن بهم أحداً في حين أن حياتها القوي نحو « مويانا » كان بهم قوماً كثيرين . وكانت له القداسة الكاملة التي تمنحها عادة للحكم المسبق .

وعلاوة على ذلك لم تكن الماركيزة تُردد على المجتمع إلا نادراً وكانت تلبو في نظر أغلب الأمر التي تعرفها طيبة رقيقة ورعة متسامحة . والواقع . . . ألم يكن من الضروري أن يتوافر للنمر اهتمام قوي حتى يتنذ إلى ما وراء هذه المظاهر التي يكتفي بها المجتمع ؟ ثم ما الذي لا يغفره لكبار السن عندما يزولون كالظلال ولا يربطون أن يكونوا سوى ذكرى ؟ على أية حال كانت السيدة « ديجليمون » نموذجاً يذكره الأطفال لوالديهم ، كما يذكره الأصهار لحمواتهم ملاطفة . فقد أعطت « مويانا » قبل الأوان كل ممتلكاتها سعيلاً راضية بسعادة ابنتها الكونتيسة ، ولا تعيش إلا بها ومن أجلها . وإذا كان الشيوخ الحذرون والأعمام المهسومين قد لاموا هذا السلوك قائلين : سوف تتدم السيدة « ديجليمون » يوماً ما على أنها تخلت عن ثروتها لصالح ابنتها ، لأنها إذا كانت تعرف قلب السيدة « دي سانت هيرين » معركة جيدة ، فهل هي واثقة أيضاً من أخلاق صهرها ؟ ولكن لم يقابل هؤلاء المنتهين إلا باستقباح عام لأن الثناء العطر كان ينهل من كل الأنحاء على « مويانا » كالطرر .

قالت سيدة شابة : لا بد أن يقال هذا الحق في صالح السيدة «دى سانت هيرين» إذ لم تر أيتها أي تبديل حوطا . والسيدة «ديليمون» تعيش عيشة رائعة ، وفقا عربتها تحت أمرها . وتستطيع أن تذهب إلى أي مكان في المجتمع كما كانت من قبل ...

أجاب طفيلي عجوز بصوت خفيض : واحد من هؤلاء الناس الذين يرون لأنفسهم الحق في تحميل أصدقائهم عبارات لاذعة مدعين بذلك إثبات استقلالهم : باستثناء بيت الإيطاليين .. ذلك أن الأرملة لا تحب سوى الموسيقى وأشباه أخرى غريبة في الواقع عن أبنائها المذلة . وكانت موسيقية جيدة في أوانها ! ولكن لما كان مسكن الكونتيسة معترضا على الدوام لغزوات الفراشات الشابة . ولأشك أنها متضايق فيه هذه المرأة الصغيرة التي يتكلم عنها الجميع سلفا بوصفها فاتنة كبيرة .. فلما لك لا تذهب إطلاقا إلى بيتها المسىء بالإيطاليين .

قالت فتاة في سن الزواج : إن السيدة «دى سانت هيرين» ، تدبر لأمرها أمسيات ممتعة في (صالون) تتجه إليه باريس كلها .

أجاب الطفيلي : «صالون» لا تسترحى فيه الماركيزة انتباه أحد .

قال أبله معجب بنفسه مؤيدا جانب الشابات : الواقع أن السيدة «ديليمون» لا تكون أبدا بفردها .

أجاب الملاحظ العجوز في صوت خفيض : في الصباح ... في الصباح تنام «موينا» العزيرة ، وفي الساعة الرابعة تكون «موينا» في الغابة . ومساء تذهب «موينا» العزيرة إلى الحقل الراقص أو إلى الولاثم ... ولكن

صحيح أن السيدة «ديليمون» تحملك المورد الأصلي حين ترى ابنتها العزيرة وهي تقوم بارثداء ملابسها أو في أثناء العشاء عندما تتناول «موينا» العزيرة عشاءها مصافدة مع والدتها العزيرة ... واستطرد الطفيلي : وهو يأخذ يلوح رجل خجول مهذب حديث العهد بالبيت الذي كان يسكن فيه : «وإذا ثمانية أيام على الأكثر ياسيدي رأيت تلك الأم المسكينة حزينة ووحيدة بالقرب من مدقاتها . سألتها «ماذا بك ؟» فنظرت إلى الماركيزة وهي تبسم . ولكن من المؤكد أنها كانت تبتكي وقالت لي : لقد فكرت - إنه شيء فريد أن أجده نفسي وحيدة وقد كان لي خمسة أطفال . ولكن هذا شيء يناسب مصيرنا ! ثم إنني سعيدة بأن أعرف أن «موينا» تسرى عن نفسها . وكانت الماركيزة تستطيع أن تطعنني إلى لأنني كنت أعرف زوجها سافرا . كان رجلا مسكينا ، وكان يدين لما بلا شك بفضيلته ومهارة في بلاط «شارل العاشر» .

ولكن أخطاء كثيرة تنزل في غضون الأحاديث التي تجري بين الناس في المجتمع . وتندس فيها بخفة غير محسوسة أضرار عميقة إلى درجة أن مؤرخ العرف الأخلاقي مضطر إلى أن يزن التأكيدات ، التي يضعها كثير من غير المهتمين بلا مبالاة في غير قليل من الحكمة . ولعله لا ينبغي في النهاية بالنسبة إلينا أبدا أن نقول من هو الخطي ومن هو المصيب : الطفل أم الأم ؟ إذ لا يوجد بين هذين القلبين سوى حكم واحد ممكن . وهذا الحكم أو القاضي هو الله ! ... الله الذي

غالباً ما يثبت انتقامه في وسط الأسر ، ويستعين استعانة أبدية بالأولاد ضد الأمهات ، وبالأباء ضد الأبناء ، وبالشعوب ضد الملوك ، وبالأمرأ ضد الأمم ، وبكل شيء ضد كل شيء ... وهناك بأن يعتمد في عالم الأخلاق إلى إحلال مشاعر معينة محل أخرى ، كما تدفع أوراق الشجر الصغيرة أوراق الشجر الشائخة في الربيع .. وبأن يتصرف وفقاً لأمر ثابت ويفرض لا يعلمه سواه . ولا شك أنه قد وسع كل ما يقع أو بتعبير أفضل ، أن مرجع كل شيء إليه .

وكانت هذه الأفكار الدينية ، الطبيعية جداً في قلب المستنير تطفو مبعثرة في روح السيدة ، ديليليون . فقد كانت المعالم هنالك واضحة نصف وضوح . فأحياناً تعم . وأحياناً تنبسط انبساطاً كاملاً كالزهور التي تزدهج العاصفة فوق سطح المياه . كانت جالسة مجاهدة ضعيفة بفعل تأمل طويل ، أو بتأثير أحد هذه الأحلام التي تنتصب في وسطها الحياة بأكلها وتنسبط في عيني أولئك الذين يستنشقون الموت .

وكان يمكن أن تصبح هذه المرأة التي شاخت قبل السن لوحة غريبة بالنسبة إلى بعض الشعراء العابرين في « البيليفار » (المتزه الكبير) ، إذ كان يمكن أن يعرف كل الناس عند رؤيتها جالسة في ظل شجر الطلح الرطيب ... في ظل شجر الطلح عند الظهيرة .. كان يمكن أن يعرفوا جميعاً كيف يقرعون آلاف الأشياء المكنوبة فوق ذلك الوجه الشاحب البارد حتى حين يوجد وسط أشعة الشمس الدافئة .

فقد كان وجهها المليء بالتعبير يمثل شيئاً أكبر خطراً من مجرد حياة تذبذب ، أو أعمن من مجرد روح انحطت بالتجربة . لقد كانت أخذ الأنماط التي تستلقت نظرك ، وتدفعتك إلى التفكير من بين ألف وجه يستبان به لخلوه من أي طابع . فكما لو كنت إزاء ألف لوحة في منحرف ، ثم تجد نفسك متأثراً بقوة سواه أمام رأس « ميرنيو » الساذجة الجليظة التي صورها ألم الأرومة ، أو أمام وجه « ديأتريكس تشينكي » التي استطاع المصور الإيطالي « لوجيد » أن يصور فيها أكبر براعة تلمس القلب في أعماق أشع الجرائم أو أمام وجه « فيليب » الثاني الخزير حيث استطاع « هيلاسكيز » أن يطبع إلى الأبد جلال الرعب الذي توحى به الملكية . فبعض الوجوه الإنسانية ذات صور طاغية تحدث إليك ، وتستجوبك ، وتحيبك عن أفكارك الخفية . بل تنظم أشعاراً كاملة . وكان وجه السيدة « ديليليون » الذي يشبه الناح واحداً من هذه القصائد المفزعة . أو واحداً من تلك الوجوه المنتشرة بالآلاف في « الكوميديا الإلمية » التي ألفها « دانته البيجيري » .

وتستطيع طابع الجمال المميزة أن تعين تماماً في أثناء الموسم السريع الذي تظل المرأة فيه كالزهرة على مداراة ما يقضي به ضعفها الطبيعي وقوانينها . ويمكن أن تبنى كل الانفعالات خفية تحت التلوين الفني في وجهها الناضر . وتحت وهج عينيها ، وتحت شبكة ملاعها الرقيقة الناعمة . وكثير من الخطوط المتضاعفة المتحنية أو المستقيمة مع

اختلافها بالصفا، وبالتوافق التام . ولا تكشف عندئذ حمرة الخجل شيئاً مع وجود تلوين بالألوان الشديدة القوة سلفاً . وتمتزج كل المواقف الباطنة امتزاجاً حسناً مع اشتغال عينيها بالحياة ، حتى الشعلة العابرة للعناء لا تظهر في كل ذلك إلا كدلال زائد إضافي . وكذلك لأشياء أكثر أمالة في الكمّان من « الوجه الشاب » لأنه لأشياء أكثر منه ثباتاً . فوجه المرأة الشابة يمتاز بهلوه وانصقال ونضارة سطح الخجيرة . ولا تبدأ سيماها وجه المرأة إلا في سن الثلاثين !

فحتى تلك السن لا يعبر المصور في وجوههن إلا على لون وردي ولون أبيض . وعلى أنسامات ، وعلى تعبيرات تكرر نفس الفكرة . فكرة الشباب والحب . فكرة ذات زى واحد . وبلا عمق . ولكن في الشيخوخة يكون كل شيء في المرأة قد تكلم ، وتكون العواطف قد رسخت فوق وجوها ، فقد كانت عشيقة وزوجة وأمّاً . وانتهت أعنف تعبيرات البهجة . والآلم بأن غصنت وأنها ملاحها غاندفت فوقه في صورة ألف من التجاعيد التي تحتفظ كل منها بلمعة معينة . ويصبح وجه المرأة حينئذ جليلاً من الاختلاز جليلاً من الكتابة أو رافعاً من الهدوء . وإذا كان منسجماً بمواصلة هذه الاستعارة الغريبة قلنا إن الخجيرة الخفيفة من مائها تبيح رؤية أخايد كل السيول التي أوجدتها . فرأس المرأة العجوز لا يصبح بعد ذلك متممياً إلى المجتمع الذي يربعه ، يسبب استهزاه ، أن يستشعر فيه أنهار كل أفكار الأناقة التي اعتادها

أو إلى غلم الفنانين العاديين الذين لا يكتشفون فيه شيئاً . ولكنه يظل متممياً إلى الشعراء الحقيقيين ، وإلى أولئك الذين علىكون عاطفة الإحساس بالجبال مستقلاً عن كل ما يجري به العرف والاتفاق مما تستند إليه كل الأحكام المسبقة في مسائل الفن والجمال .

وبالرغم من أن السيدة « ديجليمون » قد وضعت فوق رأسها قبعة كالبرنس من أحدث الطرر لم يكن من الصعب رؤية شعر رأسها الذي كان أسود اللون في السنوات الماضية وقد صار أبيض من شدة الانفعالات القاسية . ولكن الطريقة التي فرقت بها في عصبتين كانت تبوح بمجودة ذوقها . وتكشف عن عادات الرقة والدلال لدى المرأة الأنيقة ، وترسم جبهتها الذابلة المغضنة بطريقة مكتملة في الصورة التي تتوافر فيها بعض آثار بريقها القديم . وكان شكل وجوها وانظام ملاحها يوحان بفكرة ضيقة في الحقيقة عن الجمال الذي كان يملؤها بالغرور ، غير أن هذه العلامات كانت تكشف على الأكثر عن الآلام التي بلغت في الماضي درجة الحدة اللازمة لكي تحفر وجوها وتبعث الخفاف في فودتها ، مع توفير الحدود والحدود الجفون والتمزج الروبوش التي تخلف دلال النظرة .

كان كل شيء ساكناً في هذه المرأة : خطوطها وحركاتها كانت تتميز بالبطء الزين والتهويم الذي يفرض الاحترام . وبدا تواضعها الذي استحال إلى حياة نتيجة من نتائج العادة التي اعتادتها منذ بضع سنوات

في أن تصبح لاشيء أمام ابنها ، ثم صار كلامها نادراً عذياً مثل كلام كل الأشخاص المرغمين على أن يفكروا وأن يجمعوا شتات فكرهم وأن يعيشوا داخل ذواتهم ، وأوحى ذلك الموقف وذلك الحزم بعاطفة لا تقبل التحديد . لم تكن خروفاً أو راقية .. وإنما ذابت فيه تحفة كل الأفكار التي توقظ هذه العواطف المتروعة .

على أية حال كانت طبيعة تبايعها ، والطريقة التي تغضن بها وجهها ، وشحوب نظرتها المثالية . كل هذا كان يشهد بأسلوب فصيح على الدموع التي يلمحها قلبها أولاً بأول ، فلا تسقط إطلاقاً فوق الأرض وكان الأشقياء الذين اعتادوا تأمل السماء كمن يرفع الله عنهم شرور الحياة .. يستطيعون بسهولة أن يتعرفوا في عيني هذه الأم على قسوة عادات الصلاة في كل لحظة من لحظات اليوم ، وعلى الدوار الخفيف لهذه الأسرار المتخنة التي تنهي بانقضاء على زهور الروح حتى تبلغ عاطفة الأمومة .

وملك المصورون الألوان اللازمة لأمثال هذه الصور ؛ أما الأفكار والأقوال فلا تقوى على ترجمتها بأمانة . إذ تلتقي فيها داخل أنعام لون البشرة ، وفي إطار تعبير الوجه ، طوارى لا تقبل التفسير مما تركه الروح عن طريق الأبصار . ولكن حكاية الأحداث التي ترجع إليها مثل هذه الانقلابات المربعة في سحنة الوجه هي الحيلة الوحيدة المتبقية للشاعر كي يجعلها مفهومة . وكان ذلك الوجه يتم عن زوجة

حادثة ياردة ، وعن كفاح خفي بين بطولة ألم الأمومة وسقم مشاعرنا الغانية مثلنا نحن أبناء الشتاء ، ولا يوجد منها شيء أبدي . ونشأ عن هذه الآلام المكتوبة باستمرار على طول الزمن شيء مرض في هذه المرأة . ولاشك أن بعض الانفعالات الشديدة العنيفة قد أحدثت تغييراً جسيماً عضوياً في هذا القلب المملء بالأمومة . وأن مرضاً لعله مرض الدم قد صار يهدد هذه المرأة ببطء على غير علم منها . فالآلام الحقيقية تبدو هادئة جداً في مظهرها داخل مهادها العميق الذي تكوّن فيه ، حيث تغل نائمة ، ولكنها تؤلى قرض الروح كالحامض الخفيف الذي يتقرب البلور !

في تلك اللحظة خططت دمعتان خدي الماركيزة ، وبهضت مكان فكرة أشد لإيلاما من كل الأفكار قد جرحتها جرحاً بالغاً . لاشك أنها تأملت مستقبل « مونيكا » ، والواقع أن كل ضروب الشفاء الخاصة بحياتها كأنما مبهلت على قلبها حين تثابت بالآلام التي كانت تنتظر ابنها . وسيفهم موقف تلك الأم إذا شرحنا موقف ابنها .

كان الكونت « دي سانت هيرين » قد رحل لإنجاز مهمة سياسية منذ قرابة ستة أشهر ، وفي أثناء هذا الغياب تسلس « مونيكا » التي كانت تملك دواعي الزهو كعشيق أليفة . وجبعت بين كل رغبات الأهواء في الطفلة المائلة إما عن حفة وطيخ أو عن رغبة في الانسياق مع آلاف ميول التدلل في المرأة .. ولعلها أودعت أن ترى مدي قدرتها في أن تتعاضد

بعاطفة رجل ماهر، ولكن بغير قلب يدعى السكر من نشوة الحب ..
ذلك الحب الذي تترج به كل ألوان العلوم الاجتماعية المعرور
لختمال أحقق .

وكانت السيدة «ديجليمون» ذات تجربة طويلة علمياً معرفة الحياة
ووزن الرجال والخوف من المجتمع ، فلاحظت التقدم الذي تحقق خلال
هذه الجديدة ، وأحسّت مقدماً بضعية ايّتها وهي تراها تقع بين يدي
رجل لا يترك قداسة شيء . ألم يكن ثمة شيء عفيف في نظرها أن تعرف
على ملامح رجل داهية في الإنسان الذي كانت تصغي له «موينا»
بلدة كبيرة ؟ إن طفلها الحبيبة كانت تقف إذن على حافة الهاوية .
وكانت واثقة بذلك ثقة مغرقة ، ولم تجرؤ على أن تقفها ، لأنها
كانت ترتجف أمام الكوثنية . كانت تعرف مقدماً أن «موينا»
لن تصغي لأي إنذار من إنذاراتها الحكيمية ، فلم تملك أي نفوذ على هذه الروح
التي كانت شبيهة بمادة الحديد بالنسبة إليها وغاية في الطراوة والليونة
بالنسبة إلى الآخرين . وفي الماضي كان حنانها يدفعها إلى الاهتمام
بشقاوات عاطفة تسوقها الصفات الرفيعة في صاحب الإغراء ، أما
ايّتها فتتبع حركة تدلل وفتنة ، وكانت الماركيزة تحضر الكونت «الفريد
ديفاندينيس» لعلها أنه رجل ينظر إلى صراخه مع «موينا» «كلود» من
أفوار الشطرنج .

وبالرغم من أن «الفريد ديفاندينيس» كان موضع استمزاز من هذه

الأم العجسة ، كانت مضطرة إلى أن تدفن أسباب كراهيتها الشديدة في
تباب أعماق قلبها . لقد كانت ذات علاقة موثقة حانية بالمركز
«ديفاندينيس» والده «الفريد» بحيث خولت هذه الصداقة المحترمة
في عيون الناس لرجل الشاب حماقة التردد تردداً أليفاً على بيت السيدة
«دي سانت هيرين» التي أظهر لها عاطفة ظال يضمرها في قلبه
منذ طفولته .

وعلاوة على ذلك كان من الغيب أن تعزم السيدة «ديجليمون» على
إلقاء بعض العبارات الخفية بين ايّتها و «الفريد ديفاندينيس» كتي تفصل
بينها ، إذ كانت واثقة بأنها لن تنجح في ذلك بالرغم من قوة هذه العبارة
التي كان يحتمل أن تصدها في عيني ايّتها . فقد كان «الفريد» فاسداً
إلى حد بعيد . وكانت «موينا» تتمتع بفكر أكبر من أن يصدق كل
ما يروح لها به . بل كانت الكوثنية الشابة سرور وتسلخ منها بأن
تعاملها على أساس أنها تتبع حيل الأمومة . وكانت السيدة «ديجليمون»
قد بنت زلاتها عليها ، وأحاطت نفسها فيها بخنجران حتى تموت فيها
وهي ترى حياة «موينا» الجميلة تقصع .. تلك الحياة التي صارت كل
مجدها وسعادتها وعزائها ... بل صارت وجوداً أعز ألف مرة عليها من
وجودها ... آلام بشعة لا تصدق وخالية من التغيير ! ... هوات بلا فاع !
وجعلت تنتظر بفروغ الصبر نهوض ايّتها ، وبالرغم من ذلك كانت
تحشاه . مثل الشق الخكوم عليه بالإعدام الذي يود لو ينهي حياته .

والذى يملؤه البرد بالرغم من ذلك حين يفكر فى الجلاء . وقد عزمت الماركية
على أن تحاول محاولة أخيرة . ولكنها كانت تخشى الإخفاق فى محاولتها
أقل من خشيتها أن تخلص كبرياعها خدشاً أليماً على قلبها حتى استنفدت
كل شجاعتها . ووصل جها كأم إلى هذا الحد : أن تحب ابنها وتضاعفها
فتسلك بخنجر وتذهب لاستقبالها .

وعاطفة الأمومة عادة كبيرة فى القلوب المحبة حتى إنه على الأم ،
قبل أن تبلغ حدَّ عدم المبالاة ، أن تموت أو أن تستند إلى قوة ضخمة ..
الدين أو الحب . ومنذ استيقظت الماركية من النوم أخذت ذاكرتها
المحتومة تتبع آثار كثير من هذه الوقائع الصغيرة من حيث المظهر ، ولكنها
أحداث كبيرة الشأن فى الحياة الأخلاقية . فالواقع أن حركة بسيطة
تسبب أحياناً مأساة مروعة ، كما تؤدي لجة الكلام إلى تعزيز حياة
بأكملها . وتقتل نظرة لا مبالاة أوفى المشاعر . وكانت الماركية
« ديجليسون » قد شهدت لسوء الحظ الكثير جداً من هذه الحركات ،
واستسعت إلى الكثير جداً من هذه الأقوال ، وتلفت الكثير جداً من
النظرات المفرقة لأرواح . حتى أمكن أن تبين ذكرياتها بعض العثم .
فقد كان كل شيء يثبت لها أن (الفريد) قد قضى عليها فى قلب ابنتها
بحيث صارت . وهى الأم ، أقرب إلى الواجب المفروض منها إلى المتعة
والسرور .

وكانت آلاف الأشياء ، وأشياء لا قيمة لها ، تثبت لها سلوك الكونتيسة

المكروه حيالها وموقفها المشين فى إنكارها للجميل الذى يفتعل أن تكون
الماركية قد اعتبرت هذا الجميل نفسه عقوبة سائلة . وكانت تبحث
لأبنتها عن أعذار فى مقاصد العناية الإلهية حتى تستطيع أن تنهض قليلاً
فى عبادة اليد التى ضربتها . ونذكرت فى ذلك الصباح كل شيء :
وكان كل شيء يضرها من جديد بقوة فى صميم قنخ شرابها المرء
بالمسوم والأحزان . حتى أوشك أن يطلق إذا أُلقيت فيه أصغر الآلام
وأخفها . وكانت تكفى نظرة برود واحدة لقتل الماركية .

ومن الصعب تناول هذه الوقائع البيتية بالوصف ولكن بعضها قد
يكفى لبينائها كلها . وحتى وقد نال الصنم قليلاً من أدنى الماركية . لم
تستطع قط أن تقنع ابنتها بأن ترفع صوتها قليلاً من أجلها . واليوم الذى
توصلت إلى ابنتها فيه بسداحة الإنسان المريض أن تكرر عبارة لم
تنبئها بوضوح أطاعتها الكونتيسة إلى ذلك . ولكن فى حالة من الإرغام
والغضب لم تسمح للسيدة « ديجليسون » أن تعيد من جديد طلبها
المواضع .

ومنذ ذلك اليوم اعتادت الماركية أن تهتم بالاقتراب من « مونيكا »
كلما روت حادثة أو تكلمت . ولكن غالباً ما بدت الماركية ملولاً
من العادة التى كانت تؤاخذ أمها عليها . ولم يكن هذا المثل من بين
ألف أخرى يصيب سوى قلب الأم . وكان يمكن أن يسهم الملاحظ
عن كل هذه الأشياء ، لأنها كانت كلها من الدقائق الصغيرة التى

لا تحبها عيون أخرى غير عيون امرأة . كذلك كانت السيدة « ديجليمون »
 قد قالت لابنتها يوماً إن الأميرة « دى كاديتيان » قد جاءت لزيورها .
 فما كان من هذه إلا أن صاحت ببساطة : « كيف هذا ؟ إنها جاءت
 لزيارتك ! » وبقيت هذه العبارات بلهجة وضعت فيها الكونتيسة احتشاماً
 رقيقاً طائفة ببعض صبغات الدهشة . وتجذ فيه القلوب الشابة الرقيقة
 عادة بعض حب الناس الذى يمثّل في تعود بعض الشعوب البدائية
 قتل شيوخهم عندما لا يعودون قادرين على الإمساك بفروع شجرة يهنز
 هنزاً قوياً . ونهضت السيدة « ديجليمون » وابتست وراحت تبكي خفية .
 ولا يظهر الناس من أصحاب التربية الصالحة والنساء من بينهم نخاسة —
 مشاعرهم إلا في لمسات دقيقة لا تروى ، ولكنها تكون صالحة للكشف
 عن ذبذبات قلوبهم بالنسبة إلى أولئك الذين تتوافر غم في حياتهم موافق
 مماثلة لموقف هذه الأم المشحة بالجراح . وعثرت السيدة « ديجليمون »
 وقد أثقلت الذكريات على واحدة من هذه الوقائع المحيرة الالذعة القاسية
 التي لم تفهم منها إلا آتنت فقط ما كانت تحقيه وراء الابهامات من
 الاحتقار الشرس . ولكن ذموعها جفت عندما سمعت خصائص « شيش »
 النافذة يفتح في غرفة رقاد ابنتها ، وعادت متجهة إلى البوابة من الطريق الضيق
 الممتد بجذاء السور الذى كانت تجالسه أمامه منذ قليل ، وكانت تلاحظ
 وهي ماضية في طريقها ... مدى رعاية البستاني الخاصة التي ينفذ في جوف
 التراب من هذا الممشى ، وقد كان مهملاً قبل ذلك بوقت قليل .

وعندما بلغت السيدة « ديجليمون » تحت نوافذ ابنتها أقفل الخصاص
 (الشيش) فجاءة . هتفت : « مونيكا » .
 ولم تلتق إجابة .

قالت خادمة « مونيكا » ودّاً على سؤال الماركة بعد عودتها إلى منزل
 البيت كما إذا كانت ابنتها قد استيقظت : « السيدة الكونتيسة في الصالون
 الصغير » .

وكان قلب السيدة « ديجليمون » مليئاً إلى حد الغيظ . كما كان
 رأسها مشغولاً بشدة زائدة كمن يحلل بها التفكير في تلك اللحظة إلى
 ظروف على قدر كبير من الخفة . وعبرت مسرعة إلى الصالون الصغير
 حيث وجدت الكونتيسة في قميص الحمام وقد ألقت فوق شعر رأسها
 الأست طاقية ياهمال ، وكانت قدمها في (شيش) وضعت
 مفتاح غرفتها في حزامها ، وعلى وجهها طابع الأفكار التي بلغت حد
 الزوينة ، كما كانت ألوان وجهها شديدة . وجلست فوق أريكة وبدت
 كمن غرق في التفكير .

قالت بصوت فاس : ماذا أخفى ! وواصلت كلامها في حال مشقت
 بعد أن قاطعت نفسها : آه ! إنك أنت يا أماء !

— نعم باطلة لي إنما أمك ...

ونطقت السيدة « ديجليمون » بأقواها في ضجة هذبت انسكاب القلب
 وعاطفة الخوف التي يصنع إعطاء فكرة عنها دون استخدام لفظة القداسة .

لقد ليست في الواقع الطابع المميز المقدس للأم الذي اتشدت ابتها منه واستدارت نحوها في حركة غيرت عن الاحترام والقلق وتأنيب الضمير معاً . وأقفلت الماركية باب (الصالون) بحيث لا يستطيع أحد الدخول دون أن يحدث جلبة في الغرف السابقة عليه ، وكان هذا الارتفاع ضيقاً للسرية .

قالت الماركية : يا ابنتي من واجبي أن أتأكد فيما يتعلق بإحدى الأزمات التي كانت أكثر أهمية في حياتنا النسائية ، والتي قد توجد في قلبها الآن على غير علم منك : ولكنني تحدثت عنها منذ قليل إليك كأم لا كصديقة . لست مسئولة عن هذه الأفعال إلا أمام زوجك ، ولكنني جعلتك تشعرين نادراً بسلطة الأمومة - ولعل ذلك كان خطأ - حتى صرت أعتقد أنه ينبغي أن أصغى لك ولو مرة واحدة على الأقل في الموقف الخطير الذي تحتاجين فيه إلى نصائح . فكرى يا « مونا » أنني زوجتك من رجل ذي قدرات عالية تستطيعين أن تكفري فخوراً به وأن ...

صاحت « مونا » في تعبير العصيان وهي تقاطعها : أمي ... إنني أعرف ما تريدني أن أقوله .. سوف تحاولين أن تعطيني بشأن « الفريد » .. وأصلت الماركية في وجههم . وهي تحاول حبس دموعها : « إنك لا تعيدلين التخصيم .. إذا لم تكوني قد أحسست ... » قالت بتعبير يكاد يكون مرفعاً : وماذا ؟ ولكن يا أمي في الحقيقة ...

صاحت السيدة « ديجليرون » وهي تقوم بمجهود عجيب : « مونا » لا بد أن تسمعي ما ينبغي علي أن أقوله لك .. قالت الكونتيسة وهي تشبك ذراعها . وتنتصع الإذعان الوقح : « إنني مضيقية » .

وقالت بدم بارد لا يمكن تصوره : اسمحي لي يا أماء أن أدق الجرس « بولين » كي أصرفها ... ودقت الجرس .

— يا ضفتي العزيزة لا تستطيع « بولين » أن تسمع ... وأصلت الكونتيسة في تعبير جاد بدا شاذاً في نظر الأم : « يا أماء » لا بد لي ... « وتوقفت ، وكانت الخادمة قد وصلت فقالت لها : « بولين » اذهبي بنفسك عند « بودران » لتعرف سبب عدم وصول قبعتي إلى حتى الآن .

وعادت تجلس ناظرة إلى أمها بالانباء . وكان قلب الماركية قد تورم كما قال عينها الجفاف . وأحست حينذاك بأحد الانفعالات التي لا تفهم سوى الأمهات الآماء . وأخذت الكلمة كي تتصف ابتها بشأن الخطر الذي عايش فيه . ولكن إما أن الكونتيسة وجدت نفسها قد جرحت بداعي الشكوك التي نشأت عند والدتها عن نجل الماركية « ديفاندريس » أو أنها صارت فريسة لإحدى نوبات الجنون غير الملهومة التي يكمن سرها في عدم الخبرة ونقص التجربة لدى كل

الشباب . فانهزت فرصة فترة السكون التي أتاحها أمها كي تقول لها وهي تصحك ضحكاً مفتعلاً : « ماما . لم أكن أعتقد أنك تعبرين إلا فيما يتعلق بالآب ... »

وأفلت السيدة « ديجايون » عينيها عند سماع هذه الكلمات . وخفضت رأسها . وأصدرت شهداً رقيقاً للغاية . وألقت ببصرها في الهواء كأنها تريد أن تطيع عاطفة لا تقهر تدفعها إلى الاستغالة بالله في أزمنة الحياة الكبرى . ثم وجهت نحو ابنتها عينيها مليتين بحلالة مرعبة ، ومضطورتين بطابع الألم العميق ، وقالت بصوت مضطرب في سمعهم : يا ابنتي لقد كنت قاسية على أمك أكثر مما كانت قسوة الرجل الذي أذنب في حقك . ومن المحتمل أكثر من الله ...

ونبهت السيدة « ديجايون » ولكن لم تكده تصل إلى الباب حتى استدارت ، ولم تشهد سوى الاستغراب في عيني ابنتها . وخرجت ، وأمكنها أن تبلغ الحديقة حيث خارت قواها . وهناك استشعرت في قلبها آلاماً قوية وسقطت فريق مقعد .

واستطاعت أن تلمح هنالك بعينها الجائنتين في التراب آثار خطوات قدم حديثة جداً ترك حذاهن علامات يمكن معرفتها معرفة أكيدة . لقد كانت ابنتها ضائعة بلا أدنى شك . واعتقدت أنها فهمت الدافع إلى توكليل « بولين » بحمة على هذا النحو .

وصحب هذه الفكرة القاسية إشتاء سرأشد كراهية وبغضاً من كل ما عداه

لقد اعتقدت أن ابن الماركيز « ديفاندرييس » قد حطم في قلب « مونيكا » الاحترام الواجب من الابنة نحو أمها . وازداد عليها الألم ، وعانت عن وعيها بلا حس . وبقيت كما لو كانت نائمة .

ووجدت الكونتيسة أن والدتها قد سمحت لنفسها بأن توجه إليها كلاماً لا دعاء جافاً إلى حدها وظنت أنها تستطيع في الليل - بإحدى الملابس أو بزيهته وبعض الاهتمامات - أن تعيد وصلاً أنصرقها بينهما . ولم تكده تسمع صبيحة في الحديقة حتى مالت بغير اهتمام كبير ، في نفس اللحظة التي نادى فيها « بولين » ولم تكن قد خرجت بعد ، نداء الاستنجاج ، وأمسكت بالماركيزة بين ذراعيها .

كانت آخر كلمة نطقت بها هذه الأم : لا تتيري فرع ابنتي .

وشهدت « مونيكا » نقل أمها شاحبة بغير حياة . وهي تنفخ بصعوبة مع تحريك ذراعيها كما لو كانت تريد أن تقاوم أو أن تتكلم . ونهبت « مونيكا » والدتها وقد صرعتها هذا المشهد ، وأعانت في صمت على رقادها في سريرها . وعلى خلع ملابسها ، وثقلت عليها غلظتها .

وفي هذه اللحظة المتناهية عرفت أمها ، ولم تعد قادرة على أن تصانع أي شيء . وأرادت أن تكون معها على انفراد ، وعندما لم يعد أحد منهما في الغرفة ، وأحست ببرودة هذه اليد التي كانت دائماً تربت عليها وتلاطفها انهمرت دموعها .

وأفادت الماركيزة على هذا النحيب فكان لا يزال في مقلوبها أن

تنظر إلى محبوبتها « مونيّا » . ثم تحت تأثير صوت ابتها الذى كان على وشك أن يمزق صدرها الرقيق غير المنظم ، جعلت تتأمل ابتها وهى تبسم ، وأثبت هذا الابتسام لقائلة أمها الصغيرة أن قلب الأم هوة يوجد العفو في قاعها دائماً .

ومجرد التعرف على حالة الماركيزة أرسل خدم فوق الجياد ليأتوا بطبيب ويجراح وبأحفاد السبلة « ديجليمون » . وقد وصات الماركيزة الصغيرة وأولادها في نفس الوقت الذى وصل فيه رجال الحرف وكونوا جديعة رهبة صامتة قلقة اختلط بها الحلم .

وجاءت الماركيزة الصغيرة التى لم تسمع أية ضوضاء تدق بركة على باب الغرفة ، وعند سماع هذا الصوت استيقظت « مونيّا » بلا شك من ألمها ، ودفعت فجأة مصراع الباب ، وألقت بنظرات شاردة نحو هذه الجمعية الأسرية ، وبدت في حالة من سوء النظام ، مما كان ذا تعبير أرفع من تعبيرات اللغة . وظل الكل صامتاً إزاء مشهد تأنيب الضمير الحى على هذا النحو ، وكان من السهل أن ترى أقدام الماركيزة الصلبة الممددة في ثقلص فوق سرير الموت . واعتملت « مونيّا » فوق الباب ، ونظرت إلى أفعالها وقالت في صوت أجوف :

« لقد فقدت أمي ! »

باريس ١٨٢٨ - ١٨٤٤

المحتويات

صفحة	
٥	مقدمة الروائي العظيم
١٥	١ - الأخطاء الأولى
١٢٥	٢ - آلام مجهولة
١٥٧	٣ - في سن الثلاثين
١٩٣	٤ - أصبح الرب
٢١٥	٥ - اللقاءان
٢٩٦	٦ - شيخوخة أم متدبة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٠/٥٥٠٩

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠

امراة في الثلاثين

ولد بلزاك في ٢٠ مايو سنة ١٧٩٩ بمدينة (نور)
بفرنسا ، وتوفي في ١٨ أغسطس سنة ١٨٥٠ . وعاشت معه بين
هذين التاريخين أحداث التحول الفكري ، والسياسي ،
والاجتماعي ، والادبي ، والفني ، في فرنسا وفي العالم أجمع .
وكان بلزاك كاتباً خصياً أغنى الأدب الروائي الفرنسي
بعدد من الأعمال الخالدة : مثل : « جلد الأحرار » ،
« الأب جوريو » ، « ورجس جراتيه » ، « ورجس الموهلة »
« الإنسانية » ، « طبيب الأرياف » ، « ورجس الأوصاف المنقشة » .
ولم يكن بلزاك هو واضع نظرية الأدب الواقعي ، ولكنه كان
المرخص بها الذي حدد معالمه أكثر وأكثر ، كلما تقدم في
كتابهاته ، ونرى بذلك شيئاً فشيئاً من الرومانتيكية .

وكان بلزاك أميل إلى الواقعية في هذه الرواية التي صور
فيها « امراة في الثلاثين » ، ولئن ظل الإطار مصبوغاً بروح
الرومانتيكية . وهي رواية استلهمها من شخصية امراة
حقيقية في الثلاثين من عمرها اعتادت أن تراسله تقديراً
واحتراماً لفته وأدبه . ومن بين الأحداث الواردة في سطورها
ما يكشف عن أن الكثير من وقائعها حقيق . وقد أوسعت إليه
هذه السيدة معظم مواقف الجدة والصراة في حياة السيدة
« ديجليسون » التي تصورها روايته « فقد تزوجت هذه السيدة
من شاب كبير ، يرغم تعذيبه ولذعها لها ، وعاشت بعد ذلك
عددًا من الحاسي ، وعاشت في حياتها وسيرة بناتها من بعدها
ما يرويه بلزاك هذا بقلبه المرفف الحساس ، ووجدانه الرقيق ،
وقلمه القنن المبدع .

